

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190648

UNIVERSAL
LIBRARY

Osmania University Library

Call No. ٨٩٢٥٢٥

Accession No. A. 15289

Author

ج ١

ابن حيان التوحيدى

١٥٢٨٩

Title

الامناع والمواسنة - ١٩٣٩

This book should be returned on or before the date last marked below.

بجته التأليف والترجمة والنشر

كتاب

الامتاع والموانسة

وراقة

١٥١

تأليف

أبي حيان التوحيدي

وه مجموع مسامرات في فنون شتى

حاصرهما الورير أنا عبد الله العارس في سبع وثلاثين ليلة

الجزء الأول

صححه وضبطه وشرح غريبه

أحمد أمين و أحمد الزين

القاهرة

مطبعة المؤلف والترجمة والنشر

١٩٣٩

مقدمة

كتاب الامتاع والموانسة

بقلم : أحمد أسبى

أبو حيان التوحيدى من أولئك العلماء الأدياء ، الذين أصيدوا فى حياتهم بالبؤس والشقاء ، وظل حياته يجاهد ويكافح فى النأيف واحتراف الوراقة والنسخ وجوب الأقطار ، يقصد الأسراء والوزراء لعلمهم يكافئون علمه وأدبه ، فلم يحط من كل ذلك بطائل ، وعاش كما يقول فى بعض كتبه على نحو أربعين درهما فى الشهر أى ما يساوى جنيتها واحداً — مع أنه كما يقول — رأى كل من حوله من العلماء والشعراء يحظون من الأسراء بالمال الكثير والحظ الوافر ، وليس أكثرهم يدأبيه علماً أو يجاريه أدبا . قصد ابن العميد وابن عباد وابن شاهويه وابن سعدان وأبا الوفاء المهندس وغيرهم ، ومدح وأطرى ، وبكى واشتكى ، وهدد وأوعد ، فما نفعه مدحه ولا دمه ، ولا إطرأؤه ولا محأؤه ، فإن استفاد شئ مما عاناه أبو حيان فإنما هو الأدب بما كتب وألف ، وبما حيا واستعطف .

ولم يكن حظه بعد وفاته بأحسن من حظه فى حياته ، فقد عجب ياقوت من أن مؤرخى الرجال لم يترجموا له ، مع أنه فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسمة ، ولم نعتز فيما بين أيدينا من الكتب على ترجمة وافية لحياته إلا انتفاً قصيرة وأخباراً ضئيلة .

وأراد هو أن ينتقم من الناس الذين كفروا صنيعة ، وجحدوا علمه وأدبه ، فأحرق فى آخر أيامه كتبه ، وقال : « إني جمعت أكثرها للناس ولطلب المثالة

منهم ، ولعقد الرياضة بينهم ، ولمد الجاه عندهم ، فخرمت ذلك كله ... ولقد اضطرت بينهم بعد العشرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء ، وإلى التكفف العاضح عند الخاصة والعامة ، وإلى بيع الدين والروءة ، وإلى تعاطى الرياء بالسمعة والنفاق ، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم ، ويطرح في قلب صاحبه الألم .

قال السيوطى . « وأعل النسخ الموحدة الآن من تصانيفه كتبت عنه في حياته وخرحت من قبل حرقها » .

وكان من شؤمه أنه لم يبق من كتبه التى أنماها — وتبلغ نحو العشرين — إلا القليل ، ولم يطمع منها إلا المقابسات والصدقة والصديق ، ورسالة فى العلوم ، وما بنى منها مخطوطاً ، بل وما طمع منها ثلوه ، ناتحريف والنصحيف إلى حد يقلل من قيمتها والانفعاع بها .

ولعل أقوم كتبه وأنفعها وأمنعها كتابه الذى نحن بصددده وهو « كتاب الإمتاع والمؤانسة » .

فهو كتاب ضخم يقع فى ثلاثة أجزاء أحدا أنفسنا بنشره اتعميم نفعه . وتأليف أبى حيان لهذا الكتاب قصة ممتعة ، ذلك أن أبى الوفاء المهندس كان صديقاً لأبى حيان وللوزير أبى عبد الله العارض ، فقترب أبى الوفاء أبى حيان من الوزير ، ووصله به ، ومدحه عنده ، حتى جعل الوزير أبى حيان من شؤمه ؛ فسأمره سبعة وثلاثين ليلة كان يحادثه فيها ، ويطرح الوزير عليه أسئلة فى مسائل مختلفة فيجيب عنها أبى حيان .

ثم طلب أبى الوفاء من أبى حيان أن يقص عليه كل ما دار بينه وبين الوزير من حديث ، وذكره بنعمته عليه فى وصله بالوزير ، مع أنه « أبى حيان »

ليس أهلاً لمصاحبة الوزراء لقبح هيئته وسوء عاداته وقلة مراعاته وحقارة لبسته ،
وهدهدته إن هو لم يفعل أن يفض عنه ، ويستوحش منه ، ويوقع به عقوبته ،
وينزل الأذى به .

فأجاب أبو حيان طلب أبي الوفاء ، وزل على حكمه ، وفضل أن يدون ذلك
في كتاب يشتمل على كل ما دار بينه وبين الوزير من دقيق وجليل وحلو ومر ،
فوافق أبو الوفاء على ذلك ، ونصحته أن يتوخى الحق في تصاعيمه وأثناؤه ،
والصدق في إirاده ، وأن يطنب فيما يستوجب الإطناب ، ويصرح في
موضع التصريح .

« فكان من ذلك كتاب الإمتاع والمؤانسة »

من هو الوزير أبو عبد الله العارض الذي ساءره أبو حيان ؟
لقد بحثت عنه في مظانه فلم أوفق إلى العثور عليه ، وقبل ذلك عني المرحوم
أحمد زكي باشا بالبحث والسؤال عنه من بعض علماء الشرق والغرب فكان
حظه حظي .

وأخيراً رجحت أنه هو الوزير أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان
وزير صمصام الدولة البويهى ، وقد ورد اسمه هكذا في كل ما راجعت من
كتب التاريخ أمثال : (تجارب الأمم) وذيله (وإن الأثير) ، ولم يلقيه أحد منهم
(بالعارض) ؛ وكلمة (العارض) كما في كتاب (الأنساب للسمعاني) معناها : « من
يعرف العسكر ويحفظ أرزاقهم ، ويوصلها إليهم ويعرضهم على الملك إذا احتيج
إلى ذلك » فالظاهر أن الوزير أبا عبد الله لقب هذا اللقب إما لأنه تولى هذا
العمل قبل أن يتولى الوزارة ، أو كان هذا لقباً لأسرته ؛ ودليل على ذلك أمور :
(١) أنه ورد في صدر هذا الكتاب أن أبا الوفاء ذكر لأبي حيان :

أنك لما انكفأت من الرّى إلى بغداد فى آخر سنة ٣٧٠ مغيظاً من ابن عباد ، وعدتك صلاح حالك ، وأن أوصلك إلى الأستاذ أبى عبد الله العارض ، ثم جاء وصف أبى عبد الله هذا بالوزير .

وبحسب إذا رجعنا إلى من استوزر فيما بين سنة ٣٧٠ وسنة ٣٧٥ لم نجد وزيراً يكنى بأبى عبد الله إلا الوزير أبى عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان ، فقد استوزره صمصام الدولة سنة ٣٧٣ وقتله سنة ٣٧٥ .

(٢) جاء فى أنباء كتاب « الإمتاع والمؤانسة » أن أنا حيان قص على الوزير أنه سمع رجلاً على جسر بغداد يقول وقد رأى ابن نقيّة الوزير المشهور مصلوباً بعد أن مات عصد الدولة : « سمحان الله ! عصد الدولة تحت الأرض وإن بقية فوق الأرض » ، فلما سمع الوزير ذلك قال : استأذنت الملك فى دفن ابن نقيّة فدفن .

وقد ذكر المؤرخون أن ابن نقيّة دفن فى عهد صمصام الدولة ؛ ولم يكن اصمصام الدولة وزير يكنى بأبى عبد الله غير ابن سعدان

(٣) ومما يستأنس به أن أنا حيان كان متصلاً بالوزير ابن سعدان وألف له كتاب « الصداقة والصديق » وقد ذكر فى أوائله « أن السبب كان فى إنشاء هذه الرسالة أنى ذكرت شيئاً منها لزيد بن رفاعة أبى الخير ، فناه إلى ابن سعدان سنة إحدى [وسمعين] وثلاثمائة قبل تحمله أعباء الدولة وتديره أمر الوزارة حين كانت الأشغال خفيفة ، والأحوال على أذلالها جارية ، فقال لى ابن سعدان : قد قال لى زيد عنك كذا وكذا . قلت : قد كان ذلك . قال : فدوّن هذا الكلام وصله بصلاته فجمعت ما فى هذه الرسالة » .

فاتصال أبي حيان بابن سعدان وتأليفه له كتاب «الصدقة والصديق» يرجح الظن بأنه هو أبو عبد الله العارض .

نم كان من رجال صمصام الدولة من اسمه أبو الحسن بن عمارة العارض استخدمه صمصام الدولة في السفارة بينه وبين أعدائه أحياناً ، ولكن بعد أن يكون هو الذي أُلّف له كتاب الإمتاع والمؤانسة — لأن كنيته أبو الحسن وإنّدى أُلّف له الكتاب أبو عبد الله — ولأن أبا الحسن لم يكن وزيراً لصمصام الدولة . وفي الكتاب النص في مواضع متعددة على أنه أُلّفه لوزير .

(٤) ذكر في كتاب « الإمتاع والمؤانسة » أصدقاء أبي عبد الله العارض وعدد منهم ابن زرعة وأبا الوفاء المهندس ومسكويه والأهوازي وبهرام وابن شاهويه ، وأنهم كانوا يلزمونه وأنهم أهل مجلسه ، وعدد في كتاب الصدقة والصديق أصدقاء ابن سعدان فإذا هم هم^(١) ؛ فاتحاد الأصدقاء وتوافقهم واجتماعهم في مجلس وزير يرجح الظن جداً بأن ابن العارض هو ابن سعدان .

(٥) جاء في « كتاب الإمتاع والمؤانسة » أن الوزير سأل أبا حيان عما يقول الناس فيه . فقال له : « سمعت بباب الطاق قوما يقولون : اجتمع الناس اليوم على الشط ، فلما نزل الوزير ليركب الزبزب صاحوا وضجوا وذكروا غلاء القوت وعوز الطعام وتعذر الكسب وغلبة الفقر ، وأنه أجابهم بجواب مُرّ مع قطوب الوجه وإظهار التبرم » .

وهذه الأوصاف كلها تنطبق على ما ذكره أبو شعجاع في كتابه « ذيل تجارب الأمم » عن حادثة جرت لابن سعدان .

وابن سعدان هذا استوزره مصمص الدولة البويهى سنة ٣٧٣ لما تقلد الأمور بعد وفاة أبيه عضد الدولة . جاء فى كتاب « ذيل تجارب الأمم لأبى شجاع : » وفيها [أى فى سنة ٣٧٣] خلُع على أبى عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان خلُع الوزارة — وكان رجلاً باذلاً لعطائه ، مانعاً للقائه ، فلا يراه أكثر من يقصده إلا ما بين نزوله من درجة داره إلى زبزه^(١) ؛ ومع ذلك فلا يخيّب طالب إحسان منه فى أكثر مطلبه فبسط يده فى الإطلاقات والصلات وأحدث من الرسوم استيفاء العشر من جميع ما تسبب به الأولياء والكتّاب والخواشى من أموالهم وأرزاقهم وانضاف إلى ضيق خلقه ما اتفق فى وقت نظره من غلاء سعر ، فتطيرت العامة ورجعوا زبزه ، وشغبوا الديلم عليه ، وهجموا على نهب داره ، واتتهت الحال إلى ركوب مصمص الدولة إلى مجتمعهم حتى تلافاهم وردّم^(٢) . »

وقد ظل ابن سعدان فى الوزارة إلى سنة ٣٧٥ حتى ظهر له خصم هو أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ، فظل يكيد له وينصب الشباك للإيقاع به .

وحدث أن ابن سعدان أراد أن يعين أباه كاتباً لوالدة مصمص الدولة لما مات كاتبها ، فقال أبو القاسم لمصمص الدولة : « إن ابن سعدان قد استولى على أمورك ، وملك عليك خزائنك وأموالك ، فإذا تم له حصول والده مع السيدة حصلنا تحت الحجر معه^(٣) . » وتمت المكيدة ولم يعين أبوه . ثم قبض على ابن سعدان وأصحابه وأودعوا السجن ، واستوزر مصمص الدولة هذا الواشى

(١) الزبزب : صرب من السفن .

(٢) ص ٨٥ .

(٣) ص ١٠٣ .

أبا القاسم عبد العزيز بن يوسف ، ولم يكتف أبو القاسم بمحبس ابن سعدان . فانتهاز فرصة خروج نائر على صمصام الدولة اسمه « أسفار بن كردويه » يريد خلعه ، فدس أبو القاسم إلى صمصام الدولة أن ابن سعدان متصل بهذا النائر وأن الذى جرى كان من فعله وتدييره ، وأنه لا يُؤمّن ما يتجدد منه فى محبسه ، فأمر صمصام الدولة بقتله ، فقتل سنة ٣٧٥ .

وكان لابن سعدان ناحية أخرى علمية أدبية يصورها أبو حيان فى كتبه ، فهو واسع الاطلاع ، له مشاركة جيدة فى كثير من فروع العلم من أدب وفلسفة وطبيعة وإلهيات وأخلاق ، يدل على ذلك حواراه الذى يحكيه أبو حيان فى كتابه الإمتاع والمؤانسة والمقابسات ، فهو يسأل أسئلة عميقة ، وينقد الإجابة عنها نقداً قيمياً .

وفوق ذلك كان له فى وزارته منتدى يجمع كثيراً من جلة العلماء والأدباء منهم ابن زرعة الفيلسوف النصرانى ، وابن مسكويه صاحب (تهذيب الأخلاق) (وتجارب الأمم) ، وأبو الوفاء المهندس الذى سنتحدث عنه ، وأبو سعد بهرام بن أردشير ، ومن الشعراء ابن حجاج الشاعر الماحن المشهور ، ومن الكتّاب أبو عبيد الخطيب الكاتب ، وأبو حيان صاحبنا .

وكان له مجلس شراب يجلس إليه بعض هؤلاء فيتقاهم كهوف ويتنادرون ويذهبون فى فنون الحديث كل مذهب ، ومجلس حد يتحاورون فيه ويتناقشون فى الفلسفة والأخلاق والأدب :

وكان يباهى بمجلسه ويفخر به على محالس الأمراء المعاصرين له . مثل المهلبى وابن العميد والصاحب بن عباد . فيقول فى أحصانه هؤلاء : « ما لهداه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير ، . . . وأن جميع ندماء المهلبى لا يعون الواحد من

هؤلاء ، وأن جميع أصحاب ابن العميد يشتهون أقل من فيهم ، وأن ابن عباد ليس عنده إلا أصحاب الجدل الذين يشغبون ويحمقون ويتصايحون^(١) . فلا عجب — إذن — أن يكون من نتاج ابن سعدان الوزير العالم هذا الكتاب الذى نحن بصددده ؛ كتاب « الإمتاع والمؤانسة » .

وأما أبو الوفاء الذى وصل أنا حيان بن سعدان والذى أنف أبو حيان له كتاب « الإمتاع والمؤانسة » ودون له فيه كل ما دار بينه وبين الوزير فى سبع وثلاثين ليلة ، فهو محمد بن محمد بن يحيى المؤرجانى . ترجم له ابن النديم فى (المهرست) وابن خلكان فى (وفيات الأعيان) ؛ وقال فيه هذا الأخير : « إنه أحد الأئمة المشاهير فى علم الهندسة ، وله فيه استخراجات غريبة لم يسبق بها ، وكان شيخنا العلامة كمال الدين أبو الفتح موسى بن يونس — وهو القيم بهذا الفن — يبالغ فى وصف كتبه ، ويعتمد عليها فى أكثر مطالعاته ويحتج بما يقوله وكان عنده من نأليعه عدة كتب وكانت ولادته سنة ٣٢٨ بمدينة بوزجان ، وقدم العراق سنة ٣٤٨ ، وتوفى سنة ٣٧٦ » . وقد ذكر ابن خلكان أنه نقل تاريخ الوفاة هذا من شيخه ابن الأثير . ولكن الذى فى ابن الأثير أنه عدّ وفاته فى حوادث سنة ٣٨٧ ، فإما أن ابن خلكان أخطأ فى النقل أو أن الناسخ أخطأ فى الكتابة .

وكان أبو الوفاء هذا من ندماء ابن سعدان كما تقدم ، وقد وصفه ابن سعدان فى جملة ما وصف من أصحابه . فقال : « وأما أبو الوفاء . فهو والله ما يقعد به عن المؤانسة الطيبة والمساعدة المطربة والفاكهة اللذيذة والمواتاة الشهية ، إلا أن لفظه حراسانى ، وإشارته ناقصة ، هذا مع ما استفاده بمقامه الطويل بغداد ، والبغدادى

إذا تخرسن كان أعلى وأنظر من الحراساني إذا تبعد^(١) .

إلى هنا رأينا أن الكتاب ألف لأبي الوفاء المهدس ، نقل فيه أبو حيان ما دار بينه وبين ابن سعدان . ولكن القمطنى فى كتابه « أخبار الحكماء » عمد ترجمته لأبي سليمان المنطقى أورد كلاماً يماقض ما نقول ، سواء فى ذلك من ألف نه الكتاب ، ومن دار الحديث بينه وبين أبي حيان .

فقد ذكر : « أن أنا سليمان كان أعور ، وكان به وَضَح ، وكان ذلك سبب انقطاعه عن الناس ولزومه منزله ، فلا يأتية إلا مستميد وطائب علم ، وكان يشتهى الاطلاع على أخبار الدولة وعلم ما يحدث فيها وكان أبو حيان التوحيدى من بعض أصحابه المعتصمين به ، وكان يغشى مجالس الرؤساء ويطالع على الأخبار ، ومهما علمه من ذلك نقله إليه وحاضره به ، ولأجله صنف كتاب « الإمتاع والمؤانسة » نقل له فيه ما كان يدور فى مجلس أوى الفضل عبد الله بن العارض الشيرازى عند ما تولى وزارة صمصام الدولة بن عصف الدولة^(٢) » . وأنا أرجح خطأ القمطنى فى الوجهين معاً .

فأما فى الأول : فإن النسخة التى بيدي تذكر أنه ألفه لأبى الوفاء المهدس لأبى سليمان المنطقى . ويقول فى صدر الكتاب : إنه ألفه رداً للجمل أبى الوفاء إذ كان هو الذى أوصله لأبى عبد الله . وعندما يأتى ذكر أبى الوفاء فى ثنايا الكتاب ، ويسأل أبو عبد الله أبا حيان عن رأيه فيه يمدحه ويثنى عليه ، ويقول : كيف أذمه وهو الذى أوصلنى بك ، وقد سبق أن أثبتنا أن أبا الوفاء كان من ندماء أبى عبد الله .

(١) الصداقة والصديق ٣٢ .

(٢) أخبار الحكماء ص ٢٨٣ .

ودليل آخر ، وهو أن أبا حيان في بعض كلامه في الكتاب يستجدي من أَلَف له الكتاب ، وقد كان أبو الوفاء المهندس في منزلة تسمح له بذلك ، فإنه رجل جليل القدر يلقبه الوزير بشيخنا . أما أبو سليمان فكان فقيراً كما ذكر ذلك أبو حيان في هذا الكتاب ، وكانت صلة أبي حيان به صلة علمية لا صلة مالية ، فمن البعيد جداً أن يستجديه أبو حيان .

ودليل ثالث : وهو أن الوزير أبا عبد الله سأل أبا حيان في الكتاب عن أبي سليمان هذا ، فذكر له أوصافه ، وفيها ما هو عيب لأبي سليمان كقوله : إنه يجتمع مع قوم للشراب ، ويذكر بعضهم الوزير بالسوء ، فلو كان أبو حيان ألقه لأبي سليمان لكان بعيداً كل البعد أن يذكر هذا الحديث .

ودليل رابع : وهو أن أبا حيان ينقل في كتابه هذا عن أبي سليمان ، ويذكر آراءه ، وينقل بعض رسائله إلى الوزير ، ولو كان يؤلف الكتاب لأبي سليمان لاستغنى عن ذكر ما يعرفه أبو سليمان عن نفسه من أقواله ورسائله ، ولكن أبو حيان في ذلك كمن ينقل إلى الثر ماءه ، وإلى الكنز ذهبه ، وهذا غير مألوف ولا مستساغ .

لهذا كله رجع خطأ القفطى فيما ذهب إليه من أنه ألقه لأبي سليمان المنطوق .

كما رجع خطأه في الشق الثاني ، وهو أن أبا حيان دوّن فيه ما كان يدور

بينه وبين أبي الفضل عبد الله بن العارض الشيرازى وزير صمصام الدولة .

ذلك لأن النسخة التى بين أيدينا يذكر فيها أبو حيان أنه دوّن فيه ما دار

بينه وبين أبي عبد الله العارض لا أبي الفضل عبد الله بن العارض . وقد راجعنا

كتب التاريخ التى بين أيدينا وأحصينا فيها من تولى الوزارة 'صمصام الدولة' فلم نجد من بينهم أبا الفضل عبد الله بن العارض الشيرازى الذى ذكره القفطى

وكما تقول دائرة المعارف الإسلامية في مادة أبي حيان تبعاله .

نعم رأينا من يسمى أبا العصل الشيرازي ، وكان يعيش في هذا العصر
ولكن اسمه أبو العصل محمد بن عبد الله بن المرحوم الشيرازي لا أبو العصل
عبد الله الشيرازي كما يقول القمطي . وكان هذا كاتباً لا وزيراً ، وكان صديقاً
لأبي علي الحسن التنوخي ، ونقل عنه كثيراً في كتابه « نشوار المحاضرة » ولقمه
الكاتب لا الوزير . والذي ألف له الإمتاع والمؤانسة ورير لا كاتب .

يضاف إلى ذلك ما ذكرنا قبل من البراهين .

فالسكتاب — في رأينا — كتب لأبي الوفاء المهندس لا أبي سليمان المظقي
ودون فيه ما دار في مجلس ابن سعدان لا أبي العصل الشيرازي .

وصف السكتاب : قال القمطي في وصفه : « وهو كتاب ممتع على الحقيقة
لمن له مشاركة في فنون العلم ، فإنه خاض كل بحر ، وعاص كل لجة ، وما أحسن
ما رأيته على ظهر نسخة من كتاب الإمتاع بخط بعض أهل جزيرة صقلية وهو :
ابتداء أبو حيان كتابه صوفياً وتوسطه محدثاً ، وختمه سائلاً ماحقاً ^(١) » .

قسم أبو حيان كتابه إلى ليال ، فكان يدون في كل ليلة ما دار فيها بينه
وبين الوزير على طريقة قال لي وسألني وقلت له وأجبتة . وكان الذي يقترح
الموضوع دائماً هو الوزير . وأبو حيان يجيب عما اقترح ، وكان الوزير يقترح
أولاً موضوعاً حسبما اتفق وينتظر الإجابة ؛ فإذا أجاب أبو حيان أثارت إجابته
أفكاراً ومسائل عند الوزير فيستطرد إليها ويسأله عنها ، فقد يسأله سؤالاً يأتي

(١) أخبار الحكماء ٢٨٣ .

في أثناء الإجابة عنه ذكر لابن عباد أو ابن العميد أو أبا سنيان المنطقي ، فيسأله الوزير عنهم وعن رأيه فيهم ، وهكذا ، يستطرد من باب لباب ، حتى إذا انتهى المجلس كان الوزير يسأله غالباً أن يأتيه بطرفة من الطرائف يسميها غالباً : « ملححة الوداع » فيقول الوزير — مثلاً — : إن الليل قد دنا من فجره ، هات ملححة الوداع . وهذه الملححة تكون — عادة — نادرة لطيفة أو أبياتاً رقيقة ، وأحياناً يقترح الوزير أن تكون ملححة الوداع شعراً بدوياً يشم منه رائحة الشيخ والقيصوم وهكذا .

وأحياناً يكلفه الوزير أن يتم له المسألة المعروضة في رسالة ؛ فقد سأله مرة عن المصادر التي تجيء على وزن تعال ، فأجابه أبو حيان عن بعضها ، ثم طلب منه الوزير أن يجمع له ما جاء في اللغة منها .

وأحياناً يتخذ الكلام شكل حوار . فأبو حيان — مثلاً — يروى عن ديوجانيس أنه سئل : متى تطيب الدنيا ؟ . فقال : « إذا تغلسف ملوكها ، وملاك فلاسفتها » ؛ فلم يرض الوزير عن هذا . وقال : إن الفلسفة لا تصح إلا لمن رفض الدنيا وفرغ نفسه للدار الآخرة : فكيف يكون الملك رافضاً للدنيا وقالياً لها ، وهو محتاج إلى سياسة أهلها ، والقيمين عليها باجتلاب مصالحها ونفي مفاسدها ! — وأطال في ذلك — وفي كثير من الأحيان يعلق الوزير على إجابة أبي حيان بالاستحسان أو الاستهجان مع ذكر أسباب ذلك .

وأحياناً يطلب إليه الوزير أن يحضر له رسالة في موضوع ، ثم يتلوها عليه في جلسة مقبلة كما فعل مرة ، إذ كلفه أن يكتب له في المجون والملح ، ففعل أبو حيان وقرأها عليه في مجلس . قال أبو حيان : « فلما قرأتها على الوزير قال : ما علمت أن مثل هذا الحجم يحوى هذه الوصايا والملح » .

وحدث هو نفسه عن ذلك كله في أول الجزء الثاني فقال : « قد فرغت من الجزء الأول على ما رسمت لي القيام به ، وشرفتني بالخوض فيه ، وصردت في حواشيه أعيان الأحاديث التي خدمت بها مجلس الوزير ، ولم آل جهداً في روايتها وتقويمها ، ولم أجنح إلى تعمية شيء منها ، بل زبرجت كثيراً بناصع اللفظ مع شرح الغامض ، وصلة المحذوف ، وإتمام المنقوص ، وحلته إليك على يد « فائق » الغلام ، وأنا حريص على أن أتبعه بالجزء الثاني ، وهو يصل إليك في الأسبوع إن شاء الله .

وقد خاف أبو حيان من بعض ما ورد في الكتاب ؛ فإنه في حديثه مع الوزير عاب استخفافاً من رجالات الدولة الذين يستطيعون إيذاؤه ، فرجا أبا الوفاء أن يحفظ هذا الكتاب سرا ، فقال : « وأنا أسألك ثانية على طريق التوكيد كما سأنتك على طريق الاقتراح أن تكون هذه الرسالة مصونة عن عيون الحاسدين العيابين ، بعيدة عن تناول أيدي المفسدين المافسين ، فليس كل فائل يسلم ، ولا كل سامع ينصف » .

وقد أنجز أبو حيان وعده ، وأرسل إليه الجزء الثاني على يد غلامه فائق أيضاً . ثم أرسل إليه الجزء الثالث وهو الأخير ، وقال في أوله : « قد أرسلت إليك الجزئين الأول والثاني . وهذا الجزء — وهو الثالث قد والله ألقيت فيه كل ما في نفسي من جد وهزل ، وغث وسمين ، وشاحب ونضير ، وفكاهة وأدب ، واحتجاج واعتذار ولأنه آخر الكتاب ختمته برسالة وصلتها بكلام في خاص أمرى » .

وعلى هذا الوضع ينتهى الكتاب .

ولست أستبعد أن يكون أبو حيان قد تزيده فيه ، واخترع أشياء لم تخبر في

مجلس الوزير ، فقد عرف عنه أمثلة من هذا القبيل ، فقد اتهمه العلماء من قبل ومنهم ابن أبي الحديد بأنه وضع الرسالة المشهورة المعزوة إلى أبي عبيدة على لسان أنى بكر وعمر في حق علي بن أنى طالب ، وأعل هذا التريد كان من ضمن الأسباب التى دعتة أن يرجو أنا الوفاء فى أن يكون الكتاب سراً ، فإبه ألف الكتاب فى حياة الوزير . وخشى أن الوزير يطلع عليه فيعلم مقدار ما تريد . أما أنه أنه فى حياة الوزير ، فالدايل عليه ما جاء فى نسخة ميلانو : « أنشئت هذه الرسالة فى رجب سنة ٣٧٤ » والوزير ابن سعدان ظل وزيراً من سنة ٣٧٣ إلى سنة ٣٧٥ كما تقدم .

وأيا ما كان ، فالكتاب ممتع مؤنس كاسمه ، يلقى بوراً كثيراً على العراق فى النصف الثانى من القرن الرابع — أعنى فى العصر البويهى — وهو عصر مغبش بالظلام فإبه يتعرض لكثير من الشؤون الاجتماعية فى ثايا حديثه ، فيصف الأمراء والوزراء ومحاسنهم كابن عماد وابن العميد وابن سعدان ، ومحاسنهم ومساوئهم ، ويصف العلماء ، ويحلل شخصياتهم ، وما كان يدور فى مجالسهم من حديث وجدال وحصومة وشراب ، ويصف الفراخ بين المناطقة والنحويين كالمناظرة الممتعة التى جرت بين أنى سعيد السيرافى ومتى بن يونس القنأى فى المفاضلة بين المنطق اليونانى والنحو العربى ، ورأى العلماء فى الشعوبية والمفاضلة بين الأمم ، إلى كثير من أمثال ذلك .

وفى الكتاب النص الوحيد الذى كشف لنا عن مؤلفى إخوان الصفاء ، وقد نقله القفطى منه ، إذ كان الوزير قد سأل أبا حيان عن هذه الرسائل ومن ألفها ؛ وعن القفطى نقله كل من كتبوا عن إخوان الصفاء .

كما أن فيه فوائد كثيرة عن الحياة السياسية للدولة ، فهو يصف كثيراً حالة الشعب في عصره وموقفهم من الأمراء والملوك ، وهيجانهم واضطرابهم وأسباب ذلك .

وكما يعرض أحياناً للحياة الاجتماعية الشعبية فيذكر عدد القينات في الكرخ فيقول : « ولقد أحصينا في سنة ٣٦٠ : ٤٦٠ جارية من القينات ومائة وعشرين من الحرائر ، وخمسة وتسعين من الصبيان الذين يجمعون بين الحذق والحسن . هذا سوى من كنا لا نظفر به ولا نصل إليه لعزته ورقبائه ، وسوى ما كنا نسمعه ممن لا يتظاهرون بالغناء بالضرب إلا إذا نشط أو ثمل في حال أو خلع العذار في هوى » . وأطيل جداً لو وصفت ما في الكتاب من فوائد .

ثم إن أسلوبه في تقسيمه إلى ليال ، وذكره ما دار في كل ليلة على سبيل الحديث والحوار ، يجعله لذيذاً شيقاً ، أو على حد تعبيره هو — بمتمتعاً مؤنساً — فهو أشبه شيء بألف ليلة وليلة ، ولكنها ليست ليالى للهو والطرب وكيد النساء ولعب الغرام ، إنما هي ليال للفلاسفة والمفكرين والأدباء ، إذ يتعرض فيه لأهم مشاكل الفلاسفة ، كالبحث في الروح والعقل والقضاء والقدر وما إلى ذلك ، كما يتعرض لمشاكل البلغاء كالليلة البديعة التي جرى فيها الحديث عن النثر والنظم والمفاضلة بينهما ، ومزايا كل ونقصه وهكذا . فإن كان ألف ليلة وليلة يصور أبداع تصوير الحياة الشعبية في ملاحمها وفتنها وعشقها ، فكتاب الإمتاع والمؤانسة يصور حياة الأرستقراطيين أرستقراطية عقلية ؛ كيف يبحثون ، وفيهم يفكرون ، وكلاهما في شكل قصصى مقسم إلى ليال ، وإن كان حظ الخيال في الإمتاع والمؤانسة أقل من حظه في ألف ليلة وليلة .

وأسلوب أبي حيان في الكتاب أسلوب أدبي راق كهدهنا في كل كتابته ؛
يحب الازدواج ويطيل في البيان ، ويحتذى حذو الجاحظ في الإطناب والإطالة
في تصوير الفكرة ، وتوليد المعاني منها حتى لا يدع لقائل بعده قولاً ؛ ولكن
أغرض أسلوبه في هذا الكتاب تعرضه كثيراً لمسائل فلسفية عميقة قد عزت
على البيان ، ودقت عن الإيضاح ، فإذا هو خرج عن هذه الموضوعات الدقيقة
إلى موضوعات أدبية : كوصف لفرقه وبؤسه ، أو وصف للكرم وفوائده ،
أو وصف للسان والبيان ؛ جرى قلمه وسال سيله وأجاد وأبدع .

نسخ الكتاب : للكتاب — فيما أعلم — نسختان ، لا أعلم لهما في مكاتب
العالم نالثة .

فأما النسخة الأولى فكاملة ، وهي تقع في خمسة أقسام .

وقد جاء في طرة الجزء الثاني ما نصه : « رسم لخزانة السلطان الأعظم ، مالك
رقاب الأمم ، مولى ملوك العرب والعجم ، باسط الأمن والأمان ، ناشر العدل
والإحسان ، أبي المفاخر فخر الدنيا والدين سليمان بن غازي « محمد الأيوبي » خلد
الله تعالى مملكته وسلطانه ، وأعلى في الخافقين عزه وبرهانه » .

فالجزء الثاني كتب للعادل سليمان بن غازي الأيوبي .

وكان العادل سليمان أديبا شاعرا ، جاء في (كشف الظنون) ذكر كتاب
اسمه « الدر الثمين في شعر الثلاثة السلاطين » وهم : « العادل سليمان الأيوبي وولده
الأشرف أحمد وولده الكامل خليل » . فسليمان هذا هو صاحب الخزانة
المكتوب هذا الجزء برسمها .

وجاء في آخر هذا الجزء : « تمت الجزء الثانى من كتاب المؤانسة والإمتاع بحول الله وحسن توفيقه فى شوال سنة خمسة عشر وثمانمائة على يد أضعف العباد شرف بن أميره فى حصن المحروسة حماها الله تعالى عن الآفات والعاهاات آمين يا رب العالمين » .

وخط الجزء الثانى (وهو فى ثلاثة مجلدات) مخالف لخط الجزء الأول (وهو فى مجلدين) ، وإن كان الخطان قريبي الشبه بعضهما ببعض ، والجزء الأول غير مضبوط ، والثانى مضبوط بالضبط الكامل . وكلا الجزئين مملوء بالأخطاء الخطيرة بالزيادة والنقص والتحريف ، ويظهر أن الكاتبين من الخطاطين الذين يجيدون الخط ولا يحسنون الفهم . وكاتب الجزء الثانى يغلب على الظن أنه تركى لا يحسن العربية فهو يقول : « تمت الكتاب » « لا تم الكتاب » . ويقول « فى سنة خمسة عشر وثمانمائة » بدل « خمس عشرة » وهذه — مع الأسف — هى وحدها النسخة التامة .

وهذه النسخة أخذها المرحوم أحمد زكى باشا بالفتوغرافيا من مكتبة طوب قبو سراى لما اطلع على الكتاب وعرف قيمته . وقد أحضر النسخة الفتوغرافية معه إلى القاهرة ، واحتفظ بها فى مكتبته الخاصة ؛ وقد قرأ الكتاب ، ووضع فى الصفحة الأولى من كل جزء فهرسا بعدد الليالى وبعض الموضوعات ، كما وضع أسماء الأعلام الواردة فى الكتاب أمام كل صفحة ، مما يدل على أنه كان يريد نشره ، ويريد ترجمة الأعلام التى وردت فيه ، ولكن لم يتعرض لتصحيح شىء مما فيه من أغلاط .

وقد توفى — رحمه الله — وهى فى مكتبته الخاصة ، فاشترها السيد حمدى السفرجلانى الدمشقى ، وباعها لدار الكتب المصرية .

والنسخة الثانية نسخة فوتوغرافية أخذت من أصل في ميلانو ، وليست كاملة ، وإنما هي قطع ثلاث : قطعتان من الجزء الثانى وقطعة من الجزء الثالث وهى مشوشة غير مرتبة ، وقد استحضرها زكى باشا أيضا ، واحتفظ بها لنفسه ، ثم بيعت لدار الكتب .

ولم يذكر فى أية قطعة من القطع تاريخ نسخها ، وخطها واضح وجميل أيضا ومضبوطة . ولكنها فى جملتها لا تقل فى الأخطاء عن سابقتها .

وقد كان فى نية السيد حمدى السفرجلانى نشر الخطوط قبل بيعها لدار الكتب ، فاستنسخ نسخة منها ، وقرأها مع بعض أفاضل دمشق ، منهم الدكتور حسنى سبىح والسيد رشدى الحكيم و خليل مردم بك ؛ واستظهروا بعض تصحيحات لما وجدوه فى هذه النسخة من تحريف .

وبقيت بعد ذلك مملوءة بالأغلاط كثيرة الجمل والألفاظ التى تشبه الألفاظ حتى لا يخلو سطر منها من وقفات تستدعى الجهد الشديد فى تصحيحها . ففرض على لجنة التأليف نشره ، فوافقت على ذلك ، وعهدت إلى كاتب هذه السطور والأستاذ أحمد الزين بتصحيحه ؛ وقد بذلنا معا جهدا كبيرا فى تصحيح المحرف من ألفاظه ، وتفسير غريبه ، وشرح المشكل من عباراته ، وتكميل الناقص من جملة ، وضبط الملتبس من كلماته ، والتعريف بكثير ممن ورد ذكرهم فيه من العلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة ، وهذا هو جهدنا تقدمه للقراء .

ومع هذا فربما نكون قد أخطأنا الصواب أو أغفلنا بعض المحرف ، وقد أثبتنا ألفاظه المحرفة فى حواشى صفحاته . ويلاحظ أننا فى أكثر الأحيان نثبت اللفظ المحرف وحده غير منبهين على أنه محرف انكالا على فهم القارى ، وفى بعض الأحيان ننبه على أنه تحريف وأن صوابه ما أثبتنا ؛ كما يلاحظ أننا

قسمنا كل ليلة من ليالى هذا الجزء إلى موضوعات ، مثبتين في أول كل موضوع رقما يدل عليه .

فنحن ننشر الجزء الأول من الكتاب اعتمادا على نسخة طوب قبو سراى وحدها ، حتى إذا وصلنا إلى الجزء الثانى أمكننا الانتفاع بنسخة ميلانو .

ولعلنا بهذا النشر نحسن إلى أبى حيان بالتعريف بقيمته ، والإشادة بذكوره ، بعد أن أساء إليه الزمان ، فأماته فى حياته ، وأخذ اسمه بعد وفاته ؛ كما نحسن إلى عصره فنلقى عليه بعض الضوء ، وقد اكتشفه الظلام ، وعفت على آثاره الأيام ، والسلام .

أحمد أمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال أبو حَيَّانَ التَّوْحِيدِيُّ : نَجَا مِنْ آفَاتِ الدُّنْيَا مَنْ كَانَ مِنَ الْعَارِفِينَ وَوَصَلَ إِلَى خَيْرَاتِ الْآخِرَةِ مَنْ كَانَ مِنَ الزَّاهِدِينَ ، وَظَفِرَ بِالْفَوْزِ وَالنَّعِيمِ مَنْ قَطَعَ طَمَعَهُ مِنَ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ وَعَلَى آلِهِ الطَّاهِرِينَ .

- (١) أما بعد ، فَإِنِّي أَقُولُ مِنْبَهًا لِنَفْسِي ، وَلِمَنْ كَانَ مِنْ أَبْنَاءِ جَنْسِي : مَنْ لَمْ يُطِغْ نَاصِحَهُ بِقَبُولِ مَا يَسْمَعُ مِنْهُ ، وَلَمْ يُسَلِّكْ صَدِيقَهُ كُلَّهُ ^(١) فِيمَا يُمَثِّلُهُ لَهُ ، وَلَمْ يَنْقُذْ لِبَيَّانِهِ ^(٢) فِيمَا يُرِيفُهُ ^(٣) إِلَيْهِ وَيُطْلِعُهُ عَلَيْهِ ؛ وَلَمْ يَرَأْ أَنَّ عَقْلَ الْعَالِمِ الرَّشِيدِ ، فَوْقَ عَقْلِ الْمُتَعَلِّمِ الْبَلِيدِ ؛ وَأَنْ رَأَى الْحَرْبَ الْبَصِيرَ ، مُقَدِّمٌ عَلَى رَأْيِ الْغَمْرِ ^(٤) الْغَرِيرِ فَقَدْ خَسِرَ حَظَّهُ فِي الْعَاجِلِ ، وَلَعَلَّهُ أَيْضًا يَخْسِرُ حَظَّهُ فِي الْآجِلِ ؛ فَإِنَّ مَصَالِحَ الدُّنْيَا مَعْقُودَةٌ بِمَرَاشِدِ الْآخِرَةِ ، وَكَلَيَاتِ الْحِسِّ فِي هَذَا الْعَالَمِ ، فِي مَقَابِلَةِ مَوْجُودَاتِ الْعَقْلِ فِي ذَلِكَ الْعَالَمِ ؛ وَظَاهِرٌ مَا يُرْسَى بِالْعِيَانِ مُفْضٍ إِلَى بَاطِنٍ مَا يَصْدُقُ عَنْهُ الْخَبَرُ ؛ وَبِالْجُمْلَةِ ، الدَّارَانِ مُتَفَتَتَانِ فِي الْخَيْرِ الْمُغْتَبَطِ بِهِ ، وَالشَّرِّ الْمُنْدُومِ عَلَيْهِ ؛ وَإِنَّمَا يَخْتَلِفَانِ بِالْعَمَلِ الْمُتَقَدِّمِ فِي إِحْدَاهُمَا ، وَالْجُزْءِ الْمُتَأَخِّرِ فِي الْآخَرَى ؛ وَأَنَا أَعُوذُ بِاللَّهِ الْمَلِكِ الْحَقِّ الْجَبَّارِ الْعَزِيزِ الْكَرِيمِ الْمَاجِدِ أَنْ أَجْهَلَ حَظِّي ، وَأَعْمَى عَنْ

(١) كله : مفعول لـ « يملك » ، يريد بهذه العبارة تمام الطاعة لصديقه حتى كأن صديقه

مالك له كله يتصرف فيه كيف يشاء .

(٢) في الأصل « ولم ينفذ لسانه » .

(٣) يريفه : يريده ويطلبه .

(٤) الغمر بالفتح والضم : من لم يجرب الأمور ؛ والجاهل الأبله .

رُسْدِي ، وَأَلْقَى بِيَدِي إِلَى التَّهْلُكَةِ ، وَاتَّجَانَفَ ^(١) إِلَى مَا يَسُوؤُنِي أَوَّلًا وَلَا يَسْرُرُنِي
آخِرًا ؛ هَذَا وَأَنَا فِي ذَيْلِ الْكَهُولَةِ وَبَادِنَةِ الشَّيْخُوخَةِ ، وَفِي حَالٍ مَنْ إِنْ لَمْ تَهْدِهِ
التَّجَارِبُ فِيمَا سَلَفَ مِنْ أَيَّامِهِ ، فِي حَالِي سَفَرِهِ وَمُقَامِهِ ؛ وَفَقْرِهِ وَغِنَائِهِ ، وَشِدَّتِهِ
وَرَخَائِهِ ، وَسَرَّائِهِ وَضَرَّائِهِ ، وَخِيفَتِهِ وَرَجَائِهِ ؛ فَقَدْ أُنْقَطَعَ الطَّمَعُ مِنْ فَلَاحِهِ
وَوَقَعَ الْيَأْسُ مِنْ تَدَارُكِهِ وَأُسْتَصْلَحَ ؛ فَإِلَى اللَّهِ أَفْزَعُ مِنْ كُلِّ رَيْثٍ وَكَيْلٍ
وَعَلَيْهِ أَتَوَكَّلُ فِي كُلِّ سَوْءٍ وَأَمَلٍ ، وَإِيَّاهُ أَسْتَعِينُ فِي كُلِّ قَوْلٍ وَعَمَلٍ .

(٢) قَدْ فَهِمْتُ أَيُّهَا الشَّيْخُ ^(٢) — حَفِظَ اللَّهُ رُوحَكَ ، وَوَكَّلَ السَّلَامَةَ بِكَ ، وَأَفْرَغَ
الْكَرَامَةَ عَلَيْكَ ، وَعَصَبَ كُلَّ خَيْرٍ بِحَالِكَ ، وَحَشَدَ كُلَّ نِعْمَةٍ فِي رِحَابِكَ
وَرَحِمَ هَذِهِ الْجَمَاعَةَ الْهَائِلَةَ — مِنْ أَبْنَاءِ الرَّجَاءِ وَالْأَمَلِ — بَعْنَاتِكَ ، وَلَا قَطْعَكَ
مِنْ عَادَةِ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ ، وَلَا ثَنَى طَرَفِكَ عَنْ الرِّقَّةِ لَهُمْ ، وَلَا زَهْدَكَ فِي أَصْطِنَاعِ
حَالِهِمْ وَعَاطِلِهِمْ ، وَلَا رَغَبَ بَكَ عَنْ قَبُولِ حَقِّهِمْ لِبَعْضِ بَاطِلِهِمْ ، وَلَا ثَقْلَ عَلَيْكَ
إِدْنَاءُ قَرِيبِهِمْ وَبَعِيدِهِمْ ، وَإِنَالَةَ مُسْتَحِقِّهِمْ وَغَيْرِ مُسْتَحِقِّهِمْ أَكْثَرَ مِمَّا فِي نَفْسِهِمْ
وَأَقْصَى مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ مَوَاسَاتِهِمْ ، مِنْ بَشَرٍ تَبْدِيهِ ، وَجَاهٍ تَبْذُلُهُ ، وَوَعْدٍ
تُقَدِّمُهُ ، وَضَمَانٍ تَوْكِّدُهُ ، وَهَشَاشَةٍ تَمْرُجُهَا بِيَشَاشَةٍ ، وَتَبْشِمُ تَخْلُطُهُ بِفُكَاةٍ
فَإِنَّ هَذِهِ كُلَّهَا زَكَاةُ الْمَرْوَةِ ، وَرِبَاطُ النِّعْمَةِ ، وَشَهَادَةُ بِالْمَحْتَدِ ^(٣) الزَّكِيِّ
وَالْعَرِيقِ الطَّيِّبِ وَالتَّمَنُّشِ الْحَمُودِ ، وَالْعَادَةِ الْمَرْضِيَّةِ ؛ وَهِيَ مُؤَدَّةٌ بِأَنَّ الْمُنْحَةَ
رَاهِنَةٌ ^(٤) ، وَالْمَوْهِبَةُ قَاطِنَةٌ ، وَالشُّكْرُ مَكْسُوبٌ ، وَالْأَجْرُ مَذْخُورٌ ، وَرِضْوَانُ اللَّهِ

(١) « وَاتَّجَانَفَ » ، وَهُوَ تَحْرِيفٌ . وَالتَّجَانُفُ إِلَى الشَّيْءِ : الْمِيلُ إِلَيْهِ .

(٢) يَرِيدُ بِالشَّيْخِ أَبَا الْوَفَا الْمُهَنْدِسَ ، وَهُوَ الَّذِي وَصَلَ أَبَا حَيَّانَ بِالْوَزِيرِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ
الْعَارِضِ كَمَا يَفْهَمُ مِمَّا يَأْتِي .

(٣) « بِالْمَحْدِ » .

(٤) رَاهِنَةٌ : دَائِمَةٌ .

واقع ؛ وأسأل الله بعد هذا كله ألا يُسْهِم^(١) وجهي عندك ، ولا يُزِلْ قَدَمِي
في خدمتك ، ولا يُزِغَنِي^(٢) إلى ما يقطع مَادَّةَ إِحْسَانِكَ وعائِدَةَ رَأْيِكَ ونَافِعَ^(٣)
نَيْتِكَ وجميلَ مَعْتَقَدِكَ ، بِمَنَّةٍ وَلَطْفِهِ .

فهمت جميع ما قلته لي بالأمس فهما بليغا ، ووعيته وَعَمِيَّا تَامًا ؛ وبأن لي
الرَّشْدُ في جملته وتفصيله ، والصَّلاحُ في طرفيه ووسطه ، والغنيمةُ في ظاهره
وباطنه ، والشفقةُ من أوله إلى آخره . وأنا أعيده ههنا بالقلم ، وأرسمه بالخطِّ
وأقَيِّده باللفظ ، حتَّى يكون أَعْتَرافِي به أَرْسَى وأَثْبَت ، وشهادتي على نفسي
أَقْوَى وأَوْكَد ، ونُكُولِي عنه أَبْعَدُ وَأَصْعَب ، وَحُكْمُكَ بِهِ لِي وَعَلَى
أَمْرِي وَأَنْفَذَ .

قلت لي — أدام الله تعالى توفيقك في كلِّ قولٍ وفعل ، وفي كلِّ رأيٍ^(٤)
ونظر — : إِنَّكَ تعلم يا أبا حَيَّانَ أَنَّكَ أَنْكَفَأْتَ من الرَّيِّ^(٥) إلى بغداد في آخر
سنة سبعين^(٥) بعد فوتِ مَأْمُولِكَ من ذِي الكفایتين^(٦) — نَصَرَ الله وجهه —
عابسا على أَبْنِ عَبَادٍ^(٧) مَغِيظًا منه ، مقروحَ الكبد ، لما نالكَ به من الحِرمانِ

(١) السهم : تغير الوجه وعبوسه من الهم ؛ وكنى به عن تغير الحال .

(٢) يزغى : يميل .

(٣) « ويافع » .

(٤) الرى : مدينة فارسية قديمة كانت تصبة بلاد الجبال ، وكان اسمها الفارسي راغة
ومنه أخذ اسمها العربى ، وهى الآن أطلال على مسافة خمسة كيلو مترات من طهران .

(٥) أى وثلاثمائة .

(٦) ذو الكفایتين : لقب لأبى الفتح على بن أبى الفضل محمد المعروف بابن العميد .
وينون بالكفایتين كفاية السيف وكفاية القلم ، وقد قام مقام أبيه ابن العميد ، واستوزر لركن
الدولة البويهى ، ثم لما تولى عضد الدولة نكبه وقتله سنة ٣٦٦ هـ .

(٧) ابن عباد ، هو الصاحب أبو القاسم لإساعيل بن أبى الحسن عباد ، ولد سنة ست
وعشرين وثلاثمائة ، وتوفى سنة خمس وثمانين وثلاثمائة بالرى ، وكان وزيراً لمؤيد الدولة أبى =

المرء ، والصد^(١) القبيح ، واللقاء الكريه ، والجفاء الفاحش ، والقذع^(٢) المؤلم والمعاملة السيئة ، والتغافل عن الثواب على الخدمة ، وجبس الأجرة على النسخ والوراقة ، والتجهم المتوالى عند كل لحظة ولقظة .

وذكرت في الجملة شقاء اتصل بك في سفرك ذلك ، وعناء نال منك في عرض^(٣) أحوالك ؛ ولعمري إن السقر فعول لهذا كله ولأكثر منه ؛ فأرعتك بعصري ، وأعرتك سمعي ، وساهمتك في جميع ما قرته في أدنى بالجرع والتوجع والاستقطاع^(٤) والتفجع ؛ وضمنت لك تلافى ذلك كله بحاق^(٥) الشفقة وخالص الضمير ، ووعدتك صلاح الحال عن ثبات النية ، وصحة العقيدة ، وقلت : أنا أرمي حقك القديم حين التقينا (بأرجان^(٦)) ، وأنا على باب (ابن شاهويه^(٧)) الفقيه ، وعهدك الحديث حين اجتمعنا بمدينة السلام سنة ثمان وخمسين ؛ وأوصلك إلى الأستاذ أبي عبد الله العارض^(٨) — أدام الله تأييده — وأخطب

== منصور بويه الديلمي ، ثم وزير لأخيه نحر الدولة أبي الحسن على ، وهو أول من لقب بالصاحب من الوزراء ، لأنه صاحب مؤيد الدولة بن بويه منذ الصبا .
(١) « والقصد » .

(٢) القذع بالمهمله : النع والزجر . وبالدال المعجمة : الشتم . والمعنى يستقيم على كلا الوجهين .

(٣) « في عرض أحوالك » أى فى أكثرها . وعرض الشيء أكثره ومعطه .

(٤) « والاستقطاع » .

(٥) حاق الشفقة : أى صادقها وكاملها .

(٦) أرجان : مدينة بين فارس وخوزستان ، وهى من كور الأهواز ، وتعرف الآن

باسم « بابهان »

(٧) ابن شاهويه هو أبو بكر محمد بن أحمد بن على بن شاهويه الفارسى الفقيه الشافعى تولى القضاء ببلاد فارس ، وتوفى سنة ثنتين وستين وثلاثمائة بنيسابور .

(٨) أبو عبد الله العارض ، هو — فى رأينا — أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن سعدان

كان وزيرا لصمصام الدولة بن عضد الدولة من سنة ٣٧٢ إلى سنة ٣٧٥ والعارض لقب له وهو كافى الأنساب للسمرقانى « من يعرف السكر ويحفظ أرزاقهم ويوصلها لإليهم ، ويعرض المسكر على الملك إذا احتيج إلى ذلك » والظاهر أنه لقب بهذا إما لأنه تولى هذا العمل قبل أن يتولى الوزارة ، أو كان هذا لقباً لأسرته (راجع الأدلة على هذا الرأى فى المقدمة) .

لك قبولاً منه ، وتخفيف الإذن عليك ، وامتلاء الطرف بك ، ونيل الخطوة بخدمتك وملازمتك ؛ وفعلت ذلك كله حتى استكتبك (كتاب الحيوان) لأبي عثمان الجاحظ ، لعنايتك به ، وتوفرك على تصحيحه ، ثم حضرت^(١) لك هذه الحال إلى يومنا هذا ؛ وهو الوزير العظيم الذى افتقرت الدولة إلى نظره وأمره ونهيه ، وإلى أن يكون هو المبرم والناقض ، والرافع والواضع ، والكافى والوفى ، والمقرب لخدمها ونصحائها ، والمزحزح لحسدتها وأعدائها ؛ والراعى لرعيتهما ودفعهما ، والناهض بأفعالها وأعبائها ، أعانه الله على ما تولاه ، وكفاه المهم فى دنياه وأخراه ، بمنه وقدرته .

نعم ورببت ذلك كله ، ولم أقطع عنك عادتي معك فى الأسترسال والأنبساط ، والبر والمواساة ، والمساعدة والمواتاة^(٢) ، والتعصب والحماية .

أفكان من حقى عليك فى هذه الأسباب التى ذكرتها ، وفى أخواتها التى تركتها كراهة الإطالة بها أنك تخلو بالوزير — أدام الله أيامه — لىالى متتابعة ومختلفة ، فتحدثه بما تحب وتريد ، وتلقى إليه ما تشاء وتختار ، وتكتب إليه الرقعة بعد الرقعة ؛ ولعلك فى عرض ذلك تعدو طورك بالتشدد^(٣) وتجاوز حدك بالأستحقار ، وتتناول إلى ما ليس لك ، وتغلط فى نفسك ، وتنسى زلة العالم ، وسقطة المتحررى ، وخجلة الائق ؛ هذا وأنت غير لاهية لك فى لقاء الكبراء ، ومحاوره الوزراء ؛ وهذه حال تحتاج فيها إلى عادة غير عادتك ، وإلى

(١) « حضرت لك هذه الحال » ، أى كفلتها لك وحفظتها عليك .

(٢) المواتاة : الموافقة .

(٣) التشدد ، هو التوسع فى الكلام من غير احتياط واحتراز ، وهو أيضا استهزاء

الرجل بالناس بلوى شدقه بهم وعليهم .

سِرانِ سَوَى مِرَانِكَ ، وَلِبْسَةٍ لَا تُشَبِّهُ لِبْسَتَكَ ؛ وَقَلٌّ مِّنْ قُرْبٍ مِّنْ وَزِيرٍ
خَدَمَ فَأَجَادَ ، وَتَكَلَّمَ فَأَفَادَ ، وَبُسْطٌ فَزَادَ ؛ إِلَّا سَكِرَ ، وَقَلٌّ مِّنْ سَكِرٍ إِلَّا عَثَرَ
وَقَلٌّ مِّنْ عَثَرَ فَأَنْتَعَشَ ، وَمَا زَهْدٌ فِي هَذِهِ الْحَالِ كَثِيرٌ مِّنَ الْحُكَمَاءِ الْأَوَّلِينَ
وَالْعُبَادِ الرَّبَّانِيِّينَ ؛ إِلَّا لِمَظْهَرِ وَصُوبَتِهَا ، وَمَكْرُوهِ عَاقِبَتِهَا ، وَشِدَّةِ الصَّبْرِ عَلَى
فَوَارِضِهَا وَرَوَائِبِهَا^(١) ، وَتَفْسُخِ^(٢) الْمَتْنِ بَيْنَ حَوَادِثِهَا وَنَوَائِبِهَا .

وَالْعَجَبُ أَنَّكَ مَعَ هَذِهِ الْخِلَّةِ^(٣) تَظُنُّ أَنَّهَا مَطْوِيَةٌ عَنِّي وَخَافِيَةٌ دُونِي ، وَأَنَّكَ
قَدْ بَلَغْتَ الْغَايَةَ وَادَعَى الْقَلْبَ ، وَمَلَكَتِ الْمَكَانَةَ ثَانِي الْعِنانِ ؛ وَقَدْ انْقَطَعَتْ
حَاجَتُكَ عَنِّي وَعَمَّنْ هُوَ دُونِي ، وَوَقَعَ الْغِنَى عَنِ جَاهِي وَكَلَامِي وَلَطْفِي وَتَوْصِيلِي ؛
وَجَهَلْتَ أَنَّ مَن قَدَّرَ عَلَى وُصُولِكَ ، يَقْدِرُ عَلَى فُصُولِكَ^(٤) ، وَأَنَّ مَن صَعِدَ بِكَ
حِينَ أَرَادَ ، يَنْزِلُ بِكَ إِذَا شَاءَ ، وَأَنَّ مَن يُحْسِنُ فَلَا يُشْكِرُ ، يَجْتَهِدُ فِي الْاِقْتِصَادِ
حَتَّى يُعْذَرَ .

وَبَعْدَ ، فَمَا أُطِيلُ ، وَلَعَلَّ لَهَبَ التَّوَجُّدِ يَزْدَادُ ، وَلِسَانَ الْغَيْظِ يَغْلُو ، وَطِبَاعَ
الْإِنْسَانِ تَحْتَدُّ ، وَالنَّدَمَ عَلَى مَا أَسْلَفْتُ مِنَ الْجَمِيلِ يَتَضَاعَفُ ؛ وَلَسْتَ أَنْتَ
أَوَّلَ مَن بُرِّقَ فَقَعٌ ، وَلَا أَنَا أَوَّلَ مَن جُفِيَ فَتَقَ^(٥) . وَهَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ
وَأَخْرُ كَلَامِي مَعَكَ ، وَفَاتِحُهُ يَأْسِي مِنْكَ ؛ قَدْ غَسَلْتُ يَدَيَّ مِنْ عَهْدِكَ بِالْأُشْثَانِ^(٦)

(١) « وروايتها » .

(٢) التفسخ : الضعف والعجز عن النهوض . والمتن : الظهر .

(٣) « الجملة » . والخلة بالكسر : الثلثة . يريد ما فيه من الميوب والنقائص .

(٤) فصولك ، أى خروجك من عند الوزير ، يقال : « فصل القوم من البلد فصولاً » ،
إذا خرجوا منها .

(٥) نق : من النقيص ، وهو فى الأصل صباح الضفدع ؛ والمراد هنا التحدث بما أسداه
من النم وما يلقاه من الكفران .

(٦) الأُشْثَان : فاسول كانت تفضل به الثياب والأيدى ؛ وهو نبات لا ورق له ، وله
أغصان دقاق فيها ما يشبه العقد ، وهى رخصة كثيرة المياه .

البارق، وسلوت عن قربك بقلب معرض وعزيم حتى ؛ إلا أن تطلعي طلّع^(١) جميع ما تحاورتما وتجادبما هذب الحديث عليه ، وتصرفتما في هزله وجده ، وخيره وشره ، وطيبه وخبيثه ، وباده ومكتومه ؛ حتى كأني كنت شاهدا معكما ورقيبا عليكما ، أو متوسطا بينكما ، ومتى لم تفعل هذا ، فأنتظر عقيب أستبحاشي منك ، وتوقع قلة غفولي عنك ، وكأني بك وقد أصبحت حراف حيران يا أبا حيان ، تأكل أصبعك أسفا ، وتردرد ريقك لهفا ، على ما فاتك من العوطة لنفسك ، والنظر في يومك لعدك ، والأخذ بالوثيقة في أمرك ، أنتظن بفرارتك^(٢) وغمارتك^(٣) ، وذهابك في فسولتك^(٤) التي اكتسبتها بمخالطة الصوفية والغرباء والمجتهدين الأدنياء الأردياء ؛ أنك تقدر على مثل هذه الحال ، وأنا أم منك على حسن الظن بك ، والثقة بصدرك ووردك ، وأطمئن إلى حكك وجردك وأتاعى عن حرّك وبردك ؛ هيات ؛ رقدت فعلمت ، فخيرأ رأيت وخيرا يكون على هذا الحد كان مقطع كلامك في موجدتك ، وإلى ههنا بلغ فيض عتبك ولائمتك ؛ وفي دون ذلك تنبيه للنائم ، وإيقاظ للساهى ، وتقويم لمن يقبل التقويم ؛ وقد قال الأول :

ألا إنما^(٥) يكنى الفتى عند زيفه من الأود^(٦) البادى ثقاف المقوم

قلقت لك : أنا سامع مطيع ، وخادم شكور ، لا أشتري سخطك بكل^(٧)

(١) يقال : « أطلعته طلع أمرى » بكسر الطاء ، أى أبنته سرى .

(٢) الفرارة : الغفلة

(٣) الفارة : الجهل والبلاهة .

(٤) الفسولة : الضف والحسة وقلة المروءة .

(٥) «أئما» بالياء . (٦) الأود : العوج . والثقاف : ما سوى به الراح .

صفراء^(١) وبيضاء في الدنيا ؛ ولا أنفر من التزام^(٢) الذنب والاعتراف بالتقصير ؛
ومثلي يهفو ويجمع ، ومثلك يعفو ويصفح ؛ وأنت مولى وأنا عبد ، وأنت آسر
وأنا مؤتمر ، وأنت ممتثل وأنا ممثل ، وأنت مصطنع وأنا صنيعة ، وأنت
منشئ وأنا مُنشأ ، وأنت أول وأنا آخر ، وأنت مأمول وأنا آمِل ، ومتى
لم تنفر لي الذنب البكر ، والجنابة العذراء ، والبادرة النادرة ؛ فقد أعنتني على
ما كان مني ، ودللت على ملك لي ؛ وأنت كنت مترصدا لهذه الهفوة
ومعتقدا في مقابلتها هذه الجفوة ؛ وكرمك يأبى عليك هذا ، ومثولي بين يديك
خادمة لك يحظره عليك .

هذا وأنا أفعل ما طالتني به من سرِّد جميع ذلك ، إلا أن الخوض فيه
على البديهة في هذه الساعة يشق ويصعب بعقب ما جرى من التفاوض ، فإن
أذنت جمعه كله في رسالة تشتمل على الدقيق والجليل ، والخلو والمُر ، والطري
والعاسي^(٣) ، والمحبوب والمكروه ؛ فكان من جوابك لي : افعل . ونعم ما قلت
وهو أحبُّ إلي وأقربُ إلى إرادتي ، وأخصرُ لما أريد^(٤) منه ، وأدخل
في الحجة عليك ولك ؛ وأغسلُ للوسخ الذي بيني وبينك ، وأزهرُ للستراج الذي
طغى عني وعنك ، وأجذبُ لعنان الحجة إن كانت لك ، وأنطقُ عن العذر إن
أتضح بقولك ؛ وإذا عزمت فتوكل على الله ؛ وليكن الحديثُ على تباعد
أطرافه ، واختلافِ فنونه مشروحا ، والإسناد عاليا متصلا ، والمتنُ تاما بينا ،

(١) يريد بالصفراء الذهب ، وبالبيضاء الفضة .

(٢) « أكرام » .

(٣) العاسي : اليباس .

(٤) أريد : أطلب وأريد .

واللفظ خفيفا لطيفا ، والتصريحُ غالبا ^(١) متصدرا ^(٢) ، والتعريض قليلا يسيرا ، وتَوَخَّ الحقَّ في تضاعيفه وأثنائه ، والصدق في إيضاحه وإثباته ؛ وأتقَ الحذف المخل بالمعنى ، والإلحاق المتصل بالهذر ، وأحذر تزيينه بما يشينه ، وتكثيره بما يقلله ، وتقليله عما لا يستغنى عنه ؛ وأعدَّ إلى الحسن فرد في حسنه ، وإلى القبيح فأقص من قبحه ؛ وأقصد إمتاعى بجمعة ^(٣) نظمه ونثره ، وإفادتى من أوله إلى آخره ؛ فلعلَّ هذه المثاقفة ^(٤) تبقى وتروى ، ويكون في ذلك حسنُ الذكري ؛ ولا تؤمِّئ إلى ما يكون الإفصاحُ عنه أحلى في السمع ، وأعذب في النفس ، وأعلق بالأدب ؛ ولا تُفصح عما تكون الكنايةُ عنه أستر للعيب ، وأنقى للريب ؛ فإن الكلام صلفُ تِيَاه لا يستجيب لكلِّ إنسان ، ولا يصحَّب كلِّ لسان ؛ وخطره كثير ، ومتعاطيه مغرور ، وله أرن ^(٥) كَارَن المهر وإبلاء كإباء الحرُون ، وزهو كزهو الملك ، وخفق كخفق البرق ؛ وهو يتسهل مرة ويتعسر مرارا ، ويذلُّ طورا ويعزُّ أطوارا ؛ ومادته من العقل [والعقل] سريعُ الحوُول ^(٦) خفيُّ الخداع ؛ وطريقه على الوهم ، والوهم شديد السَّيْلان . وجراه على اللسان ، واللسان كثير الطغيان ؛ وهو مرَّكَب من اللفظ اللغوى والصَّوغ ^(٧) الطَّبَاعى ، والتأليف الصَّنَاعى ، والاستعمال الاصطلاحى ، ومُستملاه .

(١) « غالبا » .

(٢) « متصورا » .

(٣) الجمعة : المجموعة .

(٤) يريد بالثقافة المطارحة في العلم والأدب ومذاكرتهما .

(٥) الأرن بالتحريك : النشاط .

(٦) الحوُول : التحول .

(٧) « والصراع » .

من الحجا ، ودَرْيُهُ^(١) بالتمييز ؛ ونَسْجُهُ بالرقّة ، والحجا في غاية النشاط^(٢) وبهذا
البون يقع التباين ويتسع التأويل ، ويجول الذهن ، وتمطّى^(٣) الدعوى ، ويُفزعُ
إلى البرهان ، ويبرأ من الشبهة ، ويُعثر بما أشبه الحجة وليس بحجة ؛ فأحذر
هذا النعت وروادفه ، واتفق هذا الحكم وقوائمه^(٤) ؛ ولا تعشق اللفظ دون المعنى
ولا تهو المعنى دون اللفظ ؛ وكن من أصحاب البلاغة والإنشاء في جانب ، فإن
صناعتهم يُفتقر فيها أشياء يؤاخذ بها غيرهم ، ولست منهم ، فلا تشبه بهم ، ولا
تجبر على مثالمهم ، ولا تنسج على منوالهم ، ولا تدخل في غمارهم ، ولا تكثّر
ببياضك سوادهم ، ولا تُقابل بفكاهتك براعتهم ، ولا تجذب بيدك رشاءهم ، ولا
تحاول بيعاك مطاولتهم^(٥) وأعرف قدرك تسلّم ، وألزم حدّك تأمن ؛ فليس
الكودن^(٦) من العتيق في شيء ، ولا الفقير من الغنى على شيء ؛ أما سمعت قول
الناس : ليس الشامئ للعراق^(٧) بصاحب ، ولا الكردي من الجندي بساخر ،
فإن طال^(٨) فلا تبسل ، وإن تشعب فلا تكترث ، فإن الإشباع في الرواية أشقى
للغليل ، والشرح^(٩) للحال أبلغ إلى الغاية ، وأظفر بالمراد ، وأجرى على العادة .
فكتبت : (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) ، أقول أيها الشيخ — عطف الله

(٥)

(١) دريه ، أى دريانه وعلمه .

(٢) الظاهر أن ها كلاما سقط من الناسج .

(٣) تمطى : تتناول .

(٤) قوائمه ، أى توابعه . يقال : فاف أثره إذا تبعه .

(٥) « مطاولتهم » .

(٦) الكودن : الفرس الهجين والبرذون . والعتيق من الأفراس : الكريم الرائع منها .

(٧) يشير بهذه الجملة إلى ما وقع بين الشام والعراق من العداوة أيام على ومعاوية وما

تبع ذلك .

(٨) طال ، أى الكلام .

(٩) « والشرح » .

قلبك على ، وألهمك الإحسان إلى — في جواب جميع ما قلته واجداً على عاتبا ، وقابضا ، وباسطا ، ومرشدا ، وناصحا ؛ ما يُعرَف الحق فيه ، ويستبين الصواب منه ، غير خائن لك ، ولا جانح إلى مخالفتك ، ولا مُرِغ^(١) للباطل معك ، ولا جاحد لأيديك القديمة والحديثة ، ولا منكِر لنعمتك الكافية الشافية ، ولا غاظ^(٢) على فواضلك المجتمعة والمتفرقة ، ولا تارك لشيء هو على من أجل شيء هو لى ، ولا معرض عن شيء هو لى بسبب شيء هو على ؛ بل أجهز دِقّه وجِلّه إليك حتى تراه بِسِده^(٣) وغُبّاره ، وأجلوه عليك حتى تلحظه بردانه وإزاره . كأننى لم أسمع قول الأول :

« والكفر^(٤) مَحْبِثَةٌ لنفس المنعم » « والشكر مَبْعُثَةٌ لنفس المفضل »

أنا أدعك واجداً على ، وأرقد وأنت ماقت لى ، وأجد حسَّ نعمة أنت وهبتها لى ، وألذَّ عيشاً أنت أدقتنى حلاوته . أنسى أيديك وهى طوق رقبتي ، وتُجَاهَ عيني ، وحشؤ نفسى ، وراحة حلمى ، وزادُ حياتى ، ومادّة روحي ؟ هيهات ، هذا بعيد من القياس ، وغيرُ معهود بين أحرار الناس ؛ الذين لهم أهتمام بصون أغراضهم ، وحرصٌ على إكرام أنفسهم ؛ قد عَبَقُوا^(٥) بفوايح الفتوة ، وعلّقوا بحبال المروءة ، وشدّوا^(٦) من الحكمة أشرف الأبواب ؛ واعتزّوا من الأدب

(١) الرِغ : المريد .

(٢) غطى على الشيء بتخفيف الظاء : كعطى عليه بتشديدها .

(٣) السد : الصحيح من الكلام وكى بالفبار عما يثور حول الكلام من اعتراض ونحوه ، ومنه قولهم : « كلام لا غار عليه » .

(٤) هذا الشطر مجز بيت لعنرة العيسى وصدره :

نبئت عمرا غير شاكر نعمتى

(٥) « عتقوا بفرائح » .

(٦) شدوا : أخذوا . يقال : شدا من العلم شيئا إذا أخذه كأنه ساقه أو جمعه ، وفى

الأصل « شدوا ، بالمعجمة .

إلى أعز حرم^(١) ؛ وحازوا شرفاً بعد شرف ، وانحازوا عن نطف بعد نطف^(٢) ونظروا إلى الدنيا بعين بصيرة ، وعزّفوا^(٣) أنفسهم عن زهراتها بتجربة صادقة .

فأول ما أبدؤك به أننى ظننتُ ظناً لا كيقين أن شيئاً مما كنتُ فيه مع الوزير — أدام الله أيامه ، وقصم أعداءه — ليس مما يهتك ، ولا هو مما يقرعُ شمعك سماعك له ؛ وحسبتُ أيضاً أننى إن بدأتُ بشئٍ منه ردّلتنى عليه وتنقصتنى به ، وزرّيتَ على فيه ؛ وأنتك ربّما قلت : لم بدأتُ بما لم أسئلك عنه ولم أرخص لك فيه ، هلاً كظمتَ على جرّتك^(٤) ، وطويتَ ما بين جنببك وما على مما يدور بين صاحب وخادمه والرؤساء ، والناظرين فى أمور الدهاء^(٥) والمتصفحين لأحوال العامة والخاصة ، ولهم أسرار وعيوبٌ لا يقف عليها أقرب الناس إليهم ، وأعزُّ الناس عليهم ، وأنت أيضاً فلم تسألنى عنه ، فكان فى تقديرى أنك قد عرفتَ وصولى فى وقت دون وقت ، وأنتك قد سحلتَ أمرى على الخدمة التى ليس للعلم بها فائدة ، ولا فى الإعراض عنها فائنة .

وإذ جرى الأمر على غير ما كان فى حسابى وتكبّس^(٦) بظنى ، فإنّى أهدى ذلك كلّهُ بقثائته وسَمَانَتِهِ ، وحلاوته ومرارته ، ورقته وخثارته فى هذا المكان ؛ ثمّ أنت أبصرُ بعد ذلك فى كتمانهِ وإفشائه ، وحفظهِ وإضاعته وستره^(٧) وإشاعته ؛ ووالله ما أرى هذا أمراً صعباً إذا وصل إلى مرادك

(١) « خدم » .

(٢) النطف بالتحريك : العيب والفساد .

(٣) « مرفوا » وعزف عن الشيء : أعرض عنه وزهد فيه .

(٤) « جريك » ، وجرة البعير معروفة ، شبه بها الحديث المختزن بفشيه صاحبه .

(٥) « التدهما » والدهاء : جماعة الناس .

(٦) « ولكبس » .

(٧) « ونفهره وأشكر عنه » .

ولا كُلفَ شاقَّةً إذا أُكسبني مَرْضَاتِكَ ؛ وإن كان ذلك يمرّ بأشياء كثيرةً ومختلفةً ، متمصّية غريبةً ، منها ما يشيطن ^(١) به الدم الحقون ، ويُنزع من أجله الرّوح العزيز ، ويُستصغر معه الصّلب ، ولا يُقنّع فيه بالعذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ؛ وإن كان فيها أيضاً غير ذلك ممّا يضحك السنّ ، ويُفكّه النفس ، ويدعو إلى الرشاد ، ويدلّ على النّصح ، ويؤكد الحرّمة ، ويعقد الدّم ، وينشر الحكمة ، ويشرفّ الهمة ، ويلقّح العقل ، ويزيد في الفهم والأدب ويفتح بابَ اليُمْن والبركة ، ويُنفق بضاعةَ أهل العلم في السوق الكاسدة ، ويوقظ العيون الناعسة ، ويُبَلِّ الشنّ ^(٢) المتغضّف ، ويندّي الطّين المترشّف ؛ ويكون سبباً قويا على حُسن الحال وطلب العيش ، فإن هذه العاجلة محبوبه ، والرّفاهية مطلوبة ، والمكانة عند الوزراء بكلّ حول وقوّة مخطوبة ، والدنيا حلوة خضرة وعذبة تفسّرة ، ومن شفّ ^(٣) أمّله شقّ عمله ؛ ومن اشتدّ إلحاحه ، توالى غدوّه ورّواحُه ، ومن أسره رجاؤه ، طال عناؤه ، وعظّم بلاؤه ؛ ومن ألهب طمعه وحرصه ، ظهر عجزه ونقصه .

وفي الجملة :

من لم يكن لله متهمًا لم يُنس محتاجًا إلى أحدٍ

ولا بدّ من فتى يعين على الدّهر ، ويُغنى عن كرام الناس فضلا عن لثامهم ، ^(٦) ويذلّل قعود الصبر ، ويحجّم راحلة الأمل ، ويُحلي مرّ اليأس ؛ والعزلة محمودّة

(١) يشيط : يذهب هدرا .

(٢) « السن بالسين المهملة » . والشن بالمعجمة : القرية الخلق . والمتغضّف ، أى التّكسر

المتغضن من اليبوسة .

(٣) شفّ أمّله : زاد ، ويجوز أن يفسر بمعنى أسقمه الأمل وأضناه لعلوه وبعد مثاله .

إِلَّا أَنَّهَا محتاجة إلى الكفاية ، والقناعة مَزَّةٌ ^(١) فَكِيهَةٌ ولكنها فقيرةٌ إلى البلغة وصيانة النفس حسنة إلاَّ أَنَّهَا كُلفَةُ مُحرجةٌ إن لم تكن لها أداةٌ تُجِدُّهَا ^(٢) وفَاشِيَةٌ ^(٣) تَمُدُّهَا ، وتركُ خدمةِ السلطان غيرُ الممكن ولا يستطيع إلاَّ بَدِينِ مَتِينٍ ، ورغبةٌ في الآخرة شديدة ، وفِطَامٍ عن دار الدنيا صعب ، ولسانٍ بالخلو والحامض يَلْفَغُ .

قال ابن السَّكَّ ^(٤) : لولا ثلاثٌ لم يقع حَيْفٌ ، ولم يُسَلَّ سَيْفٌ ، لقمةٌ أُسَوِّغُ من لقمة ، ووجهٌ أَصْبَحَ من وجه ، وسِلْكٌ ^(٥) « أَنْتَمُ مِنْ سِلْكٍ » ، وليس كلُّ أحدٍ له هذه القوَّةُ ، ولا فيه هذه المُنَّةُ ^(٦) والإنسان بَشَرٌ ، وبِنِيَّتِهِ متهافِئَةٌ وطينتُهُ منتَثِرَةٌ ، وله عادةٌ طالبةٌ ، وحاجةٌ هاتكةٌ ، ونفسٌ جَمُوحٌ ، وعَيْنٌ طَمُوحٌ ؛ وعقلٌ طَفِيفٌ ^(٧) ، ورأى ضعيفٌ ، يهفو لأوَّلَ رِيحٍ ، ويستخيلُ ^(٨) لأوَّلَ بَارِقٍ ؛ هذا إذا تَخَلَّصَ من قُرْبَاءِ السَّوْءِ ، وسلم من سِوَارِقِ ^(٩) الْعَقْلِ ، وكان له سلطانٌ على نفسه ، وقَهْرٌ ^(١٠) لشهواته ، وَقَعْعٌ لهوائِجِهِ ^(١١) وقبولٌ من ناصحه ، وتهَيُّؤٌ

(١) «مرة» والمرَّةُ : الحفرة اللذيذة الطعم .

(٢) تجدها ، أى تجدها .

(٣) الفاشية : ما انتشر من المال . وفي الأصل « عاشية » .

(٤) « ابن السائل » ، وهو تحريف وابن السكك هو أبو العباس محمد بن صباح الكوفي الراهد الواعظ المشهور لقي جماعة من الصدر الأول وأخذ عنهم وقدم من بغداد زمن هرون الرشيد وتوفى سنة ثلاث وثمانين ومائة بالكوفة .

(٥) السلك : الحيط . وكنى به عن الثوب لأنه من الخيوط .

(٦) « المنة » . والمنة بضم الميم : القوة .

(٧) الطفيف الناقص والقليل .

(٨) في الأصل : « ويستحيل » بالحاء ، وهو تصحيف . ويستخيل لأوَّلَ بَارِقٍ ؛ أى يخال المطر عند أول بَارِقٍ .

(٩) يريد بسوارق العقل : الشهوات التي تذهب به وتجعله في حكم غير الموجود كأنها تسرقه . والذي في الأصل : « سراق » ؛ وهو تصحيف .

(١٠) « وفهم » .

(١١) لهوائِجِهِ ، أى لما يهيج به من النزعات والمطامع .

في سعيه ، وتبوءاً في معانٍ^(١) حظّه ، وأتّاماً بسعادته ، وأستبصاراً في طلب ما عند ربّه ، وأستنصافاً من هواء المضلّ لعقله المرشّد ، هذا قليلٌ وصعبٌ ولو قلتُ : معدومٌ أو مُحالٌ في هذا الزمن العسير والدهر الفاسد ، لما خفتُ عائقاً يعوقني ، ولا حسوداً يردّ قولي . قال ابن السّمّاك : الله المستعان على السُّنِّ تصِفِ وقلوبٍ تَعترف ، وأعمالٍ تختلف . وقال معاوية لأبي بكر بن عبد الرحمن ابن الحارث — ورآه لا يَلِي له عملاً ، ولم يَقْبَل منه نائلاً — : يا ابن أخي ، هي الدنيا ، فإمّا أن تَرْضَعَ معنا ؛ وإمّا أن تَرِدِعَ عَنّا . وربما قال بعض المتكفّفين قد قال بعض السلف : ليس خَيْرُكُمْ مَنْ تَرَكَ الدنيا للآخرة ، ولا مَنْ تَرَكَ الآخرة للدنيا ولكنّ خَيْرُكُمْ مَنْ أَخَذَ مِنْ هَذِهِ وَهَذِهِ . (وهذا كلام مقبول الظاهر موقوف الباطن . وربما قال آخَرُ من المتقدمين : (أعمل لآخرتك كأنك تموت غداً ، وأعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً) . وهذا أيضاً كلامٌ منقّق ، لا يَرْجِع إلى معنَى مُحَقِّق ؛ أين هو من قول المسيح — عليه السلام — حين قال : الدنيا والآخرة كالشرق والمغرب متى بَعُدَ أحدهم من أحدهما قَرُبَ من الآخر ؛ ومتى قَرُبَ من أحدهما بَعُدَ من الآخر . وأين هو من قول الآخر : الدنيا والآخرة ضَرَّتَانِ ، متى أَرْضِيتَ إحداها أسَخَطْتَ الأُخْرَى ، ومتى أسَخَطْتَ إحداها أَرْضِيتَ الأُخْرَى .

وهذا لأنّ الإنسان صغيرُ الحجم ، ضعيفُ الحول ، لا يستطيع أن يجمع بين شهواته وأخذِ حظوظ بدنه وإدراكِ إرادته ، وبين السعى في طلب المنزلة عند ربّه بأداء فرائضه ، والقيامِ بوظائفه ، والثباتِ على حدود أمره ونهيهِ ، فإن صَفُقَ.

وجهه وقال : نعمل تارة لهذه الدار وتارة لتلك الدار ، فهذا المذنب الذى لا هو من هذه ولا من هذه ؛ ومن تخنث^(١) وتكثت لم يكن رجلاً ولا امرأة ، ولا يكون أباً ولا أما ؛ وهذا كما نرى .

ونرجع فنقول : ونعوذ بالله من الفقر خاصة إذا لم يكن لصاحبه عِمَادٌ من التقوى ، ولا عِمَادٌ من الصبر ، ولا دِعَامَةٌ^(٢) من الأنفة ، ولا أصطبارٌ على المرارة .

وقد بُلينا بهذا الدهر الخالى من الديّانين الذين يُصِلِحون^(٣) أنفسهم ويُصِلِحون غيرهم بفضل صلاحهم ، الخاوى من الكرام الذين كانوا يتسعون فى أحوالهم ، ويوسعون على غيرهم من سَهَتِهِمْ ، وكانوا يهتَمُّون بذخائر الشكر المعجَّل فى الدنيا ، يَحْرِصُونَ^(٤) على ودائع الأجر المؤجَّل فى الآخرة ؛ ويتلذَّذون بالثناء ، ويهتَرُونَ للدعاء ؛ وتملِكهم الأريحية عند مسألة المحتاج ، وتعترِبهم الهِزَّةُ معها والابتهاج ؛ وذلك لعشقهم الثناء الباقي ؛ والصنيعَ الواقى ؛ ويرون الغنيمة فى الغرامة ، والرجح فى البذل ، والحظ فى الإيثار ، والزيادة فى النقص ؛ أعنى بالزيادة . الخلف المنتظر من الله ؛ وبالنقص : العطاء ؛ ورأيتُ الناس يعيبون ابن العميد حين قال : أنا أعجب من جهل الشاعر الذى قال :

أنت للمال إذا أمسكته فإذا أنفقته فالملأ لك

قال : ولو كان هذا صحيحاً كان لا ينبغي أن يُكتسبَ المال ، لأنه ليس فى ترك

(١) فى الأصل : « تخنث » ؛ وهو تصحيف . ويريد بالتخنث والتلث : اللين والتشدد . تشبهاً بالخنثين والليوث .

(٢) « دِمَامَةٌ » . والدعامة : العماد .

(٣) « لا يصلحون » : وقوله « لا » زيادة من الناسخ .

(٤) « يحرصون » .

كسبه أكثر من إخراجِه بالإِفاق . هذا أقولهم ^(١) بحِكمته وعقلِه وتحصيلِه
وصوابُ الجاهل لا يُستحسن كما يُستقيح خطأ العاقل ؛ نعم ، وكانوا إذا وُلُوا
عَدَلُوا ، وإذا مَلَكُوا أَفْضَلُوا ^(٢) ، وإذا أَعْطَوْا أَجْزَلُوا ، وإذا سُئِلُوا أَجَابُوا
وإذا جَادُوا أَطَابُوا ، وإذا عَلَاوا ^(٣) صَبَرُوا ، وإذا نَالُوا ^(٤) شَكَرُوا ؛ وإذا أَنْفَقُوا
وَأَسَوْا ، وإذا امْتَحِنُوا تَأَسَّوْا ؛ وكانوا يرجعون إلى نقائب ميمونة ، وإلى
ضرائب ^(٥) مأمونة ؛ وإلى دِيانات قويّة ، وأماناتٍ ثَخِينَةٍ ^(٦) ؛ وكان لهم مع الله
أسرار طاهرة ، وعِلانيّة مقبولة ؛ ومع عباد الله معاملَةٌ جميلة ، ورحمةٌ واسعة
وَمَعْدِلَةٌ فاشية ؛ وكانت تجارتُهُمْ في العلم والحكمة ، وعادتهم جارية على الضيافة
والتَّكْرِيمَةِ ؛ وكانت شِيمَتُهُم الصفح والمغفرة وربُّهُمْ ^(٧) من هذه الأحوال
النَّجاة والكرامة في الأولى والعاقبة ؛ وكانوا إذا تَلَقَّوْا تَوَاصَوْا بِالْخَيْرِ ، وتناهَوْا
عن الشرِّ ؛ وتنافسوا في اتِّخَاذِ الصَّنَائِعِ ، وأدْخَرَ البصائع (أعنى صنائع الشكر،
وبضائع الأجر) فذهب هذا كُلُّهُ ، وتاه ^(٨) أهْلُهُ ؛ وأصبح الدِّينُ وقد أُخْلِقَ
لَبُؤُسُهُ ، وأَوْحِشَ مَأْنُسُهُ ، وأُقْتُلِعَ مَفْرُوسُهُ ؛ وصار المنكر معروفًا ، والمعروفُ
منكرًا ، وعاد كلُّ شَيْءٍ إلى كَدْرِهِ وخَاثِرِهِ ، وفاسدِهِ وضائرِهِ ؛ وَحَصَلَ الْأَمْرُ

(١) هذا لقولهم ، أي عيب الناس لابن العميد في كلامه السابق ، لما يصفونه به من
الحكمة والعقل الخ .

(٢) أفضلوا : أعموا .

(٣) في الأصل « اعتزلوا » . وعالوا : افتقروا ، من العيلة بفتح أوله .

(٤) « قالوا » .

(٥) الضرائب : الطبايع والسجايا ، الواحدة صريبة .

(٦) ثخينة : قوية كما يقال في عكس ذلك : هو رقيق الدين ، أي ضعیفه .

(٧) « وزكهم » .

(٨) تاه أهله : هلكوا . وفي الأصل « وباه » .

عَلَى أَنْ يَقَالَ : فَلَانٌ خَفِيفُ الرُّوحِ ، وَفَلَانٌ حَسَنُ الْوَجْهِ ، وَفَلَانٌ ظَرِيفُ الْجَمَلَةِ ،
حَلَوُ الشَّامِلِ ، ظَاهِرُ الْكَيْسِ ، قَوِيُّ الدَّسْتِ ^(١) فِي الشُّطْرَنْجِ ، حَسَنُ اللَّعْبِ فِي
النَّرْدِ ، جَيِّدٌ فِي الْأَسْتِخْرَاجِ ، مَدْبِرٌ ^(٢) لِلْأَمْوَالِ ، بَذُولٌ لِلْجَهْدِ ، مَعْرُوفٌ بِالْأَسْتِقْصَاءِ
لَا يُغْفِي عَنْ دَانِقٍ ، وَلَا يُتَغَافَلُ عَنْ قِيرَاطٍ ؛ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَأْنِفُ الْعَالِمُ مِنْ
تَكْثِيرِهِ ، وَالكَاتِبُ مِنْ تَسْطِيرِهِ .

وهذه كلها كنايات عن الظلم والتجديف ^(٣) ، والخساسة والجهل وقلة الدين
وحب الفساد ، وليس فيها شيء مما قدمنا وصفه عن القوم الذين أجهتوا أن
يكونوا خلفاء الله على عباد الله بالرأفة والرفقة والرحمة والأصطناع والعدل والمعروف .

(٧) وأرجع عن هذه الشكوى الطويلة اللاذعة والبليغة العامة الشاملة ؛ إلى
عينٍ مارست لي ذكره ، وكلفتني إعادته : عائذا بالله في صرف الأذى عني
وسوق الخير إلي ؛ ولانذا بكرمك الذي رشتني ^(٤) به إلى الساعة ، وكفيتني به
مؤونة الخدمة لغيرك من هذه الجماعة ؛ والأعمال بخواتيمها ، والصّدور بأعجازها ؛
وأنت أولى الناس بالصَّنْع والتجاوُز عني إذا عرفت براءتي في كل ما يتعلق
بي من ذمامك ؛ ويجب علي من الحق في مودتك ، والأعتصام بحبلك
والانتجاع ^(٥) من عُشْبِكَ ، والارتقاء ^(٦) من لَبَنِكَ .

(١) الدست : الحيلة ، وهو أيضا ما يكون فيه الغلب في الشطرنج ؛ تقول : « الدست لي
والدست على » .

(٢) « مثير » .

(٣) التجديف : الكفر بنعمة الله . وفي الأصل : والتخويف .

(٤) راشه يرشه : جعل له ريشا . شبه ما بذله له من المعروف بالريش للظائر .

(٥) الانتجاع : طلب المعروف .

(٦) في الأصل « الارتقاء » ، نالفا ؛ وهو تصحيف . والارتقاء : أخذ رغو اللبن

واحتساؤها .

الليلة الأولى

(١) وصلتُ أيَّها الشيخ — أطال الله حياتك — أوَّل ليلةٍ إلى مجلسِ الوزير —
أعزَّ الله نصره، وشدَّ بالعصمة والتوفيق أزره — فأمرَني بالجلوس، وبسَطَ لى
وجهه الذى ما أعتراه منذ خُلِقَ العُيُوس؛ ولَطَفَ كلامه الذى ما تَبَدَّل منذ كان
لا فى الهَزَل ولا فى الحَدِّ، ولا فى الغضب ولا فى الرضا.

ثم قال بلسانه الذليق^(١)، ولفظه الأنيق: قد سألتُ عنك مرَّاتٍ شيعنا
أبا الوفاء، فذكر أنك مراعى لأمرِ البيمارستان من جهته، وأنا أُرَبِّأُ بك عن
ذلك، ولعلَّي أعرَضُك لشيءٍ أنْبَهَ من هذا وأجدى، ولذلك فقد ناقت نفسى
إلى حضورك للمحادثة والتأنيس، ولأتعرف^(٢) منك أشياء كثيرةً مختلفةً تَرَدُّدُ
فى نفسى على مرِّ الزمان، لا أحصيها لك فى هذا الوقت، لكننى أثرها فى
المجلس بعد المجلس على قدر ما يسنح ويعرض، فأجبنى عن ذلك كله باسترسال
وسكونٍ بال؛ بملء فيك، وجَمَّ خاطرك، وحاضرٍ علمك؛ ودَعَّ عنك تَقَنُّنَ
البغداديِّين^(٣)....^(٤) مع عموم لفظك، وزائدٍ رأيك، وربَّج^(٥) ذِهْنِكَ؛
ولا تَجِبُنْ جُبْنَ الضُّعْفاء، ولا تتأطر^(٦) تأطر الأغبياء؛ وأجزم إذا قلت، وبالغ إذا
وصفت؛ وأصدق إذا أسندت، وأفضل إذا حكمت، إلَّا إذا عَرَضَ لك

(١) اللسان الذليق: الحاد البليغ.

(٢) «ولا نفرق».

(٣) يريد بتفنن البغداديين: استطرادهم فى الكلام وخروجهم به من فن إلى فن.

(٤) هائلة مطبوعة بالأصل لا تمكن قراءتها.

(٥) ربج ذهك، أى فضله.

(٦) التأطر: التحبس والتثنى، شبه به وقوف الفى وتردده فى جواب ما يسأل عنه.

ما يوجب توقُّفاً أو تهادياً^(١) ؛ وما أحسنَ ما قال الأول :

لَا تَقْدَحُ الظَّنَّةُ فِي حُكْمِهِ شَيْئُهُ عَدْلٌ وَإِنْصَافٌ
يَمْضِي إِذَا لَمْ تَلْقَهُ شَبْهَةٌ وَفِي أُعْتَرَضِ الشَّكِّ وَقَافٌ
وقد قال الأول :

أُبَالِي الْبَلَاءِ وَإِنِّي أُمِرُّ إِذَا مَا تَبَيَّنْتُ لَمْ أَرْتَبِ^(٢)

وكن على بصيرة أني سأستدلِّ ممَّا أسمعُه منك في جوابك عما أسألك عنه
على صدقك وخلافه ، وعلى تحريفك وقِرافه^(٣) .

(٢) فقلتُ قبلُ : كلُّ شيءٍ أريدُ أن أجابَ إليه يكونُ ناصري على ما يراد
مَنِّي فَإِنِّي إِنْ مُنِعْتُهُ نَكَلْتُ ، وَإِنْ نَكَلْتُ قَلَّ إِفْصَاحِي عَمَّا أُطَالِبُ بِهِ
وَحِخْتُ الْكَسَادَ ، وَقَدْ طَمَعْتُ بِالتَّفَاقِ^(٤) وَأُنْقَلِبْتُ بِالْخِيَةِ ، وَقَدْ عَقَدْتُ
خِنْصِرِي عَلَى الْمَسْأَلَةِ . فقال — حَرَسَ اللَّهُ رُوحَهُ — : قل — عَافَاكَ اللَّهُ —
ما بدالك ، فأنت مجاب إليه ما دمتَ ضامناً لبلوغ إرادتنا منك ، وإصابة
غرضنا بك .

قلت : يُؤْذَنُ لِي فِي كَافِ الْحَاطَبَةِ ، وَتَاءِ الْمَوَاجِبَةِ ، حَتَّى أَتَخَلَّصَ مِنْ مِرَاحِمَةِ
الْكُنَايَةِ وَمُضَاقِقَةِ التَّعْرِيبِ ، وَأَرْكَبَ جَدَدَ^(٥) الْقَوْلِ مِنْ غَيْرِ تَقْيَةٍ^(٦) وَلَا تَحَاشٍ

(١) التهادى : المشى الرفيق في تمايل .

(٢) في الأصل « ارتب » ؛ وهو تحريف .

(٣) قِرافه ، أى ارتكابه . يقال : قارف الذنب واقترفه ، إذا خالطه .

(٤) التفاق ضد الكساد .

(٥) الجدد بالتحريك : ما استوى من الأرض لا وعت فيه ولا جبل ولا أكمة ، شبه به

القول الذى لا عوج فيه ولا التواء .

(٦) « بقية » .

ولا مُحَاوَبَةٌ^(١) ولا أَنْحِياشٌ^(٢) .

قال : لك ذلك ، وأنت المأذون فيه ، وكذلك غيرك ، وما في كاف الخطابَةِ^(٣) وناءِ المواجهَةِ ؟ إن الله تعالى — على علوّ شأنه ، وبسْطَةِ مُلكه ، وقدرته على جميع خلقه — يواجه بالناء والكاف ، ولو كان في الكناية بالهاء رفعةً وِجْلالةً وقَدْرَ ورتبةٍ وتقديسٍ وتمجيدٍ لكان الله أحقَّ بذلك ومقدّمًا فيه ، وكذلك رسوله صلى الله عليه وسلم والأنبياء قبله — عليهم السلام — وأصحابه — رضى الله عنهم — والتابعون لهم بإحسان — رحمة الله عليهم — وهكذا الخلفاء ، فقد كان يقال للخليفة : يا أمير المؤمنين أعزّك الله ، ويا عمرُ أصلحك الله ؛ وما عاب هذا أحد ، وما أنف منه حسيب ولا نسيب ، ولا أباه كبيرٌ^(٤) ولا شريف ؛ وإني لأعجب من قوم يرغبون عن هذا وشبهه ، ويحسّسون^(٥) أن في ذلك ضعةً أو نقيسةً أو خطأً أو زريةً ، وأظن أن ذلك لعجزهم وفُسُولِهِمْ^(٦) ، وانخزالهم وقِلَّتْهُمْ وضُوءُوتُهُمْ ، وما يجدونه من الغضاضة في أنفسهم ، وأن هذا التكلف والتجبرَ يحوان عنهم ذلك النقص ، وذلك النقص يلتقي بهذا الصلَف ؛ هيهات ، لا تكون الرياسة حتى تصفو من شوائب الخِيلاء ، ومن مقابح الزُّهُو والكبرياء .

فقلتُ : أيّها الوزير ، قد خالطتُ العلماء ، وخدمتُ الكبراء وتصفّحتُ أحوال الناس في أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم ، فما سمعتُ هذا المعنى من أحد على

(١) لعله : مواربة .

(٢) الانحياش : الانقباض .

(٣) « كثير » .

(٤) « يخشون » .

(٥) الفسولة : الحسة والضعف .

(٦) انخزالهم ، أى انقطاعهم وتخلفهم عن طلب المعالي .

هذه السيّاقة الحسنة والحجّة الشافية والبلاغ المبين ؛ وقد قال بعض السلف الصالح :
« ما تعاظم أحد على من دونه إلا بقدر ما تصاغَرَ لِمَنْ فوقه » . والتصاغُر دواء
النفس ، وسجّيةُ أهل البصيرة في الدنيا والدين ؛ ولذلك قال ابن السّمّاك^(١) للرّشيد
— وقد عَجِب من رفته وحُسنِ إصاخته لموعظته وبلغِ قبوله لقوله وسرعةِ دمعته
على وجنته — : « يا أمير المؤمنين ، لتواضُعك في شرفك أشرفُ من شرفك ، وإني
أظنّ أنّ دمعَتك هذه قد أعطأت أوديةً من النار وجعلتها برداً وسلاماً » .

(٥)

قال^(٢) : هذا باب مُفترَق فيه ، وَرَجَعْنَا إلى الحديث [فإنه شهيّ ، سيّاً إذا
كان من خطرات^(٣) العقل] قد خُدِم بالصواب في نعمةِ ناعمة ، وحروف متقاومة ؛
ولفظ عَذْب ، ومأخَذٍ سهل ؛ ومعرفة بالوصل والقطع ، ووفاء بالشر والسّجع ؛
وتباعِد من التكلف الجافى ، وتقارب في التلطّف الخافى ، قاتل الله ذا الرّومة^(٤)
حيث يقول :

لها بَشَرٌ مِثْلُ الحرير وَمَنْطِقٌ رَخِيمٌ الحواشي لا هراء^(٥) ولا نَزْرُ
وكنْتُ أنشد أيام الصّبا هذا^(٦) بالذال ، وكان ذلك من سوء تلقين المعلم ؛ وبالعراق
رُدّ على وقيل : هو بالزاي ؛ وقد أجاد القطامي^(٧) أيضاً وتغرّل في قوله :

(١) انظر التعريف بابن السّاك رقم ٤ صفحة ١٤ .

(٢) قال ، أي الوزير .

(٣) عبارة الأصل « خاصة سيما إذا كان من طيران العقل » .

(٤) ذو الرمة ، هو غيلان بن عقبة بن نهيس أحد طول الشعراء الأمويين ، توفى سنة
سبع عشرة ومائة عن أربعين سنة .

(٥) رخيّم الحواشي : فاهمها . والهراء : للنطق الكثير ، والنزر : القليل .

(٦) هذا ، أي قوله في البيت السابق : « نزر » .

(٧) القطامي لقب غلب على عمير بن شبيب التّخلي من بني جهم بن بكر ، وهو شاعر إسلامي

مقل ، وكان نصرانياً .

فَهْنُ^(١) يَنْبِذْنَ مِنْ قَوْلٍ يُصِيبُنَ بِهِ مَوَاقِعَ الْمَاءِ مِنْ ذِي الْغَلَّةِ الصَّادِي
 قَلْتُ : وَلِهَذَا قَالَ خَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ حِينَ قِيلَ لَهُ : أَتَمَلَّ الْحَدِيثَ ؟ قَالَ :
 إِنَّمَا يُمَلَّ الْعَتِيقُ^(٢) ، وَالْحَدِيثُ مَعْشُوقُ الْحِسِّ بِمَعُونَةِ الْعَقْلِ ، وَلِهَذَا يُوَلِّعُ بِهِ
 الصَّبِيَّانَ وَالنِّسَاءَ ، فَقَالَ : وَأَيُّ مَعُونَةٍ لِهَؤُلَاءِ مِنَ الْعَقْلِ وَلَا عَقْلَ لَهُمْ ؟ قَلْتُ : هَهُنَا
 عَقْلٌ بِالْقُوَّةِ وَعَقْلٌ بِالْفِعْلِ ، وَلَهُمْ أَحَدُهُمَا وَهُوَ الْعَقْلُ بِالْقُوَّةِ ، وَهَهُنَا عَقْلٌ مُتَوَسِّطٌ
 بَيْنَ الْقُوَّةِ وَالْفِعْلِ مُزْمِعٌ^(٣) ، فَإِذَا بَرَزَ فَهُوَ بِالْفِعْلِ ، ثُمَّ إِذَا اسْتَمَرَّ^(٤) الْعَقْلُ بَلَغَ
 الْأَفْقَ ؛ وَلَفَرَطُ الْحَاجَةِ إِلَى الْحَدِيثِ مَا وَضَعَ^(٥) فِيهِ الْبَاطِلَ ، وَخُلِطَ بِالْمُحَالِ
 وَوُصِّلَ بِمَا يُعْجَبُ وَيُضْحِكُ وَلَا يُؤْوَلُ إِلَى تَحْصِيلٍ وَتَحْقِيقٍ ، مِثْلَ (هَزَارُ أَفْسَانٍ)^(٦)
 وَكُلِّ مَا دَخَلَ فِي جَنْسِهِ مِنْ ضُرُوبِ الْغُرَافَاتِ ؛ وَالْحِسُّ شَدِيدُ اللَّهَجِ^(٧) بِالْحَادِثِ
 وَالْمُحَدَّثِ وَالْحَدِيثِ ، لِأَنَّهُ قَرِيبُ الْعَهْدِ بِالْكَوْنِ ، وَلَهُ نَصِيبٌ مِنَ الطَّرَافَةِ . وَلِهَذَا
 قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ^(٨) : « حَادِثُوا هَذِهِ النُّفُوسَ فَإِنَّهَا سَرِيعَةُ الدُّثُورِ » ، كَأَنَّهُ أَرَادَ
 أَصْفَلُوهَا وَأَجْلَوْا الصَّدَأَ عَنْهَا ، وَأَعِيدُوهَا قَابِلَةً لَوَدَائِعِ الْخَيْرِ ، فَإِنَّهَا إِذَا دَرَّتْ
 — أَى صَدِرَتْ ، أَى تَغَطَّتْ ؛ وَمِنَ الدُّنَارِ الَّذِي فَوْقَ الشَّعَارِ — لَمْ يُنْتَفَعْ بِهَا ؛

(١) « فَهْل » .

(٢) العتيق : القديم .

(٣) استعار الإزمام هنا لمعنى التهيؤ والاستعداد للظهور .

(٤) استمر ، أى قوى واستحكم ، من المرة بكسر الميم وتشديد الراء ، وهى القوة .

(٥) ما وضع ، أى وضع ، « ما » هنا زائدة ، وهو تعبير شائع الاستعمال فى كلام المؤلف .

(٦) فى الأصل « حِصَان » ؛ وهو تحريف . وهزار أفسان كتاب فى الحرافات نقل
 ابن النديم معنى هذا الاسم ألف خرافة . ويستفاد مما ذكره من السبب فى تأليفه أنه أصل
 (لكتاب ألف ليلة وليلة) المعروف ، فقد ذكر أن بعض الملوك كان إذا تزوج امرأة وبات معها
 ليلة قتلها من الغد ، فتزوج بجارية من أولاد الملوك ممن لهن عقل ودراية يقال لها « شهرزاد »
 فلما حصلت معه ابتدأت تمدُّه وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحل الملك على استبقائها ،
 ويسألها فى الليلة الثانية عن تمام الحديث إلى أن آتى عليها ألف ليلة الخ .

(٧) « الكهج » .

(٨) يروى هذا الحديث عن الحسن .

والتعجب كله منوطٌ بالحادث ؛ وأما التعظيم والإجلال فهما لكل ما قدم : إما بالزمان ، وإما بالدهر ؛ ومثال ما يقدم بالزمان الذهب والياقوت وما شابههما من الجواهر التي بعد العهد بمبادئها ، وسيمتد العهد جدا إلى نهاياتها ؛ وأما ما قدم بالدهر ، فكالعقل والنفس والطبيعة ؛ فأما الفلك وأجرأه المزدهرة في المعانقة العجيبة ، ومناطقه الخفية ، فقد أخذت من الدهر صورةً إلهية ، وأحدثت فيما سلف منها صورةً زمائية .

(٦)

فقال : بقي أن يتصل به ^(١) نعمتُ العتيق والخلق ، فكان من الجواب أن العتيق يقال على وجهين : فأحدهما يشار به إلى الكرم والحسن والعظمة ، وهذا موجودٌ في قول العرب : « البيت العتيق » ؛ والآخر يشار به إلى قدم من الزمان مجهول . فأما قولهم : « عبد عتيق » ، فهو داخل في المعنى الأول ، لأنه أكرم بالعتيق ، وأرتفع عن العبودية ، فهو كريم . وكذلك « وجه عتيق » لأنه اعتقته الطبيعة من الدامة والقبح . وكذلك « فرس عتيق » .

وأما قولهم : « هذا شيء خلق » ، فهو مضمّن معنيين : أحدهما يشار به إلى أن مادته بالية ^(٢) ؛ والآخر أن نهاية زمانه قريبة . وكان ابن عباد قال لكتابه مرة — أعنى ابن حسولة ^(٣) — في شيء جرى ... : « نعم ، العالم عتيق ولكن ليس بقديم » أي لو كان قديما لكان لا أول له ، ولما كان عتيقا كان له أول ، ومن أجل هذا الاعتقاد وصفوا الله تعالى بأنه قديم ، وأستحسنوا هذا الإطلاق . وقد سألت العلماء البصراء عن هذا الإطلاق ، فقالوا : ما وجدنا

(١) به ، أي بالحديث الذي سبق الكلام فيه .

(٢) « سائلة » ؛ وفيه تحريف وقلب .

(٣) في الأصل « ابن حصول » ، وقد جاء اسمه في معجم الأديباء : أبا القاسم بن حسولة ، ومرة يسميه : أبا القاسم الحسولي ، وذكر في بعض المواضع أنه كان يعرض الأوراق على الصاحب ابن عباد ، فالظاهر أنه هو المراد .

هذا في كتاب الله — عز وجل — ولا كلام نبيّه — صلى الله عليه وسلم — ولا في حديث الصحابة والتابعين . وسألت أبا^(١) سعيد السيرافي الإمام : هل تعرف العرب أن معنى القديم ما لا أول له ؟ فقال : هذا ما صح عندنا عنهم ولا سبق إلى وهننا هذا منهم ، إلا أنهم يقولون : « هذا شيء قديم » وبنيان قديم « ويسرحون^(٢) وهمهم في زمانٍ مجهولٍ المبدأ .

(٧) فقال : قد مرّ في كلامك شيء يجب البحث عنه ، ما الفرق بين الحادث والمُحدث والحديث ؛ فكان من الجواب أن الحادث ما يلحظ نفسه [والمُحدث ما يلحظ^(٣)] مع تعلّق بالذي كان عنه محدثاً . والحديث كالتوسط بينهما مع تعلّق بالزمان ومن كان منه .

وههنا شيء آخر ، وهو الحدّثان والحديثان ؛ فأما الأول فكأنه لما هو^(٤) مضارعٌ للحادث ، وأما الحدّثان فكأنه اسم للزمان فقط ، لأنه يقال : « كان كذا وكذا في حدّثان ما ولي الأمير » ، أي في أول زمانه ، وعلى هذا يدور أمر^(٥) الحدث والأحداث والحادثات والحوادث . « وفلان حدّث مُلوّك » كله من ديوان واحد وواد^(٦) واحد وسبّك واحد . قال : « ما الفرق بين حدّث وحدّث » ؟ قلت : لا فرق بينهما إلا من جهة أن حدّث تابع لقدم ، لأنه يقال : أخذّه ما قدّم^(٧) وما حدّث ؛ فإذا قيل للإنسان : حدّث يا هذا . فكأنه قيل له :

(١) في الأصل « أنا » ؛ وهو تحريف . وأبو سعيد السيرافي هو الحسن بن عبد الله ابن المرزبان السيرافي الحوي المعروف ؛ سكن بغداد وتولى القضاء بها ، وكان من أعلم الناس بنحو البصريين ، وتوفى سنة ثمان وستين وثلاثمائة .

(٢) « ويسرحون » ؛ بالعين .

(٣) هذه العبارة ساقطة من الأصل والسياق يقتضيها .

(٤) لما هو ، أي موضوع لما هو .

(٥) وردت هذه الكلمة في الأصل بعد قوله : « الحدث » ؛ كما أن راءها كتبت في الأصل

« نونا » . واستقامة الكلام تقتضي ما أثبتنا .

(٦) في الأصل « وهو » ولا معنى له .

(٧) « أخذّه ما قدّم وما حدّث » ، أي أخذته المهموم والأفكار القديمة والحديثة .

صِلَ شيئاً بالزمان يكون به في الحال ، لا تقدّم له من قبل .

ثم رجعتُ فقلت . ولقوائد الحديث ماصنّف (أبو زيد)^(١) رسالة لطيفة الحجم في المنظّر ، شريفة الفوائد في المخبر ، تجمع أصناف ما يقتبس من العلم والحكمة والتجربة في الأخبار والأحاديث ، وقد أحصاها وأستقصاها وأفاد بها ، وهي حاضرة . فقال احملها وأكتبها ، ولا تملّ إلى البخل بها على عادة أصحابنا الفئات . قلت : السمع والطاعة .

ثم رويتُ أنّ عبد الملك بن مروان قال لبعض جلسائه : قد قضيتُ الوطر من كل شيء ، إلّا من محادثة الإخوان في الليالي الزّهر ، على التّلال^(٢) العُمر^(٣) . وأحسن من هذا ما قال عمر بن عبد العزيز قال : والله إنّي لأشتري [المحادثة]^(٤) من عبّيد الله^(٥) بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود بألف دينار من بيت مال المسلمين . فقيل : يا أمير المؤمنين ، أتقول هذا مع تحريك وشدة تحفظك وتزهرهك ؟ فقال : أين يذهب بكم ؟ والله إنّي لأعود برأيه ونصحه وهدايته على بيت مال المسلمين بألوفٍ وألوفٍ دنائير ، إنّ في المحادثة تلقيحاً للعقول ، وترويحاً للقلب ، وتسريحاً للهمم ، وتنقيحاً للأدب .

(١) الراجع أنه يريد أبا زيد أحمد بن سهل البلخي كان من المتكلمين الفلاسفة الأدباء وكان يقال له « جاحظ خراسان » ألف كتباً كثيرة منها كتاب فضيلة علم الأخبار وكتاب النوادر في فنون شتى ولعل أحد هذين الكتّابين هو الذي يشير إليه أبو حيان ، وكان أبو حيان يحب به وقد قال فيه : « انه لم يتقدم له شبيه في الأعصر الأول ولا يظن أنه يوجد له نظير في مستأف الدهر » ، مات سنة ٣٢٢ عن سبع أو ثمان وثمانين سنة .

(٢) في الأصل « السّلال » ؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى . وفي رواية « على الكتّان » ؛ وهو بضم الكاف بمعنى التّلال كما أثبتنا .

(٣) في الأصل « العُمر » بالالف ؛ وهو تصحيف .

(٤) هذه الكلمة أو مايفيد معناها ساقطة من الأصل .

(٥) هو أحد الفقهاء السبعة كان إماماً عالماً وكان أعمى قال البخاريّ إنه مات سنة ٩٤ وهذا لا يتفق وخلافة عمر بن عبد العزيز وقال ابن المديني سنة ٩٩ وهذا متفق مع هذه القصة .

قال : صدق هذا الإمام في هذا الوصف ، إن فيه ^(١) هذا كله .

قلتُ : وسمعتُ أبا سعيد ^(٢) السيرافي يقول : سمعتُ ابنَ السَّراج ^(٣) يقول : دخلنا على ابنِ الرومي ^(٤) في مرضه الذي قضى فيه ، فأنشدنا قوله ^(٥) :

ولقد سئمتُ مآربي فكانَ أطيَّها خبيثُ
إلاَّ ^(٦) الحديثَ فإنه مثلُ اسمه أبدا حديثُ

وقال سليمان بن عبد الملك : « قد ركبنا الفاره ^(٧) ، وتبطَّننا الحَسَناء ، ولبسنا اللَّين ، وأكلنا الطَّيب حتى أجمناه ^(٨) ، وما أنا اليوم [إلى شيء] ^(٩) أحوجُ متى إلى جليس يضع عنى مؤونة التحفظ ويحدِّثني بما لا يمجَّه السمع ، ويطرَب إليه القلب » . وهذا أيضا حقٌّ وصوابٌ ، لأنَّ النفسَ تَلُّ ، كما أنَّ البدنَ يَكَلُّ ؛ وكما أنَّ البدنَ إذا كلَّ طلبَ الراحة ، كذلك النفسُ إذا ماتت طلبتِ الرُّوحَ ^(١٠) وكما لا بد للبدن أن يستمدَّ ^(١١) ويستفيد بالحمام ^(١٢) الذاهب بالحركة الجالبة

(١) فيه ، أى في الحديث .

(٢) انظر التعريف بأبي سعيد السيرافي في الحاشية رقم ١ صفحة ٢٥ .

(٣) هو أبو بكر محمد بن السري بن سهل النحوي المعروف بابن السراج ، أخذ الأدب عن أبي العباس المبرد ، وأخذ عنه جماعة : منهم أبو سعيد السيرافي ؛ وله التصانيف المشهورة في النحو وتوفى سنة ست عشرة وثلاثمائة .

(٤) هو أبو الحسن علي بن العباس بن جريج المعروف بابن الرومي الشاعر المعروف . ولد سنة إحدى وعشرين ومائتين ببغداد ، وتوفى سنة ثلاث وثماني ومائتين . وقيل غير ذلك .

(٥) ورد من هذا اللفظ في الأصل القاف والواو وحدهما .

(٦) « بلا » .

(٧) في الأصل « الفاره » ماقاف ؛ وهو تصحيف . والعاره من الدواب : النقيط الحاد القوى .

(٨) أجمناه ، أى كرهناه ومللناه من الداومة عليه .

(٩) لم ترد هذه التكملة التي بين مربعين في الأصل ؛ وقد أثبتناها عن (عبود الأخبار) .

(١٠) الروح بفتح الراء : الراحة .

(١١) « يستند » .

(١٢) الحمام بفتح الجيم : الراحة .

لِلنَّصَبِ وَالضَّجَرِ ، كَذَلِكَ لَا بَدَّ لِلنَّفْسِ مِنْ أَنْ تَطْلُبَ الرُّوحَ عِنْدَ تَكَاثُفِ الْمَلَلِ الدَّاعِي إِلَى الْحَرَجِ ^(١) فَإِنَّ الْبَدْنَ كَثِيفُ النَّفْسِ ، وَلِهَذَا يُرَى بِالْعَيْنِ ، كَمَا أَنَّ النَّفْسَ لَطِيفَةُ الْبَدَنِ ، وَلِهَذَا لَا تَوْجِدُ إِلَّا بِالْعَقْلِ ؛ وَالنَّفْسُ صَفَاءُ الْبَدَنِ ، وَالْبَدَنُ كَدَرُ النَّفْسِ . فَقَالَ : أَحْسَنْتَ فِي هَذِهِ الرِّوَايَاتِ عَلَى هَذِهِ التَّوْشِيحَاتِ وَأَعْجَبَنِي ^(٢) تَرْحُمُكَ عَلَى شَيْخِكَ أَبِي سَعِيدٍ ، فَمَا كُلُّ أَحَدٍ يَسْمَعُ ^(٣) بِهَذَا فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ ، وَمَا كُلُّ أَحَدٍ يَأْبَهُ لِهَذَا الْفِعْلِ ؛ هَاتِ مُلْحَةَ الْوَدَاعِ حَتَّى نَفْتَرِقَ عَنْهَا ، ثُمَّ نَأْخُذْ لَيْلَةً أُخْرَى فِي شُجُونِ الْحَدِيثِ .

(٨) قُلْتُ : حَدَّثَنَا ابْنُ سَيْفٍ الْكَاتِبُ الرَّاوِيَةُ ، قَالَ : رَأَيْتُ جَحْظَةَ ^(٤) قَدْ دَعَا بَنَاءً لِيَنِي لَهُ حَائِطًا ، فَخَصَرَ ^(٥) ، فَلَمَّا أَمْسَى أُقْتَضِيَ الْبِنَاءُ الْأَجْرَةُ ، فَمَا كَسَا ^(٦) وَذَلِكَ أَنَّ الرَّجُلَ طَلَبَ عَشْرِينَ دِرْهَمًا ؛ فَقَالَ جَحْظَةُ : إِنَّمَا عَمَلْتُ يَا هَذَا نِصْفَ يَوْمٍ وَتَطْلُبُ عَشْرِينَ دِرْهَمًا ؟ قَالَ : أَنْتَ لَا تَدْرِي ، إِنِّي قَدْ بَنَيْتُ لَكَ حَائِطًا يَبْقَى مِائَةَ سَنَةٍ ؛ فَبَيْنَمَا هُمَا كَذَلِكَ وَجَبَ الْحَائِطُ وَسَقَطَ ؛ فَقَالَ جَحْظَةُ : هَذَا عَمَلُكَ الْحَسَنَ ؟ قَالَ : فَأَرَدْتُ أَنْ يَبْقَى أَلْفَ سَنَةٍ ؟ قَالَ : لَا ، وَلَكِنْ كَانَ يَبْقَى إِلَى أَنْ تَسْتَوْفِيَ أَجْرَتَكَ . فَضَحَكَ — أَضْحَكَ اللَّهُ سَنَّهُ — .

(١) « الجرح » .

(٢) يلاحظ أنه لم يرد في هذه النسخة عند ذكر أبي سعيد السيرافي قوله — رحمه الله — فلمله قد سقط من الناسخ هناك .

(٣) « كسمع » .

(٤) هو أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك الشاعر المعروف ، كان من ظرفاء عصره وكان صاحب فنون و نوادر ، ولد سنة أربع وعشرين ومائتين من الهجرة ، وتوفي سنة ست وعشرين وثلاثمائة . وقيل سنة أربع وعشرين وثلاثمائة بواسطة ، ودفن ببغداد .

(٥) في الأصل « وحضر بنا » وبنا لا معنى لها .

(٦) تماكسا ، أى تشاحا في الأجرة ؛ يقال : ماكسه في البيع ونحوه : إذا شاحه فيه

واستحطه الثمن واستنقصه إياه .

الليلة الثانية

- (١) ثم حضرت ليلة أخرى ، فقال : أول ما أسألك عنه حديثُ أبي سليمان^(١) المنطقيّ كيف كان كلامه فينا ، وكيف كان رضاه عنّا ورجاؤه^(٢) بنا ، فقد بلغني أنّك جازّه ومعاشره ، ولصيقه وملازمه وقافى خطوه وأثره ، وحافظ غاية خبره . فقلتُ : والله أيّها الوزير ، ما أعرف اليوم ببغداد — وهى الرقعة الفسيحة الجامعة ، والعرصة^(٣) العريضة الغاصة — إنساناً أشكرَكَ ، وأحسنَ ثناءً عليك ، وأذهبَ فى طريق العبوديّة معك ، منه ؛ ولقد سَكَرَ^(٤) الآذان وملأَ البقاع بالدعاء الصالح ، رَفَعَهُ اللهُ إليهِ ، والثناء الطيّب أشاعه اللهُ ؛ وقد عمل رسالةً فى وصفك ذكر فيها ما آتاك اللهُ وفضّلَكَ به من شرفٍ أعراقِكَ ، وكرمٍ أخلاقِكَ وعلوّ همتِكَ ، وصدقٍ حدّسِكَ وصوابٍ رأيِكَ ، وبركةٍ نظركَ ، وظهورٍ غنائكَ ، وخصبٍ فنائكَ ، ومحبةٍ أوليائكَ ، ومكّد أعدائكَ ، وصباحةٍ وجهكَ ، وفصاحةٍ لسانك^(٥) ، ونُبُلٍ حَسَبِكَ^(٦) ، وطهارةٍ غَيِّبِكَ^(٧) ، ويُمْنٍ نقيبتِكَ ، ومحمود

(١) أبو سليمان هو محمد بن طاهر بن بهرام المنطقي السحستانی أكبر علماء بغداد فى عصر أبي حيان فى المنطق والحكمة والفلسفة كان مجلسه حافلاً بالعلماء والحكماء واسع الاطلاع فى الفلسفة اليونانية وكان به عور وبرص يمتاعه من عشيّان مجالس الأمراء والوزراء وهو أكبر شيوخ أبي حيان فى الفلسفة مات على أعل الطن فى السوات العشر الأخيرة من القرن الرابع الهجرى .

(٢) ورجاؤه بنا ، أى رجاءه المقنود بنا . وفى الأصل : « وأرجاؤه » والألف زيادة من الناسخ .

(٣) العرصة : الساحة الواسعة .

(٤) سكر الآذان : ملاها . وفى الأصل : « شكر » بالشين ؛ وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : « رخم لسانك » وقوله : « رخم » من زيادات الساخ إذ لا معنى

لها ولا تستقيم مع السياق .

(٦) « وتقلحك » .

(٧) « عيبك » .

شيمتك ، ودقيق ما أودع الله فيك ، وجليل ما نشر الله عنك ، وغريب ما يُرى منك ، وبديع ما يُنتظر لك من المراتب العلية ، والخيرات الواسعة والدولة الوادعة ، وهى تصل إلى مجلسكم فى غد أو بعده — إن شاء الله — وكان هذا منه [قياما] ^(١) بالواجب ، فإنك نَشِئتَ روحه وكان خَفَتَ ، وبَصَرَتَه وكان عَشِي ؛ وأُنبتَ جناحه وكان قد حُصَّ ^(٢) ، بالرسم الذى وصل إليه لأنه كان قَنِطَ منه وهو قَنَوطٌ ، وسمعتُه يقول سرارا : من يذكرنى وقد مضى المَلِكُ ^(٣) — رضوان الله عليه — ومن يَخْلُفه فى مصلحتى ، ويجرى على عادته معى ؟ ومن يَسأل عَنى ، ويهتَمُّ بحالى ؟ هيهات ، فُقدَ والله بالأمس من ^(٤) يطول تلفُّتُنا إليه ويدوم تلهُّفُنا عليه * إن الزمان يَمِثِلُه لَبْخِيلُ * كان والله شمس المعالى وغرة الزمن وحامل الأثقال ، وملتقى ^(٥) القُقَال ، ومحقق الأقوال والأفعال ، ويجرى لُجْم ^(٦) الأحوال على غاية السكال ؛ كان والله فوق التمتنى ، وأعلى من أن يلحق به نظير ، أو يوجد له مماثل ؛ لذته امتح ^(٧) فى تهذيب الأمور ، وهواه وقف على صلاح من فى إصلاحه صلاح ونفى من فى نفيه تطهير ؛ ولولا أن عمر الفتى الأَرِيحِيَّ قصير ، لَكُنَّا لا نَبْتَلِي بفقدِه ، ولا نتحرَّق على قُوْت ما كان لنا بحياته ؛ الدنيا ظُلوم ، والإنسان فيها مظلوم .

(١) هذه الكلمة أو ما يفيد معناها ساقطة من الأصل ؛ والسياق يقتضى إثباتها .

(٢) يقال : « حص الریش والشعر » ، إذا انترا . وكى بمص الجلاح عن الفقر ، وبناته من الفى .

(٣) الظاهر أنه يريد بالملك « عضد الدولة » البويهى .

(٤) عبارة الأصل « مر بطول تلقينا » ومعى محرومة فى جميع ألفاظها .

(٥) فى الأصل : « ومكنى الأفعال » ؛ وهو تحريف . والقفال : المسافرون ، سموا بذلك تفاؤلا بقفولهم إلى أوطانهم ، أى رجوعهم إليها .

(٦) استعمل اللجم فى معنى الخيل مجازا . وفى الأصل : « لُحاء » ؛ وهو تحريف .

(٧) اللج ، النظر الخفيف . والمراد بهذا اللفظ وصفه بالفتنة والألمية حتى إنه لينظر إلى الأمور نظرا خفيفا فيكفيه ذلك عن التأمل والإيمان .

فلما وصل إليه ذلك الرسم — وهو مائة دينار — وحاجته ماسة إلى رغيْف ، وَحَوَّلَهُ وَقُوَّتَهُ قَدْ عَجَزَا ^(١) عن أجرة مسكنه ، وعن وجه غَدَائِهِ وَعَسَائِهِ عاش .

ومما زاد في حديث الرسم أنه وصل إليه مع العذر الجميل ، وَالْوَعْدِ العريض الطويل ؛ وَلَوْ رَأَيْتَهُ وَهُوَ يَتَرَقَّلُ وَيَتَحَنَّنُ ^(٢) لَعَجِبْتَ . فقال : سررتني لسروره بما كان مني ، وَإِنْ عَشْتُ كَعَمْتُ الزمان عن ضيِّهِ ، وَفَلَّتْ ^(٣) عَنْهُ حَدَّ نَابِهِ ، وَلَوْلَا الْعُمَامَةُ ^(٤) مَانَعَهُ ^(٥) عَنْ نَفْسِهِ ، وَمُتَمَنِّعٌ مَعَهَا بِنَفْسِهِ ؛ لَفَتَى هَذَا الْمَجْلِسَ فَيْكُمْ ^(٦) فَاسْتَأْنَسَ وَأَنْسَ ، وَلَكِنَّهُ عَلَى حَالٍ لَامِحْتَمَلٍ لَهُ عَلَيْهَا ، وَلَا صَبْرَ عَلَيْهِ مَعَهَا ؛ أَتَحْفَظُ مَا قَالَ الْبَدِيهِيُّ فِيهِ ؟ قلت : نعم ، قال : أَنْشِدْنِيهِ ، فَرُويتُ :

أَبُو سُلَيْمَانَ عَالِمٌ فَطِنٌ مَا هُوَ فِي عِلْمِهِ بِمَنْتَقَصٍ
لَكِنْ تَطَيَّرْتُ عِنْدَ رُؤْيَيْهِ مِنْ عَوْرِ مُوحِشٍ وَمِنْ بَرَصٍ
وَبِأَبْنِهِ مِثْلُ مَا بَوَالِدِهِ وَهَذِهِ قِصَّةٌ مِنَ الْقَصَصِ

فقال : قاتله الله ، فلقد أَوْجَعَ وَبَالَغَ ، وَلَمْ يَحْفَظْ ذِمَامَ الْعِلْمِ ، وَلَمْ يَقْضِ حَقَّ ^(٢) الْفَتْوَةِ . حَدَّثَنِي عَنْ دَرَجَتِهِ فِي الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ ، وَعَمَّا فَنَى مَحَلَّهُ فِيهِمَا مِنْ مَحَلِّ أَصْحَابِنَا

(١) ورد في الأصل بعد قوله « عجزا » تاء وكاف وميم ؛ ولم تثنِ الصواب في هذه الحروف الثلاثة ؛ ولعلها زيادة من الناسخ .

(٢) يترقَّل ، أى يمر ذيله ويتجشَّع . ويتحنَّن ، أى يدير العمامة من تحت حكمة . كسى بالترقل والتحنن عن السرور والابتهاج بما وصل لايه من صلة الوزير .

(٣) « قلت » .

(٤) الضمائم : العاهة في الجسد . وفي الأصل : « الجملة » ؛ وهو تحريف .

(٥) مانعة عن نفسه ، أى أن هذه العاهة مانعة لنا عن مجالسته . ومتمتع معها بنفسه أى أنه هو ممتع بنفسه مع هذه العاهة عن مجالستها .

(٦) « بكم » .

أَبْنُ زُرْعَةَ^(١) وَأَبْنُ الْخَمَارِ^(٢) وَأَبْنُ السَّمْحِ^(٣) وَالْقَوْمِيُّ^(٤) وَمُسْكُوِيه^(٥) وَنَظِيف^(٦) وَيَحْيَى بْنُ عَدَى^(٧) وَعِيسَى بْنُ عَلِيٍّ^(٨). فَقُلْتُ : وَصَفَ هَؤُلَاءِ أَمْرَ مُتَعَدِّرٍ ، وَبَابٌ مِنَ الْكُلْفَةِ شَاقٌّ ؛ وَلَيْسَ مِثْلِي مِنْ جَسَرٍ عَلَيْهِ ، وَبَلَغَ الصُّوَابُ مِنْهُ ؛ وَإِنَّمَا يَصْفُهُمْ مِنْ نَالِ دَرَجَةٍ كُلٌّ وَاحِدٌ مِنْهُمْ ، وَأَشْرَفَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ؛ فَعَرَفَ حَاصِلَهُمْ وَغَائِبَهُمْ ، وَمَوْجُودَهُمْ وَمَفْقُودَهُمْ . فَقَالَ : هَذَا تَحَايُلٌ لَا أَرْضَاهُ لَكَ ، وَلَا أَسْلَمُهُ فِي يَدِكَ ، وَلَا أُحْتَمِلُهُ مِنْكَ ؛ وَلَمْ أَطْلُبْ إِلَيْكَ أَنْ تَعْرِفَهُمْ^(٩) بَمَا هُوَ مَعْلُومٌ لِلَّهِ مِنْهُمْ ، وَمَوْهَبُهُ^(١٠) لَهُمْ ، وَمَسْوُوقُهُ إِلَيْهِمْ ، وَخَلُوعُهُ عَلَيْهِمْ ، عَلَى الْحَدِّ الَّذِي لَا مَزِيدَ فِيهِ وَلَا نَقْصَ ؛ إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ تَذَكَّرَ مِنْ كُلِّ

(١) ابن زُرْعَة ، هو أَبُو عَلِيٍّ عِيسَى بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ زُرْعَةَ عَالِمٌ بَصْرَانِيٌّ مِنْ عُلَمَاءِ بَغْدَادَ بَرَزَ فِي اللَّطَقِ وَالْفَلَسَفَةِ ، وَنَقَلَ عِدَّةَ مَصْنُفَاتٍ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ ، وَتَوَفَّى كَمَا رَوَى الْفَقْهُيُّ سَنَةَ ٣٩٨ .
(٢) ابْنُ الْحَارِ ، هُوَ أَبُو الْخَيْرِ الْحَسَنُ بْنُ سَوَارٍ ، كَانَ كَذَلِكَ نَصْرَانِيًّا طَبِيبًا فِيلَسُوفًا نَقَلَ كُتُبًا كَثِيرَةً مِنَ السَّرْيَانِيَّةِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ .

(٣) ابْنُ السَّمْحِ ، هُوَ أَبُو عَلِيٍّ بْنُ السَّمْحِ مِنْ مَاطِظَةِ بَغْدَادَ ؛ مَاتَ سَنَةَ ٤١٨ .

(٤) الْقَوْمِيُّ ، هُوَ أَبُو بَكْرٍ الْقَوْمِيُّ الْمُتَفَلِّسُف . قَالَ أَبُو حَيَّانَ : لِأَنَّهُ كَتَبَ لِنَصْرِ الدَّوْلَةِ عَامِينَ .

(٥) مُسْكُوِيه ، هُوَ أَبُو عَلِيٍّ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ مُسْكُوِيه الْحَارِسُ ، كَانَ عَارِفًا بِالْفَلَسَفَةِ ، أَلْفَ كِتَابَ تَهْدِيدِ الْأَخْلَاقِ وَتَحَارِبِ الْأُمَمِ ، وَكَانَ قِيَمًا عَلَى خَزَانَةِ كُتُبِ ابْنِ الْعَمِيدِ ثُمَّ قِيَمًا عَلَى خَزَانَةِ كُتُبِ عَمُودِ الدَّوْلَةِ ثُمَّ اخْتَصَّ بِبَهَاءِ الدَّوْلَةِ الدُّوَيْهِ وَعَظَّمَ عِنْدَهُ شَأْنَهُ وَمَاتَ سَنَةَ ٤٢١ .

(٦) نَظِيفٌ ، هُوَ الْقَسَّاسُ نَظِيفُ النَّفْسِ الرَّومِيُّ ، كَانَ عَالِمًا جَيِّدَ النَّقْلِ مِنَ الْيُونَانِيِّ إِلَى الْعَرَبِيِّ وَكَانَ مِنْ أَفْضَلِ الْأَطْبَاءِ ، وَعِيسَى عَمُودُ الدَّوْلَةِ فِي الْبِيَارِسْتَانِ الَّذِي أَنْشَأَهُ بِيغْدَادَ .

(٧) يَحْيَى بْنُ عَدَى أَبُو زَكْرِيَّا ، كَانَ نَصْرَانِيًّا مُنْطَلِقِيًّا ، أَخَذَ الْفَلَسَفَةَ عَنْ أَبِي نَصْرِ الْفَارَابِيِّ وَبَشَرَ بْنِ مَتَّى ؛ وَلَهُ مَوْلاَتُ كَثِيرَةٌ ، مَاتَ سَنَةَ ٣٦٤ .

(٨) عِيسَى بْنُ عَلِيٍّ ، هُوَ أَبُو الْقَاسِمِ عِيسَى بْنُ الْوَزِيرِ الْكَبِيرِ عَلَى بْنِ عِيسَى الْجَرَّاحِ ، كَانَ هَبِيسِيًّا عَالِمًا فَاضِلًا ، قَرَأَ الْمُنْطَقَ عَلَى يَحْيَى بْنِ عَدَى ، كَمَا دَرَسَ الْفَقْهَ وَالْأَدَبَ عَلَى عُلَمَاءِ عَصْرِهِ ، وَعَمِلَ فِي دِيْوَانِ الرِّسَائِلِ ؛ وَمَاتَ بِيغْدَادَ سَنَةَ ٣٩١ . وَقَدْ نَقَلَ عَنْهُ أَبُو حَيَّانَ كَثِيرًا مِنْ أَقْوَالِهِ فِي الْحِكْمَةِ فِي الْمَقَابِسَاتِ .

(٩) « نَعْنَفُهُمْ » .

(١٠) مَوْهَبُهُ لَهُمْ ؛ أَيْ مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لَهُمْ ؛ يُقَالُ : أَوْهَبْتُ لَهُ الشَّيْءَ ، إِذَا أَعَدَدْتَهُ لَهُ .

وَاحِدٌ مَا لَاحَ مِنْهُ لِعَيْنِيكَ ، وَتَجَلَّى لِبَصِيرَتِكَ ، وَصَارَ لَهُ بِهِ صُورَةٌ فِي نَفْسِكَ ؛ فَأَكْثَرَ وَصَفَ الْوَاصِفِينَ لِلْأَشْيَاءِ عَلَى هَذَا يَجْرَى ، وَإِلَى هَذَا الْقَدَرِ يَنْتَهَى .

فَقُلْتُ : إِذَا قَنَعَ مِنِّي بِهَذَا ، فَإِنِّي أَخَذُمُ بَمَا ^(١) عِنْدِي ، وَأَبْلُغُ فِيهِ أَقْصَى جَهْدِي .
أَمَّا شَيْخُنَا أَبُو سُلَيْمَانَ فَإِنَّهُ أَدَقَّهُمْ نَظْرًا ، وَأَقْعَرَهُمْ غَوْصًا ، وَأَصْفَاهُمْ فِكْرًا ، وَأَظْفَرَهُمْ بِالذَّرْرِ ، وَأَوْقَفَهُمْ عَلَى الْغُرْرِ ؛ مَعَ تَقَطُّعٍ فِي الْعِبَارَةِ ، وَلُكْنَةٍ نَاشِئَةٍ مِنْ ^(٢) الْعُجْمَةِ وَقَلَّةِ نَظَرٍ فِي الْكُتُبِ ، وَفَرَطِ اسْتِبْدَادٍ بِالْخَاطِرِ ، وَحُسْنِ اسْتِنْبَاطٍ لِلْعَوِيصِ ، وَجَرَأَةٍ عَلَى تَفْسِيرِ الرَّمْزِ ، وَبِخَلٍّ بِمَا عِنْدَهُ مِنْ هَذَا الْكَثَرِ .

وَأَمَّا ابْنُ زُرْعَةَ فَهُوَ حَسَنُ التَّرْجُمَةِ ، صَحِيحُ النِّقْلِ ، كَثِيرُ الرُّجُوعِ إِلَى الْكُتُبِ ، مَحْمُودُ النِّقْلِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ ، جَيِّدُ الْوَفَاءِ بِكُلِّ مَا جَلَّ مِنَ الْفَلَسَفَةِ ؛ لَيْسَ لَهُ فِي دَقِيقِهَا مَنَفَذٌ ^(٣) ، وَلَا لَهُ مِنْ لَعْنِهَا مَأْخِذٌ ، وَلَوْلَا تَوَزُّعٌ ^(٤) فَكَّرَهُ فِي التِّجَارَةِ ، وَمَحَبَّتُهُ ^(٥) فِي الرِّبْحِ ، وَحِرْصُهُ عَلَى الْجَمْعِ ؛ وَشِدَّتُهُ عَلَى الْمَنْعِ ؛ لَكَانَتْ قَرِيبَتْهُ تَسْتَجِيبُ لَهُ ، وَغَامَتُهُ ^(٦) تَدْرُّ عَلَيْهِ ؛ وَلَكِنَّهُ مَبْدَدٌ مَبْدَدٌ ، وَحُبٌّ الدُّنْيَا يُعِمِّي وَيُصِمُّ .

وَأَمَّا أَنْ الْخَمَارَ فَفَصِيحٌ ، سَبَّطُ الْكَلَامِ ، مَدِيدُ النَّفْسِ ، طَوِيلُ الْعِنَانِ مَرَضِيُّ النِّقْلِ ، كَثِيرُ التَّدْقِيقِ ، لَكِنَّهُ يَخْلُطُ الذُّرَّةَ بِالْبَعْرَةِ ^(٧) وَيُفْسِدُ السَّمِينَ بِالْفَتِّ ، وَيَرْقَعُ الْجَدِيدَ بِالرَّثِّ ؛ وَيَشِينُ ^(٨) جَمِيعَ ذَلِكَ بِالزَّهْوِ وَالصَّلَفِ ، وَيَزِيدُ

(١) فِي الْأَصْلِ « جَا » ؛ وَهُوَ تَحْرِيفٌ .

(٢) « مَعَ » .

(٣) « مَنِيْدَا » .

(٤) « تَوَزَّعَ » .

(٥) « وَنَحْبَتُهُ » .

(٦) فِي الْأَصْلِ « وَعَايِنَهُ تَدُو » ؛ وَهُوَ تَحْرِيفٌ فِي كِلْتَا الْكَلِمَتَيْنِ . وَالْغَائِمَةُ السَّحَابَةُ .

(٧) « الْبَقْرَةُ » .

(٨) « وَيَشِينُ » .

في الرقم^(١) والسَّوم ، فما يجديه^(٢) من الفضل يرتجعه بالنقص ؛ وما يعطيه باللطف يسترده بالعنف ؛ وما يصفيه بالصواب ، يكذِّره بالإعجاب . ومع هذا يُصرَّع^(٣) في كل شهر مرَّة أو مرَّتَيْن .

وأما ابن السَّمع ، فلا ينزل بفنائهم ، ولا يسقى من إنائهم ؛ لأنه دونهم في الحفظ والنقل والنظر والجَدَل ، وهو بالمتَّبِع^(٤) أشبه ، وإلى طريقة الدعيِّ أقرب ، والذي يحطُّه عن مراتبهم شيثان : أحدهما بلادةٌ فهمه ، والآخَرُ حرصُه على كسبه ؛ فهو مستفرَّغٌ مُحْ^(٥) البال مأسور العقل ، يأخذ الدائق^(٦) والقيراط والحَبَّة والطَّسُوج والفَلَس بالصرف والوزن والتطفيف ؛ والقلب متى لم يُنقَّ من دنس الدنيا لم يَعْبِق بفوائِح الحكمة ، ولم يتفَوَّحْ^(٧) برَدْع الفلسفة ، ولم يَقْبَل شعاع الأخلاق الطاهرة المُفضية إلى سعادة الآخرة .

وأما القومسيّ أبو بكر ، فهو رجل حسنُ البلاغة ، حلَّوُ الكناية ، كثيرُ الفِقَرِ العجيبة ، جَماعَةٌ للكتب الغريبة ؛ محمود العناية في التصحيح والإصلاح والقراءة ، كثير التردّد^(٨) في الدراسة ؛ إلّا أنّه غيرُ نصيح في الحكمة ؛ لأنَّ

(١) يزيد في الرقم ، أي يزيد في حديثه ويكذب . ويريد بالزيادة في السوم : الغلاة ، وأصل السوم في المبايعَة عرض السلعة للبيع .

(٢) في الأصل « يديه » وسياق العبارة يقتضي ما أثبتنا بدليل مقابلته بقوله بعد « يرتجعه » الخ .

(٣) « يصرح » بالخاء .

(٤) « بالمسبع » .

(٥) مع البال ، أي خالصة .

(٦) الدائق : سدس الدرهم . والقيراط : نصف داقق . والحبة : وزن شعيرتين .

والطسوج : ربع الدائق .

(٧) في الأصل « ولم يتفرَّخ بربع » ؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا كما يرجعه قوله قل : « لم يعبق بفوائِح » . وردع الطيب : أثره في الثوب والبدن .

(٨) « التردّد » .

قريحته ترابيّة ، وفكرته سحائيّة ؛ فهو كالمقلّد بين المحققين ، والتابع للمتقدمين ؛ مع حبّ للدنيا شديد ، وحسد لأهل الفضل عتيد .

وأما مسكويه ، فقير بين أغنياء ، وعي^(١) بين أبناء^(٢) ، لآفته شاذّ ، وأنا أعطيته في هذه الأيّام (صفو الشرح لإيساغوجي) وقاطيفورياس ، من تصنيف صديقنا بالرّئي . قال : ومن هو ؟ قلت : أبو القاسم الكاتب غلام أبي الحسن العامريّ ، وتحمّجه معي ؛ وهو^(٣) الآن لاند بابن الحمار ، وربما شاهد أبا سليمان وليس له فراغ ، ولكنه محسّ^(٤) في هذا الوقت للحسرة التي لحقته فيما فاتته من قبل .

فقال : يا عجبا لرجل صحب ابن العميد أبا الفضل ورأى من كان عنده وهذا حفله ! قلت : قد كان هذا ، ولكنه كان مشغولا بطلب الكيمياء مع أبي الطيب السكيميائيّ الرازيّ ، مملوك^(٥) الهمة في طلبه والحرص على إصابته مفتونا^(٦) بكتب أنى زكرياء ، وجابر بن حيّان ؛ ومع هذا كان إليه خدمة صاحبه في خزانة كتبه ؛ هذا مع تقطيع الوقت في حاجاته^(٧) الضرورية والشهوية ؛ والعمر قصير ، والساعات طائرة ، والحركات دائمة^(٨) والفرص بروق تأتلق^(٩) ، والأوطار في غرضها تجتمع وتفترق ، والنفوس على فواتها تذوب

(١) وردت هذه الكلمة في الأصل مهملّة الحرفين الأخيرين من القط .

(٢) « أبناء » .

(٣) في الأصل « وهو الآن لا يكيلين الحمار » . وما أثبتناه عن معجم الأدباء في ترجمة ابن مسكويه .

(٤) « محب في هذا الوقت للحيرة » وهو تحريف في كلتا الكلمتين .

(٥) « المملوك » .

(٦) « مفتونا » .

(٧) « في الحاحات به » . وفي هذه الكلمة حروف زائدة من الناسخ ؛ والسياق يقتضي ما أثبتنا .

(٨) « دائمة » .

(٩) « تكتلق » .

وتحترق ؛ ولقد قَطَنَ العامريُّ^(١) الرَّيَّ خمسَ سنينَ مُجمَعةً^(٢) ودرس وأملى وصنَّف ورَوَى فما أخذ مسكويه عنه كلمة واحدة ، ولا وعى مسألة ، حتى كأنَّه بينه وبينه سَدٌّ ؛ ولقد تجرَّع على هذا التواني الصابَ والعلم ، ومضغ بغمه حنظل الندامة في نفسه ، وسمع بأذنه قوارِعَ الملامة من أصدقائه حين لم ينفع ذلك كلُّه . وبعدُ فهو ذكيٌّ حَسَنُ الشَّعرِ نقيُّ اللفظ ، وإن بقي ففساه يتوسط هذا الحديث ، وما أرى ذلك مع كلفه بالكيمياء ، وإتفاق زمانه وكَدِّ بدنه^(٣) وقلبه في خدمة السلطان ، وأحتراقه في البخل بالدانق والقيراط والكسرة والخرقه ؛ نعوذ بالله من مدح الجود باللسان ، وإيثار الشَّحِّ بالفعل ، وتمجيد الكرم بالقول ومفارقة العمل ؛ وهذا هو الشقاء المصوب على هامة من بُليَّ به ، والبلاء المعصوب^(٤) بناصية من غلب عليه .

وأما عيسى بن عليٍّ ، فله الذَّرْعُ الواسع والصَّدْرُ الرحيب في العبارة ، حِجَّة في النقل والترجمة ، والتصرُّف في فنون اللغات ، وضُرُوبِ المعاني والعبارات ؛ وقد تصفَّح ما لم يتصفَّح كثير من هذه الجماعة ، وقلَّبَ بجرائن الكبراء والسادات ، وأُعين^(٥) بالعمر الطويل والفراغ المديد ؛ ولكنَّه مع هذا الفضل الكثير بخيل

(١) العامري ، هو أبو الحسن محمد بن يوسف العامري ، فيلسوف معاصر لابن سينا وكانت بينهما مباحثات في الفلسفة ، ومن جملة كتب ابن سينا كتاب الأجوبة لسؤالات سأله عنها أبو الحسن العامري ، ويقول أبو حيان في المقابسات إنه كان من أعلام عصره وكان متبحراً في الفلسفة اليونانية منكباً على كتب أرسطو وله على بعضها شروح ؛ وقد اتصل بابن العميد وقرأ معاً عدة كتب ، وتوفى نحو سنة ٣٨٠ .

(٢) جمعة ، أي مجموعة .

(٣) « وكذبته » .

(٤) « المنصوب » بالنون .

(٥) « وأعين » .

بكلمة واحدة ، وَنَصِيحٌ ^(١) عَلَى وَرَقَةٍ فارغة ، لسودائه الغالبةِ عليه ، ومزاجِهِ المتشَيِّط ^(٢) بِهَا .

وَأَمَّا نظيف ، فَإِنَّهُ متوسط ، لا يسفل ^(٣) عَنْ أَقْلِهِمْ حِطًّا وَلَا يعلو على أَكْثَرِهِمْ نصيبًا ؛ وَيَدُهُ فِي الطَّبِ أطول ، وَلِسَانُهُ فِي المَجَالِسِ أَجْوَلْ ؛ وَمَعَهُ رَفَقٌ وَحَذَقٌ فِي الجَدَلِ .

وَأَمَّا يحيى بن عَدَى ، فَإِنَّهُ كَانَ شَيْخًا لَيْنَ العَرِيكَةِ فَرُوقَةً ^(٤) ، مَشُوءَةً ^(٥) الترجمة ، ردىُّ العبارة ، لَكِنَّهُ كَانَ متَأْتِيًا ^(٦) فِي تَخْرِيجِ المَخْتَلَفَةِ ^(٧) وَقَدْ برع فِي مجلِّسه أَكْثَرُ هَذِهِ المَجَامِعِ ، وَلَمْ يَكُنْ يَلُودُ ^(٨) بِالْإِلَهِيَّاتِ ، كَانَ يَنْبَهَرُ ^(٩) فِيهَا وَيَضِلُّ فِي بَسَاطَتِهَا ، وَيَسْتَعْجِمُ عَلَيْهِ مَا جَلَّ ، فَضلاً عَمَّا دَقَّ مِنْهَا ؛ وَكَانَ مَبَارَكُ المَجْلِسِ .
فَقَالَ : مَا قَصَرْتُ فِي وَصْفِ هَذِهِ الطَّائِفَةِ ، وَتَقْرِيبِ البَغِيَةِ الَّتِي كَانَتْ دَاخِلَةً ^(١٠) فِي نَفْسِي مِنْهُمْ .

حَدَّثَنِي عَنْ مَذَاهِبِهِمْ فِي النَفْسِ وَمَا يَقُولُونَ فِيهَا ؛ وَإِلَى أَيْنَ يَنْتَهَوْنَ مِنْ ^(٣)

(١) يصيح على ورقة فارغة ، أى أنه بلغ من شدة بخله بخله أنه لا يستطيع أحد أن يخدعه حتى في ورقة فارغة يأخذها منه . وهم يصفون البخل بالنصح على ماله ، لأنه لا يخذع عنه فيجود به . أولعله شحيح .

(٢) التشيط : اللهب . وبها ، أى بسبب السوداء .

(٣) « لا يسفل » .

(٤) الفروقة : الشديد الفزع .

(٥) في الأصل : « موسى » وفيه قلب وتحريف .

(٦) متأتياً ، أى مترقفاً متلطفاً .

(٧) في تخريج المختلفة ، أى المسائل المختلفة .

(٨) « يكون » .

(٩) الانبهار : تابع النفس واطرادها من التعب والإعياء .

(١٠) وردت هذه الكلمة في الأصل مؤخره عن هذا الموضع ؛ والسباق يقتضى إثباتها هنا .

يقينهم بشأنها ، وكيف ثقتهم ببقائها بعد فناء أبدانها ؟ فقلت : علمت أنى لا أجد^(١) ما أريد من حديث النفس عند أصحابنا الباقين ، أعنى أبا الوفاء على بن يحيى السامري والمعمري والمقومي والصوفي وغلām زحل^(٢) والصاغاني ، وكذلك غيرهم أعنى ابن عبدان وابن يعقوب وابن لالا وابن بُكش^(٣) وابن قوسين^(٤) والحرائتي ، لأن هؤلاء ليسوا يحرثون هذه الأرض ، ولا يرقمون هذا البرّ ولا يجهزون هذا المتاع ولا يتعاملون به ؛ هذا ينظر في المرض والصحة والداء والدواء ، وهذا يعتبر الشمس والقمر ، وليس فيهم من يذكر كلمة في النفس والعقل والإله ، حتى كأنه محظور عليهم ، أو قبيح عندهم .

وقلت : إن هؤلاء القوم — أعنى الطائفة الأولى — متفقون في الاعتراف بأنها جوهر باقٍ خالد ؛ فأما اليقين فما الحكم به لهم ، لأنهم لو كانوا على ذلك — أعنى واجدين لليقين ذائقين لحلاوته — لما كدحوا للدنيا التي تزول عنهم ويزولون عنها مضطرين ؛ فلو أنهم كانوا على ثلج^(٥) من النفس ، ويقظة من العقل ، وأستبصار من القلب ، وسكون من البرهان ، لما تعجلوا هذه اللذات المنقوصة ، والأوطار الفاضحة ، والشهوات الخسيسة ، مع التعبات الكثيرة والأوزار الثقيلة ؛ ولا عجب فإنه إذا كانت الرّكاة^(٦) العائقة تمنع الإنسان

(١) هنا في الأصل راء وجيم بعد قوله « لا » ولعلهما زيادة من الناسخ .

(٢) غلام زحل : لقب لأبي القاسم عبيد الله بن الحسن كان منجأ حادقا ، توفي سنة ٣٢٦ .

(٣) في الأصل « بكس » بالسين . وقد ورد اسمه في أخبار الحكماء للقفطي بالشين .

(٤) ابن قوسين : طبيب مشهور في زمانه ، كان يهوديا وأسلم ، وعمل مقالة في الرد على اليهود .

(٥) ثلج النفس : راحتها واطمئنانها وسكونها إلى الشيء .

(٦) الرّكاة : الضعف . أو لعل صوابه : « الزمانة » إذ الرّكاة كثيرا ما تستعمل في ضعف العقل والرأي . والمراد هنا ما يخص البدن ، كما يقتضيه سياق ما يأتي .

من العَذْو والسَّقَر ، ومن سرعة الخطو ، لأن الحركة قد بطلت بالركاكة الداخلية عليه في أعضائه وآلاته ، فأئى عجب من أن تكون النفس التى أَسْتَعْبَدَتْهَا الشهوات الغالبة ^(١) ، والعقيدة الرديئة ، والأفعال القبيحة مَعْوَقَةٌ مَمْنُوعَةٌ من الصعود إلى مَمانقِ النَّلكِ وتَخارقِ النجوم وعالمِ الرُّوحِ ومَقْعَدِ الصِّدْقِ ومَقَامِ الأَمْنِ ومَحَلِّ الكرامة ومرادِ الخُلْدِ وبلدِ الأبدِ ومَعانٍ ^(٢) السَّرمَدِ .

قال : هذا كلام تام ؛ وسأسألك بعد هذا عن النفس وما تَحْفَظُ عنهم فيها ^(٤) لكن تَمَّ لى ما كُنَّا فيه ، كيف عِلِمُ أبى سليمان بالنجوم وأحكامها ؟ قلتُ : لا يتجاوز التقويم . ثم قال : فما تقول فى الأحكام ؟ قلتُ : أنشدت منذ أيام :
علم النجوم على العقول وبال وطلاب حق لا يُنال محال

وقلتُ أيضاً : علم الأحكام لا يجوز فى الحكمة أن يكون مدركا مكشوفاً مخاطباً به معروفاً ؛ ولا يجوز أن يكون مقنوطاً منه مطرّحاً مجهولاً ؛ بل الحكمة توجب أن يتوسّط هذا الفنُّ بين الإِصابة والخطأ حتّى لا يُسْتَغْنَى عن اللِّبَازِ ^(٣) بالله أبداً ، ولا يقع اليأس من قبله أبداً ؛ وعلى هذا سَخَّرَ الله الإنسانَ وقَيَّضَهُ ^(٤) وخيَّره بين الأمور وفوتّضه ؛ ومَنَعَ ^(٥) من الثقة والطمأنينة إلا فى معرفته وتوحيده وتقديسه وتمجيده ، والرجوع إليه ؛ انظر إلى حديث الطب فإنَّ عنده الصناعة توسّطت الصواب والخطأ ، لتكون الحكمة سارية فيها ، واللفظ معهوداً بها ؛ لأن الطب كما يبرأ به العليل ، قد يهلك معه العليل ؛ فليس بسبب أن بعض

(١) « الغالبة » .

(٢) المعان : المنزل .

(٣) « الكيام » .

(٤) فى الأصل : « وقبض له » ، واللام زيادة من الناسخ .

(٥) ورد فى الأصل قبل هذه الكلمة « هاء وياء » ولم تبيين الصواب فيها ؛ ولعلهما

من زيادات النسخ لاستقامة الكلام بدونهما .

المُدَبِّرِينَ بالطب هلك لا ينبغي أن يُنظرَ في الطب ؛ وليس بسبب أن بعض المرضى برأ بالطب وجب أن يموَّل عليه ؛ انظر إلى هذا التوسط في هذه الحال ليكون التدبير الإلهي والأمرُ الربوبي نافذَيْن في هذه الخلائق بوساطة ما بينه وبينها ؛ ولتكون المصلحة بالغة غايتها ؛ وهذه سياسة دار الفناء ، الجامعة لسكانها على البأساء والنماء ؛ وهكذا ، فانظر إلى حديث البحر وركوبِ البأس المتيقن فيه ، وجوبِ الطول والعرض وإصابة الرمح ، وطلب العلم ، كيف تَوَسَّطَ بين السلامة والعطب ، والنجاة والهلكة ، فلو أستمَرَّت السلامة حتى لا يوجد من يفرِّق ويهلك ، لكان في ذلك مفسدة عامة ؛ ولو أستمَرَّت الهلكة حتى لا يوجد من يسلم وينجو ، لكان في ذلك مفسدة عامة ؛ فالحكمة إذا ما تَوَسَّطَ هذا الأمرُ حتى يشكر الله من ينجو ، ويسلم نفسه لله من يهلك . قلت : وبعد هذا فهذا العلم^(١) عويص غامض عميق ، وقد فُقد العلماء به ، الملمَّون فيه ؛ ومعوَّل أهلِه على الحدس والظن ، وعلى بعض التجارب القديمة التي تكذب مرَّةً وتصدق مرَّةً ؛ وبالصدق يعبر الإنسان ، وبالكذب يعرَى من فوائده ؛ فالتقص قد دخله ، والخلل قد شمله ؛ وليس يجب أن يوهب له زمانٌ عزيز ، فوراءه ما هو أهمُّ منه وأجدَرُ ، وأرشد وأهدى .

(٥)

قال : هذا حسن ، حدَّثني بالذي أفدَّت اليوم . قلت : قال أبو سليمان : العلم صورة المعلوم في نفس العالم ، وأنفس العلماء عالمةُ بالفعل ، وأنفسُ المتعلِّمين عالمةُ^(٢) بالقوة . والتعليم هو إبراز ما بالقوة إلى الفعل . والتعلُّم هو بروز ما هو بالقوة إلى الفعل . والنفس الفلكية عالمةُ بالفعل ، والنفس الجزئية عالمةُ بالقوة ؛ وكلُّ

نفس جزئية تكون أكثر معلوماً وأحكم مصنوعاً فهي أقرب إلى النفس الفلكية تشبهاً بها ، وتصيراً لها^(١) .

قال : هذا في الحُسن نهاية ، وقد أكتهل الليل ، وهذا يحتاج إلى بدء (٦) زمان ، وتفرغ قلب ، وإصغاء جديد . هات خاتمة المجلس . قلت له : قرأنا يوم الجمعة على أبي عبيد الله المرزباني لعبد الله بن مُصعب :

إذا أستمعتُ منك بلحظ طرفي حيّ نصفى ومات عليك نصفى
تلدّدُ مقلتي ويذوب جسمي وعيشي منك مقرون بمحتفى
فلو أبصرتني والليل داج وخدّى قد توسّطَ بطن كفى
ودمى يستهلّ من المآقى إذا لرأيت مابى فوق وصفى
وانصرفتُ .

الليلة الثالثة

قال لى ليلة أخرى : حدّثنى أبو الوفاء عنك حديثَ الخراسانيّ ، فأريد أن أسمعك منك . قال : كنت قائماً عشيّة على زنبيرة^(٢) الجسر في [الجانب] الشرق والحاجّ يدخلون ، وجماعهم قد سدت عرض الجسر — أنتظر جوازها وخفّة الطريق منها ، فرأيت شيخاً من أهل خراسان ذكّر لى أنّه من أهل سنجان^(٣) واقفاً خلف الجمال يسوقها ، ويحفظ الرجال التي عليها ، حتى نظر إلى الجانب الغربى

(١) يقال : نصير أباة : إذا نزع إليه في شبهة به .

(٢) في الأصل زبيرة والزبيريّان هما السفينتان اللتان في الجسر في الجانب الشرقى من بغداد يعبر عليهما السالكون كما في عيون الأبناء ١/ ١٧٩ .

(٣) في الأصل : « سحاب » ؛ ولم نجد هذا الاسم فيها راجعناه من الكتب المؤلفة في أسماء البلاد . وسنجان : قرية بمرّو .

فرأى الجذع عليه ابنُ بَقِيَّةٍ — وكان وزيراً صلبه الملكُ لذنوب كانت له — فقال :
لا إِلَهَ إِلَّا الله ، ما أعجب أمور الدنيا وما أقلُّ المفكر في عِبَرها وَغَيْرِها ، عضد
الدولة تحت الأرض وعدوه فوق الأرض ! .

قال : هكذا حدثني أبو الوفاء ، ولذلك أستاذنتُ في دفنه ، وكان كلام
الشيخ سبباً في ذلك .

(٢) قال : بلغني أن أبا سليمان يزور في أيام الجمعة رسلَ سجستانَ لمَّا ^(١) ويظلُّ
عندهم طاعماً ناعماً ، ويأنس بأنك معه ، فمن يحضر ^(٢) ذلك المكان ؟ فقلت : جماعة ؛
وآخر من كان في هذا الأسبوع الماضي ابنُ جبلة الكاتب ، وابن برمويه ^(٣) ، وابن
الناظر ^(٤) أبو منصور وأخوه ، وأبوسليمان وبندار ^(٥) المغني ^(٦) وغزال الراقص ، وعَلَمٌ ^(٧)
وراء الستارة . فقال : ما الذي حفظت من حديث ^(٨) عنهم ، وما يجوز أن يُلقَى
إلينا منهم ؟ فقلت : سمعت أشياء ، ولست أحب أن أَسِمَ نفسي بنقل الحديث
وإعادة الأحوال فأكون غامزاً وساعياً ومفسداً . قال : معاذ الله من هذا ، إنما
تدلُّ على رشد وخير ، وتُصِلُ ^(٩) عن غيٍّ وسوء ، وهذا يلزم كلَّ من آثر الصلاح
الخاصَّ والعامَّ لنفسه وللناس ، وأعتقد الشفقة ، وحثَّ على قبول النصيحة ؛ والنبيُّ

(١) اللم : الجمع ؛ يريد أنه يزورهم مجتمعين .

(٢) « يخطر » .

(٣) في الأصل : « ابن زمويه » ، وقد ورد ذكر ابن برمويه في كتاب ذيل تجارب
الأمم ؛ وهو الحسن بن برمويه ، كان كاتباً لوالدة صمصام الدولة وكان ممن تأمروا على الإيقاع
بإبن سعدان وقته ، ثم استوزر ابن برمويه لصمصام الدولة مشتركاً في الوزارة مع أبي القاسم
عبد العزيز بن يوسف .

(٤) في الأصل : « ابن الناظر » ، وهو من رجال صمصام الدولة .

(٥) في الأصل : « يكدان » ؛ وهو تحريف .

(٦) « المفكي » .

(٧) علم : اسم جارية .

(٨) في الأصل : « حديثنا » والنون والألف زيادة من الناسخ .

(٩) « تصل » .

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد سمع مثل هذا وسأل عنه ، وكذلك الخلفاء بعده ، وكلُّ أحد محتاج إلى معرفة الأحوال إذا رجع إلى مرتبة عاليةٍ أو محطولة . فقلتُ وجدتُ ابنَ برمويه ^(١) يذكر أشياء هي متعلّقة بجانبك ، ويرى أنها لو لم تكن لكان مجلسك أشرف ، ودولتك أغزى ، وأيامك أذوم ، ووئيك أحد ، وعدوك أكمد . قال ^(٢) : ما هذا الاسترسالُ كُلُّه [إلى] ابنِ شاهويه ^(٣) ؟ وما هذا الكلفُ بهرام ^(٤) ؟ وما هذا التعصّبُ لابنِ مكينخا ^(٥) ؟ وما هذا السكونُ إلى ابنِ طاهر ^(٦) ؟ وما هذا التعويلُ على ابنِ عبدان ^(٧) ؟ وما من هؤلاء أحدٌ إلّا يرش ^(٨) عدوّه ويَبْزِيه ويُضِلُّ صاحبه ويُقْوِيه ^(٩) . أما ابنُ شاهويه فشيخُ إزرء ^(١٠) وصاحبُ محرّقة ^(١١)

(١) « برمويه » .

(٢) قال ، أي ابن برمويه المحدث عنه .

(٣) ابن شاهويه هذا هو غير ابن شاهويه الفقيه الذي مر ذكره في مقدمة الكتاب . أما هذا فكان عاملاً كبيراً من عمال صمصام الدولة ، قام بالدعوة له بعمان حتى أذغنت له سنة ٣٧٤ ، ثم غضب عليه صمصام الدولة وحبسّه مع ابن سعدان ، ثم نجّا من القتل بأعجوبة ، ثم عفى عنه سنة ٣٧٥ .

(٤) هو أبو سعيد بهرام بن أردشير ، كان من رجالات صمصام الدولة ، وكان صديقاً لابن سعدان . يقول ابن سعدان في وصفه : « إني أرى حديثه آتق من المي إذا أدركت والدنيا إذا ملكت ، وإن تمازجنا بالعقل والروح والرأى والتدبير ... ليزيد على حال توأمين تراكضا في رحم وتراضعا من ثدى ونوغيا في مهد » . وقد قبض عليه مع ابن سعدان وقتل معه سنة ٣٧٥ .

(٥) في الأصل « ابن مكينخا » والجيم زائدة ، وما أثبتناه عن ذيل تجارب الأمم وقد كان أبو علي بن مكينخا صاحب ديوان الخزائن لعضد الدولة كما عمل من بعده لصمصام الدولة . (٦) هو أبو عبد الله بن طاهر ، كان نائباً عن أبي نصر سابور كما كان من رجالات صمصام الدولة قتل سنة ٣٨٠ .

(٧) « ابن عمان » .

(٨) يرش عدوه الخ كناية عن تقويته للعدو وإعانتة على النكاية ، وأصله من راش السهم يرشه إذا ألزق به الريش ليكون أسرع إلى الهدف .

(٩) في الأصل : « يصل صاحبه ويقويه » ؛ وهو تحريف في كلتا الكلمتين .

(١٠) الإزرء : الفس والتلبس . يقال : أزرى به إذا أدخل عليه أمراً يريد أن يلبسه عليه .

(١١) المحرقة : الحق والكذب .

وكذب ظاهر ، كثير الإيهام ، شديد التمويه ، لا يرجع إلى وُدِّ صادق ، ولا إلى عقد صحيح وعهد محفوظ ؛ وإنما كان الماضي يقرّبه لغرض كان له فيه من جهة هؤلاء الخزيين القرامطة ، وكان أيضا مذموم^(١) الهيئة ، فكان لا ينبس^(٢) إلا بما يقويه ويحرسُ حاله ، واليوم هو رَخِيُّ اللَّبِّ^(٣) ، جاذب لكل سبب ؛ وليس هناك كفاية ولا صيانة^(٤) ولا ديانة ولا مروءة ؛ وبعد ، فهو مشثوم نَكْد ، ثقیل الروح ، شديد البُهْت^(٥) قوله الإفساد وعادته تأجيل^(٦) المَهْنَأ والشماتة بالعاثر^(٧) والتشفي من المنكوب .

وأما بهزام فرجل مجوسى معجَب ذميم ، لا يعرف الوفاء ولا يرجع إلى حفاظ ، غرضه^(٨) أن يتبجح في الدنيا بجاهه ، ولا يبالي أين صار بعاقبته ؛ وهو يحضُّ^(٩) مع ذلك عليه في كل ما هو مديره ومدبره .

وأما ابن مكيخا ، فرجل نصرانى أرعن خسيس ، ماجاء يوما بخير قط لا في رأى ولا في عمل ولا في توسط ؛ وأصحابنا يلقبونه بقفا وهو « منهمك »^(١٠)

(١) مذموما بالهيئة .

(٢) ينبس : يتكلم .

(٣) رخی اللب ، أى متنع الحال . وهو مجاز ؛ وأصل اللب ما يشد من سيور السرج في اللبة من صدر الدابة لمنع استئثار الرجل .

(٤) « صناعة » .

(٥) البهت : الكذب والباطل .

(٦) في الأصل : « تعجيل » وسياق السلام يقتضى ما أثبتنا . والمهنا مصدر مبي

(٧) « بالفار » ؛ وهو تصعيف .

(٨) « عرضه » .

(٩) يحض مع ذلك الخ ، أى يفرى الناس بالوزير ويفسد قلوبهم عليه .

(١٠) وردت هذه العبارة في الأصل محرفة الحروف ، مهمل أكثرها من النقط ؛ وما أثبتناه أقرب إلى الرسم الوارد في الأصل ، كما أن سياق الكلام الآتى يقتضيه .

بين اللذائذ « هُمُّهُ أَنْ يَتَحَسَّى دَنَّ الشَّرَابِ فِي نَفْسٍ أَوْ نَفْسَيْنِ ، ثُمَّ يَسْقُطُ كَالْجَذْعِ الْيَابِسِ لَا لِسَانَ وَلَا إِنْسَانَ .

وأما ابن طاهر فرجل يدعى للناس أَنَّهُ لَوْلَا مَكَانَتُهُ وَكَفَايَتُهُ وَحَسَبُهُ وَرَأْيُهُ ومشورته لكانت هذه الوزارة سرابا ، وهذه المملكة خرابا ؛ هذا مع الشر^(١) الذى فى طبعه وعادته ؛ فإن جرى خَيْرُ أُنْتَحَلَهُ ، وزعم أَنَّهُ من نتائج رأيه^(٢) ؛ وإن وقع شرُّ عصبه برأس صاحبه ، وأدعى أَنَّهُ استبدَّ^(٣) به ؛ ومع هذا فهو يعيب^(٤) هذه المُرَآة . وما أدرى كيف أُسْتَكْفَى^(٥) هذه الجماعة حوله ؟ وكيف يُظَاهَرُ^(٦) هوبها ويسكن إليها ؟ وما فيهم إلا من وَكَّدَهُ الرِّجْسَ وَالْإِفْسَادَ وَالْأَخْذُ بِالْمُصَانَعَةِ وَإِغْرَاءِ الْأَوْلِيَاءِ بِمَا يَعُودُ بِالْوَبَالِ عَلَى الْبَرَى وَالسَّقِيمِ وَعَلَى الزَّكِيِّ وَالظَّنِّينِ^(٧) ؛ هؤلاء سباع ضارية ، وكلاب عاوية ؛ وعقاربُ لساعة ، وأفاعٍ نَهَاشَةٍ ، وقى الله هذا الإنسانَ الْحَرَّ^(٨) الْمُبَارَكَ الْكَرِيمَ الرَّحِيمَ ، فإنه شريف النفس طاهر الطَّوِيَّةِ^(٩) ؛ العريكة ، كثيرُ الديانة ، وهذه أخلاق لاتصلح اليوم مع الناس ، قال الشاعر^(١٠) :

ومن لا يَذُدُّ عن حوضه بسلاحه يهدمُ ومن لا يظلم الناسَ يظلمُ وقال :

ومن لا يذُدُّ عن حوضه الناسَ أو يكن له جانب يشتدَّ إنَّ لان جانبُ

(١) « السر » .

(٢) « يتابع زلته » .

(٣) « أسيد » .

(٤) فى الأصل : « عيب لهذه » .

(٥) « استكفيت » والتناء زيادة من الناسح .

(٦) يطاهر : يعاون .

(٧) الركي : الطاهر النقي . والظنين : المتهم .

(٨) « الحير » .

(٩) « ظاهر الخوية » .

(١٠) الشاعر زهير بن أبى سلمى .

يَطَأُ حَوْضَهُ الْمُسْتوردون وتَغْشَى شَوَائِبُ لَا تَبْقَى عَلَيْهَا النِّقَائِبُ ^(١)
وما ضاع قولهم : لَا تَكُنْ حُلُوا فَتَوَكَّلْ ، وَلَا مَرًّا فَتُعَاف . لَيْسَ الْحَذَرُ بِقِي ^(٢)
فَكَيْفَ التَّهَوُّرُ ، أَهْمُنَا لِحَيِّ نُسَجِّبُ كُلَّ يَوْمٍ ، وَطَوَارِقُ تُتَوَقَّعُ كُلَّ لَيْلَةٍ ! وَالتَّوَكَّلْ
وَالْأُسْتِسْلَامُ يَلِيقَانِ ^(٣) بِأَهْلِ الدِّينِ فِي طَلَبِ الْآخِرَةِ ؛ فَأَمَّا أَصْحَابُ الدُّنْيَا وَأَرْبَابُ
الْمَرَاتِبِ ، فَيَجِبُ أَنْ يَدْعُوا الْهُوَيْنَا جَانِبًا ، وَيَشْتَمِرُوا لِلنَّفْعِ وَالضَّرِّ ؛ وَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ
وَيَكُونُ ضَرُّهُمْ أَكْثَرَ ، وَشَرُّهُمْ أَغْلَبَ ؛ وَرَهَبُوتُ خَيْرٍ مِنْ رَحْمَتٍ .
ولهذا قَالَ الْأَعْرَابِيُّ :

أَنَا الْغَلَامُ الْأَعْسَرُ الْخَيْرُ فِيّ وَالشَّرُّ
وَالشَّرُّ فِيّ أَكْثَرُ

وهذا معنى بديع ، وَلَمْ يَرِدْ أَنَّ الْبِدَاءَ بِالشَّرِّ خَيْرٌ مِنَ الْخَيْرِ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنِّي أَتَّقِي
بِالشَّرِّ ، وَإِذَا أَقْبَلَ الشَّرُّ قُلْتُ لَهُ : مَرْحَبًا ، وَأَدْفَعُ الشَّرَّ وَلَوْ بِالشَّرِّ ، وَالْحَدِيدُ
بِالْحَدِيدِ يُفْلَحُ ^(٤) . وَقَدْ قَالَ الْآخَرُ ^(٥) :

وَفِي الشَّرِّ نَجَاةٌ حَيْثُ لَا يَنْجِيكَ إِحْسَانُ
وَقَالَ ابْنُ دَاوُدَ :

إِذَا كُنْتَ يَوْمًا طَالِبَ الْقَوْمِ فَأَطْرَحْ مَقَالَتَهُمْ وَأَذْهَبْ بِهِمْ كُلَّ مَذْهَبٍ
وَقَارِبْ بِذِي حِلْمٍ وَبَاعِذْ بِجَاهِلٍ جَلُوبٍ عَلَيْكَ الشَّرُّ مِنْ كُلِّ تَجَلُّبٍ
فَإِنْ حَدِّبُوا ^(٦) فَأَقْصَسْ وَإِنْ هُمْ تَقَاعَسُوا لَيْسْتُمْ مَسْكُومًا يَرِيدُونَ فَأَحْدَبْ

-
- (١) شَوَائِبُ ، أَيُ عِيُوبٍ تَحَالُظُ أَخْلَاقَهُ . وَالنِّقَائِبُ : السَّجَايَا وَالْأَخْلَاقُ ، الْوَاحِدَةُ نَقِيبَةٌ .
(٢) فِي الْأَصْلِ « لَيْتَ الْحَذَرُ وَفِي » وَقَوْلُهُ بَعْدَ « فَكَيْفَ » الْخُ يَقْتَضِي مَا أَثْبَتْنَا .
(٣) « يَنْتَقِيَانِ » ؛ وَهُوَ تَحْرِيفٌ .
(٤) يَفْلَحُ : يَشُقُّ .
(٥) فِي الْأَصْلِ : « نَحَاةٌ لَكَ » وَقَوْلُهُ « لَكَ » زِيَادَةٌ مِنَ النَّاسِخِ .
(٦) حَدِّبُوا : مِنَ الْحَدَبِ بِالتَّحْرِيكِ ، وَهُوَ خُرُوجُ الظَّهْرِ وَدُخُولُ الصَّدْرِ وَالْبَطْنِ .
وَالْفَعْسُ بِالتَّحْرِيكِ : عَكْسُهُ .

وإن حلبوا خَلْفَيْن^(١) فاحلب ثلاثة وإن ركبوا يوما لك الشر فاركب
وقال الحجاج بن يوسف أبو محمد — وهو من رجالات العرب وقد قهر العجم
بالدهاء والزكاة — « لو أخذتُ من الناس مائة ألف ، كان أرضى عني من أن
أفرق فيهم مائة ألف ». كان الناس بالأمس مزومين^(٢) مخطومين ، يقوم كل واحد
بنفسه على نفسه ، ويتَّهم غَدَهُ لما جناه في أمسه ؛ لأنَّ الملِك السعيد سامهم ،
وقوم زيمهم ، وقلم أطفالهم ؛ وشغلهم بالحاجة عن البطر والأشر ، وبالكفاية
عن القلق والضجر ؛ وتقدَّم^(٣) إليهم بترك الخوض فيما لا مرجوع له بخير ؛
وكانوا لا يشكرون الله على نعمته عليهم به ، وإحسانه إليهم بمكانه ، فسلبوه
فَتَنَفَسَ خَنَاقُهُمْ ، وأتسع نِطَاقُهُمْ ، فامتطى كلُّ واحد هواه ، ويوشك أن يقع
في مَهْوَاة .

قال : وههنا أشياء أخرى غير هذه ، ولكن من يسمع ويَقْبِل ؟ ومع هذا
فالأُمُور صائِرَةٌ إلى مصايرها ، كما أنَّها صادرة عن مصادرها .

فقال له ابن جبلة : ما عندي إلا أن الوزير — أبقاء الله — عارفٌ بهم
ومستبطنٌ لأمرهم ؛ مع العشرة القديمة ، والملازمة المتصلة ، والخبرة الواقعة ؛
ولكن [لا بدَّ]^(٤) لمن كان في محله ورفعته من جماعة يقرَّبهم ، ويرجع إليهم
ويسمع منهم ، وينظر بأعينهم ، ويضعي بأذانهم ، ويتناول بأيديهم . فقال له
مجاوبا : إن كان عارفا^(٥) بهم ، ومستبطنا لأمرهم ، وخبيرا بشأنهم ؛ فَلِمَ سلَّطهم
وبسَّطهم ، وحدَّد أنيابهم ، وقوَّى أسنانهم ، وفتح أشداقهم ، وطوَّل أعناقهم

(١) الخلف : الضرع .

(٢) في الأصل « مرموقين مخطومين » ؛ وهو تحريف . وسياق الكلام الآتي بعد
يقتضى ما أثبتنا . ومزومين مخطومين ، من الزمام والخطام .

(٣) تقدم إليه تكذا أمره به .

(٤) هذه الكلمة أو ما يفيد معناها ساقطة من الأصل ولا تستقيم العبارة بدونها .

(٥) « فارقا بهم مشكبطا » ؛ وهو تحريف في كلتا الكلمتين .

وقطّع أرباقهم ؛ وأبطرهم فأسكرهم ، حتى صاروا يجهلون أقدارهم ، وينسون ما كانوا فيه من القلّة والذلّة ؟ هلاً^(١) رتب كل واحد منهم فيما تظهر به كفايته ولا يرفعه إلى ما يظن معه الظنّ الفاسد ، ولم يصحك في وجوههم ، ويفضي^(٢) على جنائهم ؟ أما بلغه أن ابن يوسف قال^(٣) : تشبّه بأبن شاهويه لأنّه قد أعدّه للهرب إلى القرامطة إن دهمه أمر ؟ وأنسه بهرام إنما هو لاستمداد^(٤) الفساد منه وتقديمه لابن طاهر للسرقة على يده ، وفرحه بابن مكينجا^(٥) للسخرية به وتقريبه لابن الحجاج للسّخف ، وأهجه بابن هرون للهزء واللّعب .

قال له ابن جبلة : من أراد أن يحسن القبيح عند رضاه ، ويقبّح الحسن عند سُخطه فعَل ، ولا يخلو أحد تهبّ ريحه^(٦) ، ويعلو شأنه ، وينفذ أمره ونهيه من حاسد وفارف^(٧) ، ومُدخل ومُرَجِف ، على هذه الأمور بُنيت الدار ، وعليها جرت الأقدار ، إن كنت تنكر هذا الرهط ، فاعرف له^(٨) الرهط الآخر ؛ فإنك تعرف بذلك حُسن اختياره وجميل أنتقائه ومحمود رأيه .

قال : من هم ؟ . قال : أبو الوفاء المهندس ، وابن زرعة المتفلسف ، وابن عبيد الكاتب ، ومسكويه ، والأهوازيّ والعسجدى فأين^(٩) هؤلاء الغامطة^(١٠) ؟

(١) « على » .

(٢) « يقضي » .

(٣) « طال » .

(٤) « الاستمداد » .

(٥) « ابن مكينجاج » .

(٦) تهب ريحه : كناية عن نهوض الحظ وقيام الدولة .

(٧) قارف ، أى كاذب ظالم . والمُدخل : العائب ، من الدخّل بالتحريك وسكون الحاء بمعنى العيب .

(٨) له ، أى للوزير .

(٩) « فالآن » .

(١٠) الغامطة : الذين لا يشكرون العمة . ويشير بهذا الوصف إلى الجماعة التّقدم ذكرهم وهم ابن شاهويه وبهرام الخ . يريد أين هؤلاء من هؤلاء .

قومٌ هُمهم أن يأكلوا رغيفا ويشربوا قدحا ، لا هُم من يُقتبس من علمهم ولا هم^(١) يتكلفون له نصحا ، وهيبته^(٢) تعوقهم عن ذكر شيء في الدولة من تلقائهم إلا أن يكون شيء يتعلق بهم على معنى خاص ؛ فهو ينود^(٣) هكذا وهكذا حتى يبلغ منهم ما قدر عليه .

فلما سمع الوزير هذا كله قال : سألقى إليك في جواب هذه المسألة ما تخدمني به إن لاقيتهم في مجلس آخر على وجه يُخفي^(٤) أنك له ملقن مُحَمَل كأنك ساء عنه غير حافل به ؛ وقد تقطع الليل ، ويحتاج في هذا الحديث إلى استئناف زمان ، بعد استيفاء حجام ؛ ثم أنشدت قول الشاعر :

إني لأصنع عن قومي وألبسهم على الضغائن حتى تبرأ المثر

ثم قال : ما المثر ؟ قلت : هي الضغائن التي ذكرها في خشو البيت ، واحداها مِثْرَةٌ ، كأنه أراد وألبسهم على الضغائن [حتى تبرأ الضغائن^(٥)] فرجع من لفظ إلى لفظ ضرورة القافية لما كان معناها واحدا ؛ قال : لمن هذا البيت ؟ قلت : لا أحفظ أسم شاعره ، ولكن أحفظ معه أبياتا . قال : هاتها ؛ فأنشدت أول ذلك :
يأئيها الرجل المُرْجِي أذيتَه^(٦) هل أنت عن قولك العوراء مزدجرُ
إني إذا عُدَّ مِبطاء^(٧) إلى أمد لا يستطيع حِضاري المقرف البِطْرُ^(٨)

(١) « لا هو » .

(٢) « عتقهم » .

(٣) ينود : يتحرك ويتمايل . والمراد انه يلوح هكذا وهكذا بالكلام .

(٤) « الخفي » .

(٥) هذه العبارة التي بين مربعين ساقطة من الأصل ، ولا يستقيم الكلام بدونها ، فان قوله : « وألبسهم على الضغائن » من لفظ البيت ، فلا يصح أن يقال فيه : « كأنه أراد » .

(٦) « أذيتَه » .

(٧) « مد مِبطاء » .

(٨) الحضار ، بكسر الحاء والمحاضرة : المالبة في الحضر بضمها ، وهو العدو السريع . =

لاقى قناتى مِصرارا عَشَوَزَنَةً^(١) لا قَادِحَ قَد تَبَعَهَا وَلَا خَوَزُ
إِنِّى لأَصْفَحُ عَنْ قَوْمِى وَالْبَسُّهُمْ عَلَى الضَّغَانِ حَتَّى تَبْرَأَ الْمِرْءُ
قَالَ: أُكْتُبُهَا. قُلْتُ: أَفْعَلُ، وَأَنْصَرِفُ، فَأُعَادَ عَلَى بَعْدِ ذَلِكَ شَيْئًا مِمَّا كَانَ.

الليلة الرابعة

(١) قَالَ لِي بَعْدَ ذَلِكَ فِي لَيْلَةٍ أُخْرَى: كَيْفَ رِضَاكَ عَنْ أَبِي الْوَفَاءِ^(٢)؟ قُلْتُ:
أَرْضَى رِضًا بِأَتَمِّ شُكْرٍ وَأَحَدٍ نِئَاءٍ؛ أَخَذَ بِيَدِي، وَنَظَرَ فِي مَعَاشِي، وَنَشَطَنِي
وَبَشَّرَنِي، وَرَعَى عَهْدِي، ثُمَّ خَتَمَ هَذَا كُلَّهُ بِالنِّعْمَةِ الْكُبْرَى، وَقَدَّرَنِي بِهَا الْقِلَادَةَ
الْحَسَنَى، وَشَمَلَنِي بِهَذِهِ الْخِدْمَةِ، وَأَذَاقَنِي حُلَاوَةَ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ، وَأَوْجَهَنِي عِنْدَ نَظَرَائِي.
قَالَ: هَاتِ شَيْئًا مِنَ الْغَزَلِ. فَأَنْشَدْتُهُ:

كَلَانَا سِوَاءَ فِي الْهَوَى غَيْرِ أَنِّهَا تَجَلَّدُ أَحْيَانًا وَمَا بِي تَجَلَّدُ

== والمفرد من الخيل: ما أمه عربية وأبوه أعجمي. والبطر بكسر الطاء: من البطر بالتحريك؛
وهو هنا بمعنى التعبير والدهش والاسهار. يريد أنه يتعب ويدعش حين يسابق أسرع منه فيقصر
عن مسابقته بسبب ذلك. ويقال للبعير القطوف إذا جرى بغيراً واسع الخطو فقصرت خطاه عن
مباراته: «قد أبطره ذرعه» أى حمله على أكثر من طوقه.

(١) ورد هذا البيت في الأصل هكذا:

لاقى قناتى مِصرارا عِصْرَتَهُ لَا قَارِحَ قَد تَبَعَهَا وَلَا خَوَزَ

وفي بعض ألفاظه تحريف ظاهر. ومِصرارا، أى ذات صرير، أى صوت. والعرب يصفون
القناة الجيدة بأنها تصوت عند غمزها، كما يدل على ذلك بيت عمرو بن كلثوم الآتي. والعشوزنة:
الصلبة الشديدة العليظة، قال عمرو بن كلثوم يصف قناة:

عَشَوَزَنَةً إِذَا غُمَزَتْ أَرَّتْ تَشُجُّ قِصَا الْمُتَقَفِّ وَالْجِينَا

والقَادِح: أكال يقع في الشجر. والصدع في العود.

(٢) يريد أبا الوفاء المهندس، وهو محمود بن محمد بن يحيى بن إسماعيل بن العباس، مولده
بيوزجان من بلاد نيسابور سنة ٣٢٨، وانتقل إلى العراق سنة ٣٤٨، وكان إماماً في الحساب
والهندسة والجبر والفلك؛ توفي سنة ٣٨٧ كما في ابن الأثير أوسنة ٣٨٨ كما في تاريخ الحكماء.
وهو الذى ألف أبو حيان له هذا الكتاب.

تخاف وعيد الكاشحين وإنما جنوني عليها [حين] أنهى وأبعد
 ثم قال : غالب ظني أن نصرا غلام خواشاذة^(١) ما هرب من فياني إلا برأيك
 وتجسريك ؛ فإن ذلك عبد ، ولا جرأة له على مثل هذا التذود والشذوذ ، فقد
 قال لي القائل : إنك من خلصانه .

فقلت : والله الذي لا إله إلا هو ما كان بيني وبينه ما يقتضي هذا الأنس
 وهذا الاسترسال ، إنما كنا نلتقي على زنبرية^(٢) باب الجسر بالمشاي وعند
 البيمارستان وعلى باب أبي الوفاء ؛ وإنما ركنت إليه لمرقعة^(٣) وتاسومته
 عند ما كنت رأيته عند صاحبه بالرغمي سنة تسع وستين وهو متوجه إلى
 قابوس وجرجان ، في المذلة الدائمة والحال المربوطة^(٤) ؛ ولو نبس لي بحرف
 من هذا^(٥) ، أو كنت أشعر بأقل شيء منه ، لكنت أقوله لأبي الوفاء
 قضاء لحقه ، ووفاء بما له في عنقي من مننه وخوفا من هذا الظن بي ، وقصورا
 عن اللائمة لي .

قال : أما تعرف أحدا تسأله عنه ممن كان يخالطه ويباسطه ؟ قلت :
 ما رأيته إلا وحده ؛ ولم كان زمان التلاقي ؟ كان أقل من شهر ، أفى هذا
 القدر يتوكد الأنس وترتفع الحشمة وتستحكم الثقة ويقع الاسترسال والتشاور ؟

(١) خواشاذة هو أبو نصر خواشاذة كان فارسيا من كبار رجال شرف الدولة البويهى
 وكان سفيرا في الاتفاق وعقد الصلح بين شرف الدولة وصمصام الدولة .

(٢) انظر تفسير هذا اللفظ في الحاشية رقم ٢ صفحة ٤١ .

(٣) المرقعة : من لس الصوفية ، لما فيها من الرقع . والتاسومة : كلمة شائعة الاستعمال
 عند العامة في نوع من المنال البالية يلبسه الفقراء ؛ ولم نجد لها فيما راجعنا من كتب اللغة ، كما
 أنها لم ترد فيما بين أيدينا من الكتب المؤلفة في الألفاظ العامية والدخيلة .

(٤) لعله يريد بالمربوطة في هذا الموضع ، الواقعة عند حد من الفاقة لا تنتقل عنه .

(٥) من هذا ، أى من أمره به .

هذا بعيد . قال : هذا المتخلف^(١) كنتُ قد قرَّبته وربَّته ، ووعدته ومَنَّيته ؛ وتقدمت إلى أبي الوفاء بالإقبال عليه ، والإحسان إليه ، وإذكارى بأمره في الوقت بعد الوقت ، حتى أزيده نباهة وتقديما ، فترك هذا كله وطوى الأرضَ كأنَّه هارب من حبس ، أو خائف من عذاب . ويقال في الأثر : إن بعض الصَّفِيحِيِّينَ^(٢) قال : لله قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل ، ما أكثر من يفر من هذه الكرامة ، وَيَقْوَى — على تَرْفِ جَمٍّ — على الهوان ، ويصبر على البلاء ، وَيَقْلَقُ في العافية ! إنَّ السجايَا لَمُتَّخِلَةٌ ، وإنَّ الطباعَ لَمُتَّعَادِيَةٌ ؛ فَلَمَّا يُرَى شخصان يتشاكلان في الظاهر إلَّا يتباينان في الباطن . قلتُ : كذلك هو .

(٣) قال : حَدَّثَنِي لِمَ أَمْتَمَعْتَ من النفوذ مع ابن موسى إلى الجبل فيما رَسَمْنَا له أن يتوجَّه فيه ؟ ولقد أطلتُ التعجَّب من هذا وكرَّرْتُهُ على أبي الوفاء .

فقلتُ : منعى من ذلك ثلاثة أشياء : أحدها أن ابن موسى لم يكن من شكلي « ولا أَشَدَّ للصدِّ »^(٣) هُونا^(٤) من مصاحبة الصَّدِّ^(٥) ، لأنَّه سوداوى وجَمَد . والآخر أنه قيل : ينبغي أن تكون عينا عليه ، وأنا لو قررت لك الحديث لما رأيتُه [لائقا]^(٦) بحالى ، فكيف إذا قرنتُ برجل باطلٍ^(٧) لو سرَّ بهوهم أمرى

(١) يريد بالمتخلف : هذا الغلام الآبق ، لتخلفه عن متابعة مولاه .

(٢) الصفيحيون : نسبة إلى الصفيح ، وهو من أسماء السماء ، يريد التصبيين المتعلقة قلوبهم بالعالم العلوى .

(٣) وردت هذه العبارة التي بين هاتين العلامتين في الأصل محرفة لا معنى لها وما أثبتناه هو أقرب الحروف إلى الرسم الوارد في الأصل ، كما أن سياق الكلام يقتضيه .

(٤) الهون : الذل والهوان .

(٥) « الصك » .

(٦) هذه الكلمة أو ما يفيد معناها ساقطة من الأصل ، ولعله يريد أنه لو اكتفى بنقل حقيقة الحديث لما كان ذلك لائقا بحاله لما في هذا العمل من وصفه بالسعاية والوشاية .

(٧) يريد بالباطلي أنه يأخذ بالشبهات والظنون الباطلة .

لَدَهْدَهَنِي^(١) من أعلى جبل في الطريق . والآخَرُ أَنِّي كُنْتُ أَفْدِ مع هذا كله على أبن عبَّاد — وهو رجل أساء إليَّ وأوحشني ، وحاول على لسان صاحبه أبن شاهويه أن أنقلب إليه ثانيا ؛ وكنت أكره ذلك ، وما كنت^(٢) آمِنُ ما يكون منه ومَتَّى ، والمجنون^(٣) المطاع ، مهروب منه بالطباع .

وبعد ، فليس لي [حَاجَةٌ] ^(٤) في مثل هذه الخدمة ، لأن صدر العمر حلا مَتَّى عاريا من هذه الأحوال ، وكان وسطه أضعفَ حملا ، وأبعدَ من القيام به والقيام عليه .

فقال : ما كان عندي هذا كله .

قال : إِنِّي أريد أن أسألك عن أبن عبَّاد فقد أنتجعته وخبرته وحضرتَ) مجلسه ، وعن أخلاقه ومذهبه وعادته ، وعن علمه وبلاغته ، وغالبِ ما هو عليه ، ومغلوبِ مالدیه ؛ فما أظنَّ أَنِّي أجِدُ مثلك في الخبر عنه ، والوصف له ، على أَنِّي قد شاهدته بهَمْدَانِ لَمَّا وافي ، ولكنِّي لم أعْجِمْهُ ، لأنَّ اللَّبِثَ كان قليلا ، والشغلَ كان عظيما ، والعائقَ كان واقعا .

فقلت : إِنِّي رجل مظلوم من^(٥) جهته ، وعاتبٌ عليه في معاملتي ، وشديدُ الغيظِ لحرمانِي ، وإن وصفتهُ أُرَبِّيتُ^(٦) منتصِفًا^(٧) ، وانتصفتُ منه مسرِفًا^(٨) ،

(١) دَهْدَهه : دحرجه .

(٢) « وما أكتب » .

(٣) « والمجكوت » .

(٤) موضع هذا اللفظ في الأصل حروف مطموسة تتعذر قراءتها ، وسياق الكلام يقضى ما أثبتنا أو ما يفيد معناه .

(٥) « أمر » .

(٦) أُرَبِّيت : زدت .

(٧) ورد في الأصل بعد هذه الكلمة لام وميم ؛ ولعلهما من زيادات النساخ ، لاستقامة الكلام بدونهما .

(٨) « مشترفا » ، وقد ورد بعد هذه الكلمة في الأصل حاء وياء ؛ ولعلهما من زيادات النساخ .

فلو كنتُ معتدلُ الحال بين الرضا والغضب ، أو عاريا منهما جملة ، كان الوصف أصدق ، والصدق به أَخَقُّ ؛ على أنى علت رسالة في أخلاقه وأخلاق ابن العميد أودعتها نفسُ الغزير ، ولفظي الطويل والقصير ، وهى فى المسوِّدة ولا جسارة لى على تحريرها ، فإنَّ جانبَه مهيب ، ولمكره ديب ، وقد قال الشاعر :

إلى أن يَغيبَ^(١) المرءُ يُرجى وَيَتَّقَى ولا يَعْلَمُ الإنسانُ ما فى المَغِيبِ

قال : دع هذا كله ، وأنسخ لى الرسالة من المسوِّدة ، ولا يَمْنَعَنَّكَ ذاك فإنَّ العين لا ترمقُها والأذن لا تسمعها واليد لا تنسخها .

وبعد ، فما سألتك إلا وصفه بما جُبِلَ عليه ، أو بما كسب^(٢) هو بيديه من خير وشر ؛ وهذا غير منكر ولا مكروه ، لأمر الله تعالى ، فإنه مع علمه الواسع ، وكرمه السابغ ، يصف المحسن والمسيء ، ويثني على هذا وينشئ^(٣) على ذاك ؛ فأذكر لى من أمره ما خفَّ اللفظ به وسبق الخاطرُ إليه وحضر السببُ له .

قلت : إنَّ الرجل كثيرُ الحفظ حاضرُ الجواب فصيحُ اللسان ؛ قد نَتَفَّ من كل أدب خفيفِ أشياء ، وأخذَ من كل فنِّ أطرافا ؛ والغالب عليه كلام المتكلمين المعتزلة ، وكتابته مهجَّنة بطرائقهم ، ومناظرته مشوبة^(٤) بعبارة الكتاب ؛ وهو شديد التعصُّب على أهل الحكمة والناظرين فى أجزاءها كالهندسة والطب والتنجيم والموسيقى والمنطق والعدد ؛ وليس [عنده]^(٥) بالجزء

(١) يغيب ، أى يموت . وفى الأصل « يعيش » ؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى .

(٢) « كتب » بالتاء .

(٣) « ينشئ على ذلك » ، أى يخبر عنه بذنوبه ، يقال : « شاعلى فلان ذنوبه » ، إذا أخبر بها عنه وأشاعها .

(٤) كذا فى معجم الأدباء . والذى فى الأصل : « مسترقة » .

(٥) لم ترد هذه الكلمة التى بين مربعين فى الأصل ؛ ومكانها كلمة مطموسة تتعذر قراءتها .

الإلهي خبر ، ولا له فيه عين^(١) ولا أثر ؛ وهو حسن القيام بالعروض والقوافي ؛ ويقول الشعر ، وليس بذلك ؛ وفي بديته غزارة . وأما رويته^(٢) فغزارة ؛ وطالعه الجوزاء ، والشعرى قريبة منه ؛ ويتشيع لمذهب أبي حنيفة ومقالة الزيدية ، ولا يرجع إلى الرقة والرافة والرحمة ، والناس كلهم محجمون عنه ، لجراته وسلطته واقتداره وبسطته ؛ شديد العقاب طفيف الثواب ، طويل العتاب ؛ بذىء اللسان ؛ يعطى كثيرا قليلا (أعنى يعطى الكثير القليل) ، مغلوب بحرارة الرأس ، سريع الغضب ، بعيد الفئدة^(٣) قريب الطيرة ، حسود حقود حديد ، وحسده وقف على أهل الفضل ، وحقده سار إلى أهل الكفاية ؛ أما الكتاب والمتصرفون فيخافون سطوته ، وأما المنتجعون^(٤) فيخافون جفوته ؛ وقد قتل خلقا ، وأهلك ناسا ، ونفى أمة ، نخوة وتعنتا وتجبرا وزهوا ؛ وهو مع هذا يخدعه الصبي ، ويخبله الغبي ؛ لأن المدخل عليه واسع ، والمآلى إليه سهل ؛ وذلك بأن يقال : مولانا يتقدم بأن أعار شيئا من كلامه ، ورسائل منشوره ومنظومه ؛ فما جئت الأرض إليه^(٥) من فرغاة ومصر وتفليس إلا لأستفيد كلامه وأفصح به ، وأتعلم البلاغة منه ؛ لكأنما رسائل مولانا سور قرآن ، وفقره فيها آيات فرقان ؛ واحتجاجه من أبتدائها إلى أنتهاها برهان فوق برهان ؛ فسبحان من جمع العالم في واحد ، وأبرز جميع قدرته في شخص .

(١) « جين ولا إبر » .

(٢) كذا في معجم الأدباء ج ٢ ص ٢٧٦ الطبعة الأولى . والذي في الأصل : « بديته » ولا يستقيم مع العبارة السابقة .

(٣) « النية » . والتصحيح عن معجم ياقوت . والفئدة : الرجعة .

(٤) « المنكفون » .

(٥) « إلا من فرغاة » وقوله « إلا » زيادة من الناسخ .

فيلين عند ذلك ويذوب ، ويلهى عن كل مهم له ، وينسى كل فريضة عليه ويتقدم إلى الخازن ^(١) بأن يُخرج إليه رسائله مع الورق ^(٢) والورق ويسهل ^(٣) له الإذن عليه ، والوصول إليه ، والتمكّن من مجلسه ؛ فهذا هذا .

ثم يعمل في أوقات كالعيد والفضل شعرا ، ويدفعه إلى أبى عيسى بن المنجم ، ويقول : قد نخلتُك هذه القصيدة ، امدحنى بها في جملة الشعراء ، وكن الثالث من الهَمَج ^(٤) المُشْدِين ^(٥) . فيفعل أبو عيسى — وهو بغدادى محكك ^(٦) — قد شاخ على الخدائع وتحنّك — ويُشْد ، فيقول له عند سماعه شعره في نفسه ووضعه بلسانه ، ومدحه من تحبيره : أعذ يا أبا عيسى ، فإنك — والله — مجيد زه يا أبا عيسى والله ، قد صفا ذهْنك ، وزادت قريحتك ، وتنقّحت قوافيك ؛ ليس هذا من الطراز الأوّل حين أنشدتنا في العيد الماضى ، مجالسنا تُخرّج الناس وتهبّ لهم الذكاء ، وتزيد لهم الفطنة ، وتحول الكودن ^(٧) عتيقا ، والمحمر ^(٨) جوادا ؛ ثم لا يصرفه عن مجلسه إلا بجائزة سنّيه ؛ وعطيّة هنيّه ؛ ويغيظ الجماعة من الشعراء وغيرهم ، لأنهم يعلمون أن أبا عيسى لا يقرض مضراعا ولا يزن بيتا ولا يذوق عروضا .

قال يوما : من في الدار ؟ فقليل له : أبو القاسم الكاتب وابن ثابت ؛ فعمل

(١) « الخازن » .

(٢) يريد بأحد الورقين : الدرام المضروبة ، وهو بفتح الراء وكسرهما .

(٣) كذا في معجم الأدباء ج ٢ ص ٢٧٧ الطبعة الأولى . والذي في الأصل : « ويهلم » ؛ وهو تحريف لا معنى له .

(٤) « الهمج » ، وفي حروفه قلب .

(٥) « المُشْدِين » وما أثبتناه عن معجم الأدباء .

(٦) محكك ، أى مجرب مدرب .

(٧) الكودن : الفرس الهجين . والعتيق : عكسه .

(٨) المحمر : الفرس الهجين .

في الحال بيتين ، وقال لإنسان بين يديه : إذا أذنتُ لهذين فأدخلُ بعدها بساعة .
وقل : « قد قلتُ »^(١) بيتين ، فإن رسمتَ لي إنشادهما أنشدتُ » وأزعم أنك
بُدِيتَ بهما ، ولا تمزع من تأففي بك ، ولا تنزع من نُكْرِي عليك ، ودفعَ
البيتين إليه ، وأمره بالخروج إلى الصحن ؛ وأذن للرجلين حتى وصلا ؛ فلما
جلسا وأنسا^(٢) دخل الآخر^(٣) على تقيئتهما^(٤) ، ووقف للخدمة ، وأخذ
يتلمظُ يرى أنه يقرض شعرا ؛ ثم قال : يا مولانا ، قد حضرني بيتان ، فإن
أنت أذنتَ لي أنشدتُ . قال : أنت إنسان أخرجتُ سخيف ، لا تقول شيئا
فيه خير ، اكفني أمرك وشعرك . قال : يا مولانا ، هي بديهتي ، فإن نكسرتني^(٥)
ظلمتني ؛ وعلى كل حال فأسمع ، فإن كانا بارعين وإلا فعاملني بما تحب^(٦) .
قال : أنت لجوج ، هات . فأنشد :

يأيها صاحب تاج العلا لا تجعلني نُهْزَةً الشامتِ
بمُلْحِدٍ يُكْنَى أبا قاسمٍ ومُجَبَّرٍ^(٧) يُعْرَى إلى ثابتِ

قال : قالتك الله ، لقد أحسنت وأنت مسمي . قال لي أبو القاسم : فكدتُ
أتفقًا غيظًا ، لأنني علمت أنه من فعلاته المعروفة ؛ وكان ذلك الجاهل لا يقرضُ

(١) ورد في الأصل بعد قوله : « قلت » جيم وميم وهما زيادة من الناسخ ، لاستقامة
الكلام بدونهما ، ولأنهما لم يردا في معجم الأدباء . ويلاحظ أن في هذه النسخة كثيرا من
الحروف الزائدة .

(٢) كذا في معجم الأدباء . والذي في الأصل : « موانسا » ؛ وهو تحريف .

(٣) « الأحر » وما أُتبتاه عن معجم الأدباء .

(٤) « تقيئهما » ؛ وهو تحريف . « ودخل على تقيئتهما » ، أي على أثرهما . وتقيئة

الشيء : حينه وزمنه .

(٥) « تكسرتني » ؛ وهو تحريف . وفي معجم الأدباء « كسرتني » .

(٦) « يحب » .

(٧) « مجبر » بفتح الباء ، أي منسوب إلى مذهب الجبرية بالتحريك ، وهم فرقة يقولون :

ليس للعبد قدرة ، وإن الحركات الإرادية بمثابة الرعدة والرعدة .

بيتا . ثم حدثني الخادم الحديث بنصه .

والذى غَلَطَه في نفسه وحملَه على الإعجاب بفضله والاستبداد برأيه ، أنه لم يُجِبْهُ قَطُّ بتخطئة ، ولا قوبل بتسوئة ؛ ولا قيل له : أخطأت أو قصرت أو لحنت أو غَلِطْتَ أو أخلت ، لأنه نشأ على أن يقال : أصاب سيّدنا ، وصدّق مولانا ، والله دَرَّه ، والله بلاؤه ، مارأينا مثله ، ولا سمعنا من يقاربه ، من (أبن عبدِ كان) مضافا إليه ؟ ومن (أبنُ ثوابه) مقيسا عليه ؟ ومن (إبراهيم بن العباس) الصّوْلِيُّ [إذا جُمع بينهما] ؟ من (صريع الغواني) من (أشجع السّلمى) إذا سلّك طريقهما ، ومتّج برشائهما ، وقَدَح بزَنْدِهما ؟ قد أُستدرك مولانا على (الخليل) في العروض ، وعلى (أبي عمرو بن العلاء) في اللّغة وعلى (أبي يوسف) في القضاء ، وعلى (الإسكافي) في الموازنة ، وعلى (أبن نُوبخت) في الآراء والديانات ، وعلى (أبن مُجاهد) في القراءات ؛ وعلى (أبن جرير) في التفسير ، وعلى (أرسطوطاليس) في المنطق ، وعلى (الكِنْدِيّ) في الجزء ^(١) ، وعلى (أبن سيرين) في العبارة ، وعلى (أبن العيّناء) في البديهة ، وعلى (أبن أبي خالد) في الخطّ ، وعلى (الجاحظ) في الحيوان ، وعلى (سهل بن هرون) في الفِقر ، وعلى (يوحنا) في الطب ؛ وعلى (أبن رَبَن) ^(٢) في الفردوس ، وعلى (عيسى بن دأب) في الرواية ، وعلى (الواقديّ) في الحفظ ، وعلى (النّجار) في البدل ^(٣) ، وعلى (ابن ثوابه) في التفقه ^(٤) ، وعلى (السّريّ السّقطيّ) في الخطرات والوساوس ، وعلى (مُزَبَّد) ^(٥)

(١) يريد الجزء الذى لا يتجزأ ، وهو ما يسمى بالجواهر الفرد .

(٢) « ابن ربن » هو على بن ربن كان طبيبا مشهورا ، ألف كتابا اسمه فردوس

الحكمة ، وكان يهوديا ثم أسلم على يد المعتصم .

(٣) البدل : اسم كتاب في الكلام لأبي عبد الله الحسين بن محمد النجار .

(٤) في معجم الأدباء « وعلى بن ثوابه في التفقيه » .

(٥) هو أبو إسحاق مزبد الدنى اشتهر بنوادره المضحكة وبسرعة خاطره ولطيف ماله .

في النوارد ، وعلى (أبي الحسن العروضي) في أستخراج المعنى ، وعلى (بنى برمك) في الجود ، وعلى (ذى الرياستين) في التدبير ، وعلى (سطيح) في الكهانة ، وعلى (ابن المحيّا خالد بن سنان العبسي) في دعواه^(١) ؛ هو والله أولى بقول (أبي شريح أوس بن حجر التميمي) في (فضالة بن كعدة) :

الألمى الذى يظنّ بك الظن* كأنّ قد رأى وقد سمعا

قد يسبق المدحُ إلى من [لا^(٢)] يستحقّه ، ويصير المال إلى من لا يليق به أن يكون ميّلا^(٣) حتى إذا وجد من كان لذلك مستحقا مُنحه ووُفر عليه .

فتراه عند هذا الهذر وأشباهه يتلوّى ويتبسّم ، ويطير فرحا ويتقسّم ويقول : ولا كذا^(٤) ؛ ثمرة السبق لهم ، وقصّرنا أن نلحقهم ، أو نقفوا أثرهم ونشقّ غبارهم أو نردّ غمارهم . وهو في كل ذلك يتشاكى ويتحایل ، ويلوى شدقه ، ويتلع ريقه ، ويردّ كالآخذ ، يأخذ كالمتنّع ، ويفضّض في عرض الرضا ، ويرضى في كبوس الغضب ، ويتهاك ويتمالك ، ويتقال^(٥) ويتمايل ؛ ويمحكي المومسات ، ويخرّج في أصحاب الساجات ؛ ومع هذا كله يظنّ أن هذا خافٍ على نُقادِ الأخلاق وجهاذة الأحوال ، والذين قد فرغهم الله لتتبع

(١) خالد بن سنان رووا أنه كان نبيا وكان في زمن الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام وكان بأرض عيسى . ولم نجد فيما بين أيدينا من الكتب من اتبعه ناهن الحيا ، وقد وردت كنيته في معجم الأدباء بأبن الحيا .

(٢) لم ترد هذه الكلمة التي بين مربعين في الأصل ؛ والسياق يقتضيها .

(٣) « ميتا » ؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى . والميل ، ذو المال .

(٤) « ولا كذا » : كلمة ظاهرها الرغبة في الاقتصاد في المدح ، وباطنها الحث على

الإكثار منه .

(٥) « ويتقابل » ، أى تتقابل أجزاؤه بعضها ببعض ، وذلك إذا استوى في مجله ولم

يعل إلى ناحية .

الأمر ، واستخراج مافي الصدور ، وأعتبار الأسباب ؛ وذلك أنه ليس بمجيد العقل ، ولا خالص الحُقمي ؛ وكلّ كدّر بالتركيب فقلما يصفو ، وكل مرّكّب على الكدّر فقلما يعتدل ؛ إلا أن الانحراف متى كان إلى جانب العقل كان أصلح من أن يكون إلى طَرَف الحُقم ؛ والكامل عزيز ، والبريء من الآفات معدوم ؛ إلا أنّ العليل إذا قيّض الله له طبيباً حاذقاً رقيقاً ناصحاً كان إلى العافية أقرب ، وللشفاء أرجى ، ومن العطّب أبعد ، وبالأحتياط أعلّق ، أغنى أنّ العاقل إذا عَرَف من نفسه عيوباً معدودة ، وأخلاقاً مدخولة ، استطبّ لها عقله ، وتطبّب فيها بعقله ، وتولّى تدبيرها برأيه ورأى خلصانه ، فنقّى ما أمكن نقيّه ، وأصلح ما قُبِل إصلاحه ، وقلّل ما أُستطاع تقليله ؛ فقد يمجّد الإنسان الرّمص في عينه فينحّيه ، ويُبتلى بالبرص في بدنه فيخفيه .

وقد أفسده أيضاً ثقة صاحبه^(١) به ، وتعوّيله عليه ، وقلة سماعه من الناصح فيه ؛ فمُذِر^(٢) بازدهاء المال والعلم والأقْتدارِ والأمرِ والكفاية وطاعة الرجال وتصديق الجلّساء والعادة الغالبة ؛ وهو في الأصل محدود^(٣) لا جَرَم ليس يُقِلّه مكانٌ دلالاً وترّفاً ، وعُجْباً وتِيهاً وصلفاً ؛ وأنْدراء^(٤) على الناس ، وأزْدراء للصغار والكبار ، وجَبْها للصادر والوارد ؛ وفي الجملة ، صِغار^(٥) آفاته كبيرة ، وذنوبه جَمّة * ولكنّ الغنى ربّ غفور * قال : ما صدُرُ هذا البيت ؟ فأنشدته الأبيات ، وهي

(١) يريد بصاحبه : الملك الذي استوزره ، وهو مؤيد الدولة أو غير الدولة أخوه فكلّهما قد استوزره .

(٢) « فمُذِر » بالقاف والدال .

(٣) المحدود : المحظوظ .

(٤) الانْدراء : الاندفاع والتهمج .

(٥) « تنار » .

لعروة بن الورد في الجاهلية ، وكان يقال له عروة الصعاليك ، لأنه كان يؤويهم ويحسن إليهم كثيرا :

ذَرِينِي لِلْغَنَى أَسْمَى فَأَنَّى رَأَيْتُ النَّاسَ شَرُّهُمْ الْفَقِيرُ
وَأَبْعَدُهُمْ وَأَهْوَنُهُمْ عَلَيْهِمْ وَإِنْ أُمْسَى لَهُ حَسَبٌ وَخَيْرُ
وَيُقْصِيهِ النَّدَى وَتَزْدَرِيهِ حَلِيلَتُهُ وَبِنَهْرِهِ الصَّغِيرُ
وَتَلْقَى ذَا الْغَنَى وَلَهُ جَلَالٌ يَكَادُ فَوَادُ صَاحِبِهِ يَطِيرُ
قَلِيلٌ ذَنْبُهُ وَالذَّنْبُ جَمٌّ وَلَكِنَّ الْغَنَى رَبٌّ غَفُورُ

فقال : لا شك أن المسودة جامعة لهذا كله . قلت : تلك تجزع ^(١) في دست كاغد فرعوني . فقال : أجد ^(٢) تحريرها ، وعلى بها ، ولك الضمان ألا يراها إنسان ، ولا يدور بذكرها لسان .

قلت : السمع والطاعة . قال : قد تركنا من حديثه ما هو أولى مما مر بنا ؛ كيف بلاغته من بلاغة ابن العميد ؟ وأين طريقته من طريقة ابن يوسف والصابي ؟ قلت : قد سألت جماعة عن هذا ، فأجابني كل واحد بجواب إذا حكيت عنه كان ما يقال فيه الصق ، وكنت من الحكم عليه وله أبعد .

قال : صف هذا ؛ قلت : سألت ابن عبيد الكاتب عن ابن عباد في كتابته فقال : يرتفع عن المتعلمين فيها بدرجة أو بدرجتين . وقال علي بن القاسم : هو مجنون الكلام ، تارة تبدو ^(٣) لك منه بلاغة قس ، وتارة يلقاك بى باقل ؛ تحريف كثير في المعاني ، وإحالة في الوضع ، وغلط في السجع ، وشروء عن الطبع .

(١) تجزع ، أى تمزأ . والدست : أربع وعشرون ورقة ، كما في المعجم الفارسي الإنجليزى لاستاينجاس . والكاغد : الورق ، معرب . وفرعوني ، أى مصرى .
(٢) في الأصل : « أجد » ؛ والميم زيادة من النسخ .
(٣) « كنمو » ؛ وهو تحريف لا معنى له .

وقال ابن المزيان: هو كثير السرقة، سبى الإنفاق، ردى القلب والعكس، فَرُوقَةٌ^(١) في إيراده، هزيمته قبل هُجُومِهِ^(٢). [وإحجامُهُ^(٣)] أظهرُ من إقدامِهِ. وقال الصابي: هو مجتهد غير موفق، وفاضل غير منطِق^(٤) ولو خطا كان أسرع له، كما أنه لما عدا كان أبطأ عليه؛ وطباع^(٥) الجبلي مخالف لطباع العراقي، يثب^(٦) مقاربا فيقع بعيدا، ويتناول صاعدا فيتقاعس قعيدا. وقال علي بن جعفر: مم كانت الطباع^(٧)! هو يكذب نفسه بحسن الظن في البلاغة، وطباعه تصدق عنه بالتخلف، فهو يشين اللفظ ويحيل المعنى، فأما شينه اللفظ فبالجفوة والغلظة والإخلال والفجاجة؛ وأما إحاطته فبالإبعاد عن حومة القصد والإرادة؛ والعجب أنه يحفظ الطم^(٨) والرم^(٩) من النثر والنظم؛ ثم إذا ادعاهما يقع دونهما سقوطا، أو يتجاوزهما فُرُوطا^(٩)؛ هذا مع الكبر المقوت والتشيع الظاهر، والدعوى العارية من البينة العادلة.

وما أحسن ما كتب به أحمد بن إسماعيل بن الخصيب إلى آخر: الكبر (٦) — أعزك الله — معرض يستوى فيه النبىء ذكرا، والخال مل قدرا، ليس

(١) الفروقة: الشدب الفرق بالتحريك، وهو الفزع.

(٢) «مجومه».

(٣) موضع هذه الكلمة في الأصل حروف مطموسة تتعذر قراءتها، والسياق يقتضى ما أثبتنا أو إثبات ما يفيد معناه.

(٤) غير منطوق، أى غير بليغ الطلق.

(٥) الطباع: الطبع، يستعمل مفردا كما هنا وجما.

(٦) «بسته»

(٧) يتعجب بهذه العبارة من أصل الطباع التي تخالف صاحبها فتصدق عنه إذا كذب نفسه، كما يدل على ذلك سياق الكلام الآتى.

(٨) الطم والرم: العدد الكثير. يقال: جاء بالطم والرم. والطم في الأصل: الماء الكثير، أو ما ساقه الماء من غناء. والرم: الترى. والذى في الأصل «الكظم وأكرم» وهو تحريف في كلتا الكلمتين.

(٩) الفروط: التقدم. وفي الأصل: «فروطا» وهو تصحيف.

أمامه حاجب يمنعه ، ولا دونه حاجز يحظره ؛ والناس أشدّ تحفظاً على الرئيس المَحْظُوط ، وأكثر اجْتِلَاءً لأفعاله ، وتتبعاً لمعايبه ، وتصفّحاً لأخلاقه ، وتنقيراً^(١) عن خصاله منهم عن حامل لا يُعَمَّا به ، وساقطٍ لا يُكْتَرَث له ؛ فيسيرُ عيب الجليل^(٢) يقدَح فيه ، وصغير الذنب يكبر منه ، وقليل النِّمَّ يُسرِع إليه ؛ ولابن هندو في هذا المعنى :

العيب في الرجل المذكورِ مذكورٌ والعيب في الخامل المستورِ مستورٌ
كَمُوقَةٍ^(٣) الظُّفْرُ تَخْفَى من مهاتها ومثلها في سواد العين مشهورٌ
وقال الزَّهيري : قد نَجَمَ بأَصْبَهَانِ ابْنُ لَعْبَادٍ في غاية الرقاعة والوقاحة والخلاعة وإن كان له يوم ، فسيشقى به قوم ، سمعته يقول هذا سنة أئنتين وخمسين في مجلس من الفقهاء .

وقال ابن حبيب : قال بعض الحكماء : إن للنفس أمراضاً كأُمراض البدن إلا أن فصل أمراض النفس على أمراض البدن في الشرِّ والضرر كفضل النفس على البدن في الخير ؛ وصاحبنا^(٤) يعنى — ابن عَبَّاد — مريض عندنا ، صحيح عند نفسه ، زَيْفٌ بنقدها ، جيّدٌ بنقده ؛ ولو قامت^(٥) الشُّوق على ساقها ، وتناصَف المتعاملون فيها ، ولم يقع إكراه في أخذٍ ولا إعطاء ، عُرِفَ البَهْرَجُ^(٦) الذي

(١) « وتنكيرا » ؛ بالكاف .

(٢) « الحليل » .

(٣) « فوقة » ، وهو تصحيف . والفوف بهاءين : البياض الذي يكون في الأطفال الواحدة فوقة .

(٤) موضع هذه الكلمة في الأصل حروف مطموسة لم يظهر منها غير الواو والصاد والألف .

(٥) « قالت » ، واللام زيادة من اللاسخ .

(٦) « التهزيج » . والبهرج : الردى .

ضرب خارج الدار^(١) والجيد الذي ضرب داخل الدار .

وقال أحمد بن محمد : إذا أنصفنا ألزمتنا مزية العراقيين علينا بالطبع اللطيف
والعأخذ القريب ، والسجع الملائم ، واللفظ المونق ، والتأليف الحلو ، والشبوبة
الغالبية ، والموالاة المقبولة في السمع^(٢) ، الخالبة^(٣) للقلب^(٤) العابثة بالروح ، الزائدة
في العقل ، المشعلة للقريحة ، الموقوفة^(٥) على فضل الأدب ، الدالة على غزارة
المغترف ، النائية عن عادة كثير من السلف والخلف ؛ وأبن عبّاد يُبلى في هذه الصناعة
بأشياء كلّها عليه لاله ، وخاذلته لا ناصرته ، ومُسلّته لا مُنقذته ؛ فأوّل ما يُبلى به
أنّه فقد الطبع ، وهو^(٦) العمود ؛ والثاني العادة وهي المؤاتية^(٧) ؛ والثالث الشغف
بالجاسي^(٨) من اللفظ وهو الاختيار الردي ؛ والرابع تتبع الوحشي ، وهو الضلال
المبين ؛ والخامس الذهاب مع اللفظ دون المعنى ؛ والسادس استكراه المقصود
من المعنى ، واللفظ على النبوة ؛ والسابع التعاضل^(٩) المجهول بالأعراض ؛ والثامن
إلف الرسوم أفاودة من غير تصفّح ولا فحص ؛ والتاسع قلة الاعتاض^(١٠) بما كان
— للثقة الواقعة في النفس — من الفائت^(١١) ، والعاشر تنفيق المتاع بالأقتدار في

(١) يريد دار الضرب .

(٢) « السبع » .

(٣) في الأصل : « الجالة » بالجيم .

(٤) ورد في الأصل بعد قوله « للقلب » كاف ولام ، ولعلهما زيادة من الناسخ لاستقامة الكلام بدونهما .

(٥) « الموقوفة على فضل الأذن » . وفي هذه العبارة تحريف في كلمتين .

(٦) « وهو » واللام زيادة من الناسخ .

(٧) المؤاتية ، أى المساعدة المعينة .

(٨) الجاسي : الجاف الصلب .

(٩) « التعاضل » بالطاء وهو تصحيف . ويقال : « عاظل الكلام » : إذا عقده ووالى

بعضه فوق بعض . « وعاظل بالكلام » : آتى بالرجيع من القول وكرره .

(١٠) « الاعتاضال » .

(١١) الغائب .

سُوقِ الْعِزِّ، وهذه كلها سبيل الضلالة، وطرق الجهالة . قال : وليس شيء أنفع
للعنشي من سوء الظن بنفسه ، والرجوع إلى غيره وإن كان دونه في الدرجة
وليس في الدنيا محسوب^(١) إلا وهو محتاج إلى تنقيف ، والمستعين^(٢) أحزَمُ من
المستبدِّ ، ومن تفرَّد لم يكمل ، ومن شاور لم ينقص ، وقد يستعجم المعنى كما
يستعجم اللفظ ، ويشرُّد اللفظ كما يندُّ^(٣) المعنى ، وينثر النظم^(٤) كما ينتظم النثر
وينحل العقد كما يعقد المنحل .

والمدار على اجتلاب الحلاوة المذوقة بالطبع ، واجتناب التَّبوَّة الممحوجة
بالسمع ؛ والقريحة الصافية قد تكدُر ، والقريحة الكدرة قد تصفو ، وشرُّ
آفات البلاغة الاستكراه ، وأنصح ناصحها الرضا بالعفو . وقال : كان ابن المقفَّع
يقِفُ قلمه كثيرا ؛ ف قيل له في ذلك ، فقال : إنَّ الكلام يزدهم في صدرى فيقفُ
قلمي لأتخيره .

والكتاب يُتصفح أكثر من تصفُّح الخطاب ، لأن الكاتب مختار
والمخاطب^(٥) مضطرٌّ ؛ ومن يرِدُ عليه كتابك فليس يعلم أسرعَ فيه أم أبطأ
وإنما ينظر أصبت فيه أم أخطأت ، وأحسنَت أم أسأت ؛ فإبطؤك غيرُ إصابتك
كما أنَّ إسرَاعك غيرُ مُعَفٍّ^(٦) على غلطك .

قال : هذا كله مفيد فأين هو من غيره من أصحابنا ؟ قلتُ : في الجملة هو (٥)

(١) محسوب ، أى أحد معدود في الناس .

(٢) في الأصل : « والمستعمل أجزم من المشيكم » ، وفي جميع ألفاظها تحريف لا معنى له .

(٣) « يرد » ، و « ينفد » مكان « يشرد » و « يند » .

(٤) « اللفظ » .

(٥) « المحاكم » .

(٦) « مقف » .

أبلغ من ابن يوسف^(١) ، وأغزر وأحفظ وأرؤى وأجْمُرَ كَيْتة ، وأعذب مؤردا ، وأبعد من التفاوت ؛ وليس ابن يوسف من ابن عبّاد في شيء .

فأما ابن العميد فإني سمعت ابن الجمل يقول : سمعت ابن ثوبة يقول :
أول من أفسد الكلام أبو الفضل ، لأنه تخيل مذهب الجاحظ وظنّ أنه إن تبعه لحقه ، وإن تلاه أدركه ، فوقع بعيدا من الجاحظ ، قريبا من نفسه ؛
ألا يعلم أبو الفضل أنّ مذهب الجاحظ مدبرٌ بأشياء لا تلتقي عند كلِّ إنسان
ولا تجتمع في صدر كلِّ أحد : بالطبع والمنشأ والعلم والأصول والعادة والعمر
والفراغ والعشق^(٢) والمنافسة والبلوغ ؛ وهذه مفايح قلما يملكها واحد ، وسواها^(٣)
مغالق قلما ينفك منها واحد .

وأما أبْنُه ذو الكفّيتين ، فلو عاش كان أبلغ من أبيه ، كما كان أشعر منه ؛
ولقد تشبّه بالجاحظ فأفتضح في مكاتبتة لإخوانه ، ومجانته في كلامه
ومسائله لمعلمه التي دلّتنا على سرقة وغارته^(٤) وسوء تأتية^(٥) ، في تسوّره وتغطّيه ؛
ومن شاء حمق نفسه ؛ وكان مع هذا أشدّ الناس أدعاء لكل غريبة ، وأبعد
الناس من كل قريية ؛ وهو نزّر^(٦) المعاني ، شديد الكلف باللفظ ؛ وكان أحسن

(١) ابن يوسف الذي يريده هو أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف أحد أعيان الكتاب في دولة بني بويه ، تقلد ديوان الرسائل لمضد الدولة طوي أيامه ، وتقلد الوزارة بعده دفعات لأولاده ، وهو الذي دس لابن سعدان عند صبصام الدولة حتى سجنه ثم قتله . وفي الجزء الثاني من البيّمة نماذج من رسائله .

(٢) يريد بالعشق هنا : رغبته وميله إلى ما يزاوله من صناعة الكتابة .

(٣) « ووباها » .

(٤) « وغارفته » .

(٥) « تأليه » .

(٦) « يزور » .

الناس لمن خطَّ بالقلم ، أو بَلَغَ باللسان ، أو فَلَجَ^(١) في المناظرة ، أو [فَكِهَ^(٢)] بالنادرة ، أو أَعْرَبَ في جواب ، أو أُنْصَحَ في خطاب ؛ ولقد لقيَ الناسُ منه الدواهيَ لهذه الأخلاق الخبيثة ؛ وقد ذُكِرَتْ ذلك في الرسالة ، وإذا بُيِّضَتْ وقفتَ^(٣) عليها من أولها إلى آخرها إن شاء الله ؛ وأنصرفتُ .

الليلة الخامسة

(١) قال لي ليلة أخرى : ألا تنتم ما كتبنا به بدأنا . قلت : بلى .

فأما أبو إسحاق^(٤) فإنه أَحَبَّ^(٥) الناس للطريقة المستقيمة ، وأمضاهم على المَحَبَّة الوُسطى ، وإنما يُنْقَم عليه قِلَّةُ نصيبه من النحو ؛ وليس ابنُ عبادٍ في النحو بذلك ؛ ولا كان أيضا ابنُ العميد إلا ضعيفا ؛ وكان يذهب عنه الشيء اليسير . وأبو إسحاق معانيه فلسفية ، وطبائعُه عراقية ، وعادته محمودة ؛ لا يَثْبُ ولا يَرَسُب ، ولا يَكِلُّ ولا يَكْهُمُ^(٦) ، ولا يَلْتَفِت وهو متوجِّه ، ولا يتوجَّه وهو ملتفت . وقال^(٧) لنا : إمامي ابنُ عبد كان^(٨) ، وهو قد أوفى عليه ، وإن كان

(١) فلج : فاز على خصمه وظفر به .

(٢) موضع هذه الكلمة في الأصل حروف مطبوسة تتمذر قراءتها ؛ وما أثبتناه أقرب إلى ما ظهر من حروفها .

(٣) « ووقت » . والواو زيادة من الناسخ .

(٤) يريد بأبي إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي كان كاتب الإنشاء ببغداد عن الخليفة وعن عز الدولة البويهى ، وتقلد ديوان الرسائل سنة ٣٤٩ وطمع عليه عضد الدولة مكاتبات صدرت منه ، فلما ملك عضد الدولة أراد قتله فنشعوا فيه فأطلقه ، وألف له كتاب « التاجى » في أخبار بني بويه ، وأريد على الإسلام فأبى وظل على دين الصابئة إلى أن مات سنة ٣٨٤ كما روى ابن خلكان . وقال ابن النديم إنه مات قبل سنة ٣٨٠ .

(٥) « جم » وسياق العبارة الآتية بعد يقتضى ما أثبتنا .

(٦) يكهم : يضعف .

(٧) وقال ، أى أبو إسحاق الصابي .

(٨) « ابن عبد كان » هو محمد بن عبد كان ، كان كاتباً للدولة الطولونية ، وكان بليغا مترسلا فصيحاً ، وله ديوان رسائل .

أَحْتَدَى عَلَى مِثَالِهِ ؛ وَفَنُونُهُ أَكْثَرُ ، وَمَاخَذُهُ أَخْفَى ، وَخَاطِرُهُ أَوْقَدَ ، وَنَظَرُهُ أَقْدَمَ ، وَرَوْضُهُ أَنْضَرُ ، وَسِرَاجُهُ أَزْهَرُ ، وَيزِيدُ عَلَى كُلِّ مَنْ تَقَدَّمَ بِالْكِتَابِ « التَّاجِي » ، فَإِنَّهُ أَبَانَ عَنْ أُمُورٍ وَكَتَبَ فِي مَوَاضِعَ ، وَشَنَّ الْغَارَةَ فِي الصَّبْحِ الْمُنِيرِ مَعَ الرَّعِيلِ الْأَوَّلِ ، وَدَلَّ عَلَى التَّفَلُّسِ ، وَعَلَى الْأُطْلَاعِ عَلَى حَقَائِقِ السِّيَاسَةِ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُ غَيْرُهُ ^(١) لَكَانَ بِهِ أَعْرَقَ النَّاسَ فِي الْخُطَابَةِ ، وَأَعْرَقَ الْكِتَابَ فِي الْكِتَابَةِ ، هَذَا وَنَظْمُهُ مَشْهُورُهُ ، وَمَنْشُورُهُ مَنْظُومُهُ ؛ إِنَّمَا هُوَ ذَهَبٌ يُرِيزُ كَيْفَمَا سُبِكُ فَهُوَ وَاحِدٌ ، وَإِنَّمَا يَخْتَلِفُ بِمَا يُصَاحُ مِنْهُ وَيَشْكُلُ عَلَيْهِ ؛ هَذَا مَعَ الظَّرْفِ النَّاصِعِ وَالتَّوَاضُعِ الْحَسَنِ ، وَاللَّهْجَةِ اللَّطِيفَةِ ، وَالخُلُقِ الدَّامِثِ ، وَالْمَعْرِفَةِ بِالزَّمَانِ ، وَالْخَبَرَةِ بِأَصْنَافِ النَّاسِ ؛ وَلَهُ فَنُونٌ مِنَ الْكَلَامِ مَا سَبَقَهُ إِلَيْهَا أَحَدٌ ، وَمَا مِثْلُهُ فِيهَا إِنْسَانٌ . وَابْنِي لِأَرْحَمِ مَنْ لَا يَسْلَمُ لَهُ هَذَا الْوَصْفُ ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا أَنْ يَكُونَ جَاهِلًا ، وَإِنَّمَا عَلِمًا فَإِنْ كَانَ جَاهِلًا فَهُوَ مُعْذُورٌ ، وَإِنْ كَانَ عَلِمًا فَهُوَ مُكَلِّمٌ ، لِأَنَّهُ يَدُلُّ مِنْ نَفْسِهِ — بِدَافِعٍ مَا يَعْلَمُهُ — عَلَى حَسَدِهِ ، وَالْحَاسِدِ مَهِينٌ .

(٢)

قَالَ : هَلْ كَانَ فِي زَمَانٍ هَؤُلَاءِ مَنْ يُلْحَقُ بِهِمْ ، وَيَدْخُلُ فِي زُمْرَتِهِمْ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، أَبُو طَالِبِ الْجَرَّاحِي مِنْ آلِ عَلِيِّ بْنِ عِيسَى كَتَبَ لِلْعَرُزْبَانَ مَلِكِ الدِّيَلَمِ بَعْدَ مَا انْتَجَعَ فَنَاءَ ابْنِ الْعَمِيدِ أَبِي الْفَضْلِ ، فَحَسَدَهُ وَطَرَدَهُ ، وَعَصَبٌ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى نَاجِيهِ نَدَمًا عَلَى سُوءِ فِعْلِهِ ، وَلَقِيَ مِنْهُ ابْنُ أَبِي طَالِبِ الْأَمْرَيْنِ ؛ وَرَسَائِلُهُ مَبْثُوثَةٌ . وَأَبُو الْحَسَنِ الْفَلَاسْكِي ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ ، وَوَقَعَ إِلَى الْمَرَاغَةِ وَنَوَاحِيهَا وَهُوَ حَسَنُ الدِّيَابِجَةِ ، رَقِيقُ حَوَاشِي الْلَفْظِ ؛ وَهُوَ أَحَدُهُمْ ^(٢) غَرَبًا ، وَأَغْزَرُهُمْ سَكَبًا ^(٣) ، وَأَبْسَدُهُمْ مَنَاحَا ^(٤) وَأَعْدَبُهُمْ نُقَاحَا ^(٥) ، وَأَعْطَفَهُمْ لِلأَوَّلِ عَلَى

(١) « خَيْرُهُ » .

(٢) « وَأَجْدَمُ قَرِيبًا » بِالْجِيمِ فِي الْأَوَّلِ وَالْقَافِ فِي الثَّانِي .

(٣) « وَأَعْرَضَهُمْ سَكَبًا » .

(٤) « تَنَاحًا » بِالتَّاءِ .

(٥) « نَقَاحًا » بِالْفَاءِ ؛ وَهُوَ تَصْحِيفٌ . وَالنَّقَاحُ : الْمَاءُ الْبَارِدُ الْعَذْبُ الصَّافِي .

الآخر وأنشرهم للباطن من الظاهر . وقرأت له :

« فإن رأى أن ينظر نَظَرَ راحم متعطف ، إلى نادم متلهف ؛ ويجمل المغفر عن فرطته وكفرانه ، صدقةً عن بسطته وسلطانه ؛ فأجدرُ الناس بالاعتذار أقدرهم على الانتصار ؛ فعَلَّ — إن شاء الله تعالى — » .

وله مكاتبات واسعة بينه وبين رجل من أهل المراغة يقال له : محمد بن إبراهيم ، من أهل (سُرَّ مَنْ رَأَى) وفي الجملة ، الفضل في الناس مبثوث ، وممنه على جِدود^(١) ؛ والمرذول هو العارى من كبوسه ، المتردد بين تحلفه ونقصه .

قال^(٢) : فكيف يتم له ما هو فيه مع هذه الصفات التي تذكرها ؟ قلتُ : والله لو أن عجوزاً سبلها ، أو أمةً وزها^(٣) أقيمت مقامه ، لكانت الأمور على هذا السياق . قال : وكيف ذاك ؟ قلتُ : قد أُمِن أن يقال له : لِمَ فعلت ، ولم لَمْ تفعل ؟ وهذا باب لا يتفق لأحدٍ من خدام الملوك إلا بجِدِّ سعيد ، ولقد نُصحَ صاحبه الهَرَوِيُّ في أموال تاوية^(٤) ، وأمورٍ من النظر عارية ؛ فقَذَفَ بالرقعة إليه حتى عَرَفَ ما فيها ، ثم قتل الراقع خنقاً . هذا وهو يدين بالوعيد ، وله نظائر ، ولنظائره نظائر ، ولكن ليس له ناظر ، ولا فيه مُناظر . وقال لى الثقة من أصحابه : ربّما شَرَعَ في أمرٍ يُحْكَم فيه بالخطأ فيقلبه جَدُّه صواباً ، حتى كأنّه عن وحى ؛ وأسرار الله في خلقه عند الارتفاع والأخطاط خفيةٌ في أستار الغيب ، لا يهتدى إليها ملكٌ مقرب ، ولا نبيٌّ مرسل ، ولا وليٌّ مهذب ؛ ولو جرت الأمور على موضوع

(١) الجِدود : الحظوظ ، الواحد جد بالفتح .

(٢) قال ، أى الوزير ، والضير في « له » يعود على ابن عباد .

(٣) الورهاء : الحفء .

(٤) تاوية ، أى هالكة .

الرأى وقضية العقل ، لكان معلماً في مصطبة على شارع ، أو في دار ؛ فإنه يخرج الإنسان بتفهمه وتشاؤقه ، وأستحقاره وأستكباره ، وإعادته وإبدائه ، وهذه أشكال تُعجب الصبيان ولا تنفرهم من المعلمين ، ويكون فرحهم بها سببا للملازمة والحرص على التعلم والحفظ والرواية والدراسة .

- (٤) قال : هذا قدرٌ كافٍ إلى أن تبيّض الرسالة ؛ هات مُلحةً الوداع . قلتُ : قال أبو العيناء : قال أبو دعلج : قال المهديّ : بايع ؛ قلتُ : أبايكم [علام ؟ قال ^(١)] : على ما بويع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم صفين . قال كريز أبو سيار المسمى : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يدرك صفين ، إنما كانت صفين بين عليّ ومعاوية . فقال دوست بن رباط الفقيميّ أبو شعيب : قد علم الأميرُ هذا ، ولكن أحبّ التسهيل على الناس ، وأنصرفتُ .

الليلة السادسة

- (١) ثم حضرته ليلةٌ أخرى فأول ما فاتح به المجلس أن قال : أتفضل العرب على العجم أم العجم على العرب ؟

قلتُ : الأُم عند العلماء أربع : الروم ، والعرب ، وفارس ، والهند ؛ وثلاث من هؤلاء عجم ، وصَغَبُ أن يقال : العرب وحدها أفضلُ من هؤلاء الثلاثة ، مع جوامع ما لها ، وتفاريق ما عندها . قال : إنما أريد بهذا الفُرس . فقلتُ : قبل أن أحكم بشيء من تلقاء نفسي ، أروى كلاماً لأبن المقفع ، وهو أصيلٌ في الفُرس عريق في العجم ، مفضلٌ بين أهل الفضل ؛ وهو صاحب (اليتيمة) القائل :

(١) ما بين المربعين لم يرد بالأصل ؛ والسياق يقتضيه .

تركت أصحاب الرسائل بعد هذا الكتاب في ضحاح من الكلام . قال : هات على بركة الله وعونه . قلت : قال شبيب بن شبة : إنا لوقوف في عرصة البرد — وهو موقف الأشراف ومجتمع الناس وقد حضر أعيان مصر — إذ طلع ابن المقفع ، فما فينا أحد إلا هس له ، وأرتاح إلى مساءلته ، وسررنا بطلعته ؛ فقال : ما يقفكم على متون دوابكم في هذا الموضع ؟ فوالله لو بعث الخليفة إلى أهل الأرض يبتغي مثلكم ما أصاب أحدا سواكم ، فهل لكم في دار ابن برثن في ظلٍ ممدود ، وواقية من الشمس ، واستقبال من الشمال ، وترويح للدواب والغلمان ، وتمتد الأرض فانها خير بساط وأوطؤ ، ويسمع بعضنا من بعض فهو أمد للمجلس ، وأدّر للحديث] فسارعنا إلى ذلك ، ونزلنا عن دوابنا في دار ابن برثن تنسم الشمال ، إذ أقبل علينا ابن المقفع فقال : أي الأُم أعقل ؟ فظننا أنه يريد الفرس ، فقلنا : فارسُ أعقل الأُم ، نقصد مقاربتة ، ونتوخي مصانعتة . فقال : كلا ، ليس ذلك لها ولا فيها ، هم قوم علّوا فتعلّوا ، ومثّل لهم فامتثلوا وأقتدوا^(١) وبُذئوا بأمر فصاروا إلى أتباعه ، ليس لهم استنباط ولا استخراج . فقلنا له : الزّوم . فقال : ليس ذلك عندها ، بل لهم أبدان وثيقة وهم أصحاب بناء^(٢) وهندسة ، لا يعرفون سواها ، ولا يحسنون غيرها .

قلنا : فالصّين . قال : أصحاب أثاث وصنعة ، لا فكر لها ولا روية . قلنا : فالترّك . قال : سباع للهراش . قلنا : فالهند . قال : أصحاب وهم ومخرقة^(٣) وشعبذة وحيلة . قلنا : فالزّنج . قال : بهائم هاملة^(٤) . فرددنا الأمر إليه . قال : العرب .

(١) « وامتدوا » .

(٢) « بقاء » ، وهو تحريف .

(٣) في الأصل : « الحرق » . والشعبذة والشعوذة : واحد ، وهي أخذ كالسحر ترى الميء بغير ما عليه أصله في رأى العين .

(٤) هاملة ، أي مهيلة . وفي الأصل : « هائلة » .

فَتَلَحَّظْنَا وَهَمَّسَ بَعْضُنَا إِلَى بَعْضٍ ، فَعَاظَهُ ذَلِكَ مِنَّا ، وَامْتَنَعَ لَوْنُهُ ، ثُمَّ قَالَ :
 كَأَنَّكُمْ تَظُنُّونَ فِيَّ مَقَارِبَتَكُمْ ، فَوَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ لَكُمْ وَلَا فِيكُمْ
 وَلَكِنْ كَرِهْتُ [إِنْ] فَاتَنِي الْأَمْرُ أَنْ يَفُوتَنِي الصَّوَابُ ، وَلَكِنْ [لَا^(١)] أَدْعُكُمْ
 حَتَّى أَبَيِّنَ لَكُمْ لِمَ قُلْتُ ذَلِكَ ، لِأَخْرِجَ مِنْ ظِلَّةِ الْمُدَارَةِ ، وَتَوْهَمِ الْمَصَانَعَةِ ؛ إِنْ
 الْعَرَبُ لَيْسَ لَهَا أَوَّلُ تَوْهَمَةٍ^(٢) وَلَا كِتَابٌ يَدُلُّهَا ، أَهْلُ بَلَدٍ قَفَرٌ ، وَوَحْشَةٌ مِنَ
 الْإِنْسِ ، أَحْتَاجُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي وَحْدَتِهِ إِلَى فِكْرِهِ وَنَظَرِهِ وَعَقْلِهِ ؛ وَعِلْمُوا
 أَنَّ مَعَاشَهُمْ مِنْ نَبَاتِ الْأَرْضِ فَوَسَّمُوا كُلَّ شَيْءٍ بِسِمَتِهِ ، وَنَسَبُوهُ إِلَى جِنْسِهِ
 وَعَرَفُوا مَصْلَحَةَ ذَلِكَ فِي رَطْبِهِ وَيَابِسِهِ ، وَأَوْقَاتِهِ وَأَزْمِنَتِهِ ، وَمَا يَصْلُحُ مِنْهُ فِي الشَّاةِ
 وَالْبَعِيرِ ؛ ثُمَّ نَظَرُوا إِلَى الزَّمَانِ وَأَخْتَلَفَ فَعَلُوهُ رَبِيعِيًا وَصَيْفِيًا ، وَقِيْظِيًا وَشَتَوِيًا ؛
 ثُمَّ عَلِمُوا أَنَّ شَرِبَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ ، فَوَضَعُوا لَذَلِكَ الْأَنْوَاءَ ؛ وَعَرَفُوا تَغْيِيرَ الزَّمَانِ
 فَعَلُوا لَهُ مَنَازِلَهُ مِنَ السَّنَةِ ؛ وَاحْتَاجُوا إِلَى الْإِنْتِشَارِ فِي الْأَرْضِ ، فَجَعَلُوا نَجْمِ
 السَّمَاءِ أَدَلَّةً عَلَى أَطْرَافِ الْأَرْضِ وَأَقْطَارِهَا ، فَسَلَكَوا بِهَا الْبِلَادَ ؛ وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ
 شَيْئًا يَتَّبِعُونَ بِهِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيَرْغَبُونَ فِي الْجَمِيلِ ، وَيَتَجَنَّبُونَ بِهِ عَلَى الذَّنَاءَةِ
 وَيَحْضَرُّهُمْ عَلَى الْمَكَارِمِ ؛ حَتَّى إِذَا رَجَلَ مِنْهُمْ وَهُوَ فِي فَتْحٍ مِنَ الْأَرْضِ يَصِفُ
 الْمَكَارِمَ فَمَا يُبْقِي مِنْ نَعْتِهَا شَيْئًا ، وَيُسْرِفُ فِي ذَمِّ الْمَسَاوِي فَلَا يَقْصُرُ ؛ لَيْسَ
 لَهُمْ كَلَامٌ إِلَّا وَهُمْ يُحَاضِرُونَ بِهِ عَلَى أَصْطِنَاعِ الْمَعْرُوفِ ثُمَّ حِفْظِ الْجَارِ وَبَذْلِ الْمَالِ
 وَأَبْنَاءِ الْمُحَامِدِ ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَصِيبُ ذَلِكَ بِعَقْلِهِ ، وَيَسْتَخْرِجُهُ بِفُطْنَتِهِ وَفِكْرَتِهِ
 فَلَا يَتَعَلَّمُونَ وَلَا يَتَأَدَّبُونَ ، بَلْ نَحَازِرُ^(٣) مُؤَدَّبَةً ، وَعُقُولٌ عَارِفَةٌ ؛ فَلِذَلِكَ قُلْتُ لَكُمْ :

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ، والسياق يقتضيها .

(٢) « كوكبه » ، وهو تحريف لا معنى له . وتَوْهَمُهُ ، أى تتوخاه وتقصد .

وتبسم ما يسنه لها .

(٣) النعائر : العادات والطبائع ، الواحدة نخيزة . وفي الأصل : « كجائر » وهو تحريف .

إنهم أعقل الأمم ، لصحة الفطرة^(١) وأعتدال البنية وصواب الفكر وذكاء الفهم .
هذا آخر الحديث .

قال^(٢) : ما أحسن ما قال ابن المقفع ! وما أحسن ما قصصته وما أتيت به !
هات الآن ما عندك من مسموع ومستنبط .

فقلتُ : إن كان ما قال هذا الرجل البارِعُ في أدبه المقدّم بعقله كافياً^(٣)
فالزيادة عليه فضلٌ مستغنى عنه ، وإعقابه بما هو مثله لا فائدة فيه .

فقال : حدّ^(٤) الوصف في التزيين والتقبّيح مختلف الدلائل على ما يُعتقَد
صوابه وخطؤه ، متباين ؛ وهذه مسألة — أعنى تفضيل أمة على أمة — من أهات
ما تدارأ الناس عليه وتدافعوا فيه ؛ ولم يرجعوا منذ تناقلوا الكلام في هذا الباب
إلى صلح متين وأتفاق ظاهر . فقلتُ : بالواجب ما وقع هذا ، فإن الفارسي ليس
في فطرته ولا عادته ولا منشئه أن يعترف بفضل العربي ، ولا في جبلة^(٥) العربي
ودينه أن يقرّ بفضل الفارسي . وكذلك الهندي والرومي والتركي والديلمي ؛
وبعد ، فأعتبر الفضل والشرف موقوف على شيئين : أحدهما ما خص به قوم
دون قوم في أيام النشأة بالأختيار للجد والردى ، والرأى الصائب والفائل ، والنظر
في الأوّل والآخِر . وإذا وقف الأمرُ على هذا فلكلّ أمة فضائل ورذائل
ولكلّ قوم محاسن ومساوٍ ، ولكلّ طائفة من الناس في صناعتها وحلّها وعقدها
كمال وتقدير ؛ وهذا يَقْضِي بأنّ الخيرات والفضائل والشُرور والنقائص مُفاضة
على جميع الخلق ، مفوضةٌ بين كلّهم .

(١) في الأصل : « الفكرة » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يدل عليه تعبيره
الآتي في صفحة ٧٦ سطر ١٥ .

(٢) قال ، أي الوزير .

(٣) « ما حد » و « ما » زيادة من الناسخ ، فان سياق الكلام الآتي بعد لا يقتضى الاستفهام .

(٤) « حيلة » .

فللفُرُس السياسة والآداب والحدود والرسوم ؛ وللرُّوم العلم والحكمة ؛ وللهند الفكر والروية والخفة^(١) والسَّحَر والأناة ؛ وللتُّرك الشجاعة والإقدام ؛ وللزَّنج الصبر والكدة والفرح ؛ وللعرب النَّجدة والقِرَى والوفاء والبلاء والجود والذَّمَام والخطابة والبيان .

ثم إنَّ هذه الفضائل المذكورة ، في هذه الأمم المشهورة ، ليست لكلِّ واحد من أفرادها ، بل هي الشائعة بينها ؛ ثم في جملتها^(٢) مَنْ هو عارٍ من جميعها ، وموسوم بأضدادها ، يعنى أنه لا تخلو الفُرُس من جاهل بالسياسة ، خالٍ من الأدب ، داخلٍ في الرَّاع والهمَّج ؛ وكذلك العرب لا تخلو من جَبَانٍ جاهلٍ طَيَّاشٍ بخيلٍ عبيٍّ^(٣) وكذلك الهند والرُّوم وغيرُهم ؛ فعلى هذا إذا قوبل أهلُ الفضل والكمال من الرُّوم بأهل الفضل والكمال من الفُرُس ، تلاقوا على صراطٍ مستقيم ، ولم يكن بينهم تفاوتٌ إلَّا في مقادير الفضل وحدودِ الكمال ، وتلك لا تخصُّ^(٤) بل تُلَمُّ . وكذلك إذا قوبل أهلُ النقص والذيلة من أمة بأهل النقص والחסاسة من أمة أخرى ، تلاقوا على نهجٍ واحد ، ولم يقع بينهم [تفاوتٌ]^(٥) إلَّا في الأقدار والحدود ؛ وتلك لا يُلْتَفَت إليها ، ولا يعارُ^(٦) عليها ؛ فقد بان بهذا الكشف أنَّ الأمم كلها تقاسمت الفضائل والنقائص بأضطرارِ الفِطْرة ، وأختيارِ الفكرة . ولم يكن بعد ذلك إلَّا ما يتنازعه الناس بينهم بالنسبة الترابية ، والعادة المنشئية

(١) في الأصل : « المقة » ، ولم نجد من معانيها ما يناسب السياق . ولعل صوابه ما أثبتنا . ويريد بالخفة : الشموذة ، فإنها خفة في اليد . وقد سبق وصف الهنود بذلك .

(٢) « أجلبتها » .

(٣) « غبي » .

(٤) في الأصل : « يحصل بل تسلّم » ومعنى الكلمتين لا يناسب السياق . ويريد أنها

لا تخص أمة دون أمة ، بل تجمع الأمم كلها .

(٥) موضع هذه الكلمة حروف مطموسة في الأصل تتعذر قراءتها .

(٦) يعار : يعاب .

والهوى الغالب من النفس الغضبية ، والنزاع الهاج من القوة الشهوية .
وها هنا شيء آخر ، وهو أصل كبير لا يجوز أن يخلو كلامنا من الدلالة عليه
والإيماء إليه .

[وهو أن^(١)] كل أمة لها زمان على ضدها^(٢) ، وهذا بين مكشوف إذا
أرسلت وهمك في دولة يونان والإسكندر ، لَمَّا غَلَبَ وساس ومَلَك ورأس وفتق
ورَتَق ورَسَم ودَبَّر وأمر ، وَحَثَّ وزجر ، ومحا وسطَّر ، وفعل وأخبر ؛ وكذلك
إذا عطفنا إلى حديث كسرى أنو شروان وجدت هذه الأحوال بأعيانها ، وإن
كانت في غُلف غير غُلف الأول ، ومعارض غير معارض المتقدم ؛ ولهذا قال
أبو مسلم صاحب الدولة حين قيل له : أى الناس وجدتهم أشجع ؟ فقال : كل
قوم في إقبال دولتهم شجعان . وقد صدق ؛ وعلى هذا كل أمة في مبدأ سعادتها
أفضل وأنجد وأشجع وأمجد وأسخى وأجود وأخطب وأنطق وأزأى وأصدق ؛
وهذا الاعتبار ينساق من شيء عام لجميع الأمم ، إلى شيء شامل لأمة أمة
إلى شيء حار لطائفة طائفة ، إلى شيء غالب على قبيلة قبيلة ، إلى شيء معتاد
في بيت بيت ، إلى شيء خاص بشخص شخص وإنسان إنسان ؛ وهذا التحول
من أمة إلى أمة ، يشير^(٣) إلى فيض جود الله تعالى على^(٤) جميع بريته وخليقته
بحسب أستجابتهم لقبوله ، واستعدادهم على تناول الدهر في نيل ذلك من فضله
ومن رَقَى إلى هذه الرَبُوة بعين لا قَدَى بها ، أبصر الحق عيانا بلا مَرِيّة ، وأخبر

(١) هذه التكملة التي بين مربعين لم ترد في الأصل ؛ والسياق يقتضيها .

(٢) ضدها ، أى لها زمان تكون لها فيه الدولة والغلبة على عدوها . وفي الأصل :
« ضد هذا » وقوله : « ذا » زيادة من الناسخ كما يدل عليه سياق الكلام الآتي .

(٣) « وهو يشير » . والظاهر أن قوله « وهو » زيادة من الناسخ .

(٤) « إلى » .

عنه بلا [فرية^(١)] ؛ ومتى صدق نظرك في مبادئ الأحوال وأوائل الأمور
 وضع لك هذا كله كالنهار إذا مَتَعَ^(٢) ، وأستنار كالقمر إذا طلع ؛ ولم يبق
 حينئذ ريب في عرفان الحق وحصول الصواب ، إلا ما يَلْتَنِثُ بالهوى ، وَيَسْمُجُ
 بالتعصب ، وَيَجْلِبُ اللجاج ، ويخرج إلى المَحْكِ^(٣) ؛ فهناك يطيحُ^(٤) المعنى
 ويضلُّ المراد ، فإذا آثرت أن تعرف صحة هذا الحكم وصواب هذا الرأي ،
 فاسمع ما أرويه : قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي : انصرف العباس بن مرداس
 السلمى من مكة فقال : « يا بنى سليم ، إني رأيت أمرا ، وسيكون خيرا ، رأيتُ
 بنى عبد المطلب كأن قُدُودَهُم الرِّمَاحُ الرُّدَيْنِيَّةُ^(٥) ، وكأن وجوههم بدورُ الدُّجَنَّةِ
 وكأن عمامتهم فوق الرجال أَلْوِيَّةُ ، وكأنَّ مَنْطَقَهُم مَطَرُ الوَبْلِ على المَحَلِّ ؛
 وإن الله إذا أراد أن يثمر^(٦) غَرْسَ له غَرْسًا ، وإنَّ أولئك غَرْسُ الله ؛ فترقبوا ثمرته
 وَتَوَكَّفُوا^(٧) غَيْثَهُ ، وَتَفَيَّئُوا ظِلَالَهُ ، واستبشروا بنعمة الله عليكم به . ولقد قرع
 العباس بهذا الكلام باب الغيب ، وشعر بالمستور ، وأحسَّ بالخافي ، وأطلع عقله
 على المستتر ، وأهتدى بلطف هاجسه إلى الأمر المزمع ، والحادث المتوقع ؛ وهذا
 شيء فاش في العرب ، لطول وخذتها ، وصفاء فكرتها ، وجودة بنياتها
 واعتدال هيئتها ، وحمّة فطرتها ، وخلاء ذرعها ، وأتقاد طبعها ، وسعة لغتها
 وتصاريف كلامها في أسمائها وأفعالها وحروفها ، وجولانها في اشتقاقاتها ، وما أخذ
 (١) ها كلمة مطبوسة الحروف في الأصل تتعذر قراءتها . واستقامة الكلام تقتضى
 ما أثبتنا أو ما يفيد هذا المعنى .

(٢) متع النهار : ارتفع وبلغ عاية ارتفاعه قبل الزوال .

(٣) المحك : المازعة والتماذى في اللجاج .

(٤) « يطيح » .

(٥) الرماح الردينية : نسبة الى ردينة ، وهى امرأة من العرب كانت تقوم الرماح .

(٦) « أثمر » .

(٧) الحرفان الأولان من هذه الكلمة في الأصل مطموسان تتعذر قراءتهما ؛ وسيا

الكلام يقتضى ما أثبتنا . ومعنى « توكفوا غيظه » ارتقبوه وانتظروه .

البديعة في أستعاراتها ، وغرائب تصرّفها في اختصاراتها ، ولطف كنياتها في مقابلة تصرّيحاتها ، وفنون تبجّجها^(١) في أكناف مقاصدها ، وعجيب مقاربتها^(٢) في حركات لفظها ؛ وهذا وأضعافه مسلم لهم ، وموفرّ عليهم ، ومعروف فيهم ومنسوب إليهم ، مع الشجاعة والنّجدة والذّمّام^(٣) والضّيافة والفطنة والخطابة والحميّة والأنفة والحفاظ والوفاء ، والبذل والسّخاء ، والتّهالك في حب الثناء والنّكل^(٤) الشديد عن الذم والهجاء ؛ إلى غير ذلك ممّا خُصّت به في جاهليّتها قبل الإسلام ، ممّا لا سبيل إلى دفعه وجحوده ، والبُهت فيه ، والمكابرة عليه ؛ وقد سمعنا لغات كثيرة — وإن لم نستوعبها — من جميع الأمم ، كلغة أصحابنا المعجم والروم والهند والترك وخوارزم وصقّلاب وأندلس والزّنج ، فما وجدنا شيء من هذه اللغات نصوع^(٥) العربيّة ، أعنى الفرّج التي في كلماتها ، والقضاء الذي نجده بين حروفها ، والمسافة التي بين مخارجها ، والمعادلة التي ندوقها في أمثلتها ، والمساواة التي لا تُجحد في أبيّتها ؛ وإذا شئت أن تعرف حقيقة هذا القول ، وصحة هذا الحكم ، فألحظ عرض^(٦) اللغات الذي هو بين أشدها تلابسا وتداخلا ، وترادفا وتعاضلا^(٧) وتعسّرا وتعوّضا^(٨) ، وإلى ما بعدها ممّا هو أسلس حروفا ، وأرقّ

(١) تبججها ، أى اتساعها .

(٢) « مقاربتها » .

(٣) « والتمام » .

(٤) السّكل بالتحريك : لغة في النّكول ، أى السّكوس عن الشيء والتّنعى عنه .

(٥) وردت هذه الكلمة في الأصل مطموسة الحرفين الأولين ، ولم يظهر منها غير الواو والعين .

(٦) « عرض » .

(٧) تعاطل الكلام : تراكمه وتوالى بعضه فوق بعض . وكان زهير لا يعاقل بين الكلام

أى لا يكرره .

(٨) في الأصل : « وتعوضا » بالالف والصاد ؛ ولم نجد من معانى التقوض ما يناسب

السياق ، ولعل صوابه ما أثبتنا كما يدل عليه عطفه على التعسر ، إذ مؤدى الكلمتين واحد .

لفظا ، وأخفُ أسما ؛ وأطفُ أوزانا^(١) ، وأحضرَ عيانا ؛ وأحلى مخرجا
وأحلى منهجا^(٢) وأعلى^(٣) مدرجا ؛ وأعدلُ عدلا ، وأوضحُ فضلا ، وأصحُ وصلا
إلى أن تنزل^(٤) إلى لغة بعد لغة ، ثم تنتهى إلى العربية ، فإنَّك تحكم بأن المبدأ
الذى أشرنا إليه فى العوائص والأغراض ، سرى^(٥) قليلا قليلا حتى وقف على
العربية فى الإفصاح والإيماض .

وهذا شئٌ يجده^(٦) كلٌّ من كان صحيحَ البنية ، بريثا من الآفة ، متنزها
عن الهوى والعصبية ، محبا للإنصاف فى الخصومة^(٧) ، متحرِّيا للحقِّ فى
الحكومة ، غير مسترقِّ^(٨) بالتقليد ، ولا مخدوع بالإلاف ، ولا مسخر^(٩)
بالعادة ، وإتّى لأعجب كثيرا ممن يرجع إلى فضل واسع ، وعلم جامع ؛ وعقل
سديد ، وأدب كثير ، إذا أبى هذا الذى وصفته ، وأنكر ما ذكرته ؛ وأعجب
أيضا فضلَ عجب من الجيَّهانيِّ^(١٠) فى كتابه وهو يسبِّ العرب ، ويتناول

(٣)

(١) « أوراقا » .

(٢) فى الأصل : « وأخطر » ومعناه لا يناسب السياق . ويريد بقوله : أحضر عيانا :
أنها شديدة الظهور .

(٣) « متهجم » .

(٤) « وللا » .

(٥) « تترك » .

(٦) « سترى » ؛ والفاء زيادة من الناسخ .

(٧) لم يظهر من هذه الكلمة فى الأصل غير الدال والماء . وسياق الكلام يقتضى
إثباتها على هذا الوجه .

(٨) « المخصوصية » .

(٩) فى الأصل : « مستفرا » . ولعل صوابه ما أثبتنا .

(١٠) « مستخرنا » .

(١١) الجيَّهاني : نسبة إلى جيَّهان مدينة بخراسان . وقد شهر بهذه النسبة اثنان : أحدهما
أبو عبد الله أحمد بن محمد بن نصر وزير السامانية ببخارى ، كان أدبيا فاضلا له من الكتب كتاب
آيين نامه وكتب أخرى ؛ وجيَّهاني آخر اسمه محمد بن أحمد كان كذلك وزيرا للسامانيين . =

أعراضها ويحطّ من أقدارها ، ويقول : يأكلون اليرابيع والضّباب والجُرذان والحَيَّات ويتعاورون ^(١) ويتساورون ، وَيَتَهَاوُونَ ويتفاحشون ، وكأَنَّهُمْ قد سُلِّخُوا من فضائل البَشَر ، ولبسوا أَهْبَ الخنازير . قال : ولهذا كان كسرى يسمّى ملك العرب : « سَكَّانَ شاه » ، أى ملك الكلاب . قال : وهذا ^(٢) لشدة شبههم بالكلاب وجرائها ، والذئاب وأطلائها ^(٣) وكلاما كثيرا من هذا الصّوب أرفع قدره عن مثله ، وإن كان يضع من نفسه بفضل قوله . أترأه لا يعلم لو نزل ^(٤) ذلك القفر وتلك الجزيرة وذلك المكان الخاوى وتلك الغيافي والعمامى ، كلُّ كسرى كان فى الفُرس ، وكلُّ قيصر كان فى الروم ، وكلُّ بلهور ^(٥) كان بالهند ، وكلُّ يقفور كان بخراسان ، وكلُّ خاقان كان بالترك وكلُّ أخشاد ^(٦) كان بفرغانة وكلُّ صَبْهِيذ ^(٧) كان من أسكنان ^(٨) وأردوان

== قال فيه ياقوت : كان أدبيا فاضلا شهما جسورا . وقد ترجم لكليهما ياقوت . وقال ابن النديم فى الأخير : إنه من رؤساء المتكلمين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الزندقة ويعصفون بنصرة الأئمنية . والظاهر أن الأخير هو المراد هنا .

(١) يتعاورون ، أى يذكر بعضهم عورة بعض .

(٢) « ولهذا » ؛ واللام زيادة من الناسخ .

(٣) أطلاؤها : أولادها .

(٤) فى الأصل : « كوثر » وبعد الراء حرف مطموس يشبه أن يكون « لاما » .

(٥) بلهور : لقب لكل عظيم من ملوك الهند ، مثل به سيبويه فى كتابه ، وفسره السيرافى .

(٦) أخشاد وأخشيد لقب كان للملك فرغانة ، ولهذا لقب الرضى بالله الباسى محمد بن طنج صاحب مصر والشام بالأخشيد ، لأنه كان فرغانيا . وفرغانة مدينة وكورة واسعة وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان .

(٧) فى الأصل : « شبه » بالشين ؛ وفيه تحريف وتقص حرفين إذ لم نجده بالمعنى المناسب فيما راجعنا من معجمات اللغتين العربية والفارسية ، ولعل صوابه ما أثبتنا ، فقد ورد فى شفاء الغليل أن صبهذ معناه الأمير ؛ وهو معرب ورد فى شعر جرير . وفى كتاب الألفاظ الفارسية العربية أن سبهذ بالفارسية معناه قائد العسكر وهو مركب من كلمتين « سبه » أى عسكر و « بد » أى صاحب .

(٨) لعله « أشكيشان » كما فى معجم البلدان ، وهى من قرى أصهبان . وأردوان :

ويقال فيه : أردوال ، بلدة صغيرة بين واسط والجبل وبلاد خوزستان .

ما كانوا يَعْدُونَ هذه الأحوال لأنَّ من جاعَ أكل ما وجد ، وَطِيعَ ما لَحِقَ^(١) ،
وَشَرِبَ ما قَدَرَ عليه ، حَبَالِ الحَيَاةِ ، وَطَلَبًا لِلْبَقَاءِ ، وَجَزْعا مِنَ المَوْتِ ، وَهَرَبًا مِنَ
أَلْفَاءِ . أترى أَوْشُرَوا ن إذا وَقَعَ إلى فِيا فِى بَنى أُسَدَ وَبَرَّ^(٢) (وَبَارَّ^(٣)) وَسُفُوحِ
طِيبَةِ^(٤) ، وَرَمَلِ يَبْرِينَ وَساحَةِ هَبِيرٍ^(٥) ، وَجاعَ وَعَطِشَ وَعَرِيَ ، أَمَّا كانَ
يَأْكُلُ الِيزْبُوعَ وَالْجُرْذَانَ ؛ وَما كانَ يَشْرَبُ بَوَّلَ الجَمَلِ وَماءَ البُئْرِ ، وَما أَسَنَّ في
تِلْكَ الوَهْدَاتِ ؟ أَوْ ما كانَ يلبسُ البُرْجُدَ^(٦) وَالْحَمِيصَةَ^(٧) وَالسَّمَلَ^(٨) مِنَ الثِّيابِ
وَما هُوَ دُونَهُ وَأَخْشَنَ ؟ بلى وَاللهِ ، وَيَأْكُلُ حَشْرَاتِ الأَرْضِ وَنَباتِ الجَبالِ ، وَكُلَّ
ما حَمَضَ وَمَرَّ ، وَخُبْثَ وَضَرَّ ، هَذَا جَهْلٌ مِنْ قائلِهِ ، وَحَنِيفٌ مِنْ مُنتَعِلِهِ ؛ عَلى أَنَّ
العَرَبَ — رَحِمَكَ اللهُ — أَحْسَنُ النّاسِ حالًا وَعِيشًا إذا جادَتْهُمُ السَّما ، وَصَدَقَتْهُمُ
الأَنْواءُ^(٩) ؛ وَأَزْدانَتِ الأَرْضُ ، فَهُدَّتِ الثَّمارُ ، وَأَطْرَدَتِ الأودِيَةُ ، وَكَثُرَ اللَّبَنُ
وَالْأَقِطُ^(١٠) وَالْجُبْنُ وَاللَّحْمُ وَالرُّطَبُ وَالتَّمَرُ وَالْقَمَحُ ، وَقامَتِ لَهُمُ الأسْواقُ ، وَطابَتِ

(١) « بالحق » .

(٢) وَبار : أرض واسعة ببلاد اليمن زهاء ثلثمائة فرسخ في مثلها ، وهى ما بين الشحر إلى تحوم صنعاء .

(٣) طيبة : بلدة عند زرود . ويريد سفوح الجبال التى هناك .

(٤) الهبير : رمل قرب زرود بطريق مكة . وفى الأصل : « هبير » بتقديم الياء على الباء ولم نجد فيه فيما راجعناه من الكتب .

(٥) البرجد : كساء غليظ من صوف أحر . وقال بعضهم : هو كساء ضخم مخطط يصلح للعباء وغيره .

(٦) الحميصه : كساء أسود مربع له علمان .

(٧) السمل من الثياب : الخلق البالى .

(٨) الأنواء : الأمطار ؛ الواحد نوء . وأصل النوء سقوط نجم فى المغرب وطلوع نجم بحاله من ساعته فى المشرق ، وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى هذه الأنواء .

(٩) الأقط : شئ يتخذ من الخفيض الفنى يطبخ ثم يترك حتى يحصل . وقيل : من اللبن الحليب .

المزاج وفشا الحِصْب ، وتَوَالَى النَّجَاح ، وأَتَصَلَّتِ المِيرة ، وصدق المصاب ^(١) وأَرْفَعَ ^(٢) المتَّجِع ، وتَلَاقتِ القِبَالُ على المَحَاضِر ^(٣) ، وتَقَاوَلُوا ^(٤) وتضايَفوا ، وتعاقَدوا وتعاهدوا ، وتزاوَرُوا وتناشَدوا ؛ وعقدوا الذَّم ، ونطقوا بالحِكْم ؛ وقرَوا الطَّرَاق ووصَلوا العُفَاة ، وزَوَّدوا السَّابِلَةَ ، وأرشدوا الضَّلَّال ، وقاموا بالَحَمَلَات ^(٥) وفكَّو الأسْرَى ، وتداعَوْا ^(٦) الجَفَلَى ، وتعافَوْا التَّقَرَى ، وتنافسوا فى أفعال المعروف ؛ هذا وهم فى مساقط رءوسهم ، بين جبالهم ورمالهم ، ومناشئ آبائهم وأجدادهم ، وموالِدِ أهلهم وأولادهم ، على جاهليتهم الأولى والثانية ، وقد رأيت حين هَبَّت رِيحُهم وأشرقتْ دولتهم بالدعوة ، وأُتْشِرَتْ دعوتهم بالملة ، وعزَّتْ ملتهم بالنبوة ، وغلبتْ نبوتهم بالشریعة ، ورسختْ شریعتهم بالخلافة ، ونُفِضَتْ خلائتهم بالسیاسة الدینیَّة والذنیویَّة ، كيف تحوَّلتْ جمیع محاسن الأم إليهم وكيف وقَعَتْ فضائل الأجيال علیهم من غیر أن طلبوها وكَدَحُوا ^(٧) فى حيازتها أو تعبوا فى نیلها ، بل جاءتهم ^(٨) هذه المناقبُ والمفاخر ، وهذه النوادرُ من المآثر عفوا ^(٩) ، وقطنتْ بین أطناب بیوتهم سهوا رَهِوا ^(١٠) ؛ وهكذا یكون كلُّ شئ .

-
- (١) العصاب : المفسد . یرید المكان الذى یقصدونه للاتِّجاع ، من صاب یصوب إذا قصد .
 (٢) أرفع له العاش : وسعه .
 (٣) المحاصر : الماهل ، لحضور القبائل واجتماعها علیها ، الواحد محضر یفتح المیم والضاد .
 (٤) « وتقاوَلوا » بالین والزای ؛ وهو تصحیف .
 (٥) الحملات بفتح الحاء : الدیات والفرامات یحملها قوم عن قوم .
 (٦) تداعوا الجفلى ، أى دعا بعضهم بعضا إلى الطعام دعوة عامة لا تخصیص فیها .
 والقرى : الدعوة الخاصة ، قال طرفة : (نحن فى المشتاة ندعو الجفلى * لا ترى الأدب فینا ینتقر)
 وتعافوا أى كرهوا ، من عاب الشيء یعافه .
 (٧) « وقدحوا » بالقاف .
 (٨) « جلتهم » .
 (٩) « حقوا » ؛ وهو تصحیف صوابه ما أثبتنا كما یقتضیه السیاق .
 (١٠) سهوا رهوا ، أى عفوا بلا مشقة . یقال : آتاه هذا الأمر سهوا رهوا ، أى فى سهولة ورفق .

تولاه الله بتوقيفه ، وساقه إلى أهله بتأييده ، وحلّ مستحقّيه بأختياره ؛ ولا غالب لأمر الله ، ولا مبدل لإحكام الله ، ولذلك قال الله تعالى : (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) . والله في خلقه أسرار ، تنصرف بها دوائر الليل والنهار ، وتدلّها تجارى الأقدار ، حتى يُنتهى بمحبوبها ومكروهها إلى القرار .

عزّ إلها معبودا ، وجلّ ربّا محمودا مقصودا . وبعد ، فالذى لاشكّ فيه من وصف العرب ، ولا جاحد له من حالها ، أنه ليس على وجه الأرض جيل من الناس ينزلون القفر ، ويتجمعون السحاب والقطر ؛ ويعالجون الإبل والخيل والغنم وغيرها ، ويستبدّون في مصالحهم بكلّ ما غرّ وهان ، وبكلّ ما قلّ وكثر ، وبكلّ ما سهّل وعسر ؛ ويرجون الخير من السماء في صوبها^(١) ، ومن الأرض في نباتها ؛ مع مراعاة الأوان بعد الأوان ، وثقة بالحال بعد الحال وتبصرة فيما يُفعل ويُجتنب ؛ ما للعرب فيما قدّمنا وصفه ، وكترنا شرحه من علمهم بالخِصْب والجذب ، واللّين والقسوة ، والحرّ والبرّد ، والرياح المختلفة والسحاب الكاذبة ، والمخايل الصادقة ، والأنواء المحمودة والمذمومة ، والأسباب الغريبة العجيبة .

وهذا لأنهم مع توحّشهم مستأنسون ، وفي بواديهم حاضرون ، فقد أجمع لهم من عادات الحاضرة أحسن العادات ، ومن أخلاق البادية أظهر الأخلاق . وهذا المعنى على هذا النظم قد عدمه أصحاب المَدُن وأرباب الحَضَر ، لأن الدناءة والرّقّة والكَيْس والهَيْن والخَلابة والخداع والحيلة والسكر والخبّ تغلب

على هؤلاء وتَمْلِكهم ، لأن مدارَّ أمرهم على المعاملات السيئة ، والكذب في الحِسِّ^(١) ، والخلف في الوعد .

- (٤) والعَرَب قد قدَّسها الله عن هذا الباب بأسره ، وجعلها على أشرف الأخلاق بقدرته ؛ ولهذا تَجِد أحدهم وهو في بَتِّ^(٢) حافيا حاسرا يذكر الكرم ، ويفتخر بالحمدة ، وينتحل التَّجدة ، ويحتمل الكَلِّ^(٣) ، ويضحك في وجه الضيف ويستقبله بالبشر ، ويقول : * أحذنه إن الحديث من القرى * ثم لا يقنع ببيت العُرف وفعل الخير والصبر على النوائب حتى يحضَّ الصغير والكبير على ذلك ويدعوَ إليه ، ويستنهضه نحوه ، ويكلفه مجهوده وعفوه .

وقد قيل لرجل منهم في يوم شاتٍ وهو يمشى في سَمَلٍ^(٤) : أما تجد البرد يا أخا العرب ؟ فقال : أَمْشَى الْخَيْزَلَى^(٥) ويكفيني حَسْبِي . والفارسي لا يُحْسِن هذا النَّمط ، ولا يذوق هذا المعنى ولا يحلِّم بهذه اللطيفة ؛ وكذلك الرومي والهندي وغيرهما من جميع العَجَم .

- (٥) ومما يدل على تحضُّرهم في باديتهم ، وتبذيرهم في تحضُّرهم ، وتَحَلِّيهم بأشرف أحوال الأمرين ، أسواقهم التي لهم في الجاهلية ، مثل دُومَةِ^(٦) الجندل بقرى

(١) في الأصل : « الحسة » والباء زيادة من الناسخ .

(٢) في الأصل : « بيت » والياء زيادة من الناسخ . والبت : كساء غليظ من صوف أو وبر .

(٣) الكل : الضعيف ؛ يقال هو يحمل الكل ، أى يعون الضعفاء الذين لا يستطيعون الكسب ويقوم بأمرهم .

(٤) السمل من الثياب : الخلق البالي .

(٥) « الحترلى » وهو تصحيف . والحيزلى : مشية فيها تناقل وانفكاك ، كالخوزلى .

(٦) دومة الجندل : حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب حبلى طى وبينها وبين دمشق

سبع مراحل ، وكانت منازل لكنانة من كلب .

كلب^(١) وهى النصف بين العراق والشأم ، كان ينزلها الناس أول يوم من شهر ربيع الأول ، فيقيمون أسواقهم بالبيع والشراء ، والأخذ والعطاء ؛ وكان يعشّروهم أكيدر^(٢) دومة ، وربما غلبت على السوق كلب فيعشّروهم^(٣) بعض رؤساء كلب ؛ فيقوم سوقهم إلى آخر الشهر ، ثم ينتقلون إلى سوق هجر^(٤) ، وهو المشقر^(٥) فى شهر ربيع^(٦) الآخر ، فتقوم أسواقهم ؛ وكان يعشّروهم المنذر بن ساوى أحد بنى عبد الله بن دارم ، ثم يرتحلون نحو عُمان^(٧) ، فتقوم سوقهم بديار دبا^(٨) ، ثم بصحار^(٩) ، ثم يرتحلون فينزلون إرم^(١٠) ، وقرى الشجر^(١١) فتقوم أسواقهم أياها ، ثم يرتحلون فينزلون عدن أبين ، ومن سوق عدن تشتري اللطائم^(١٢) وأنواع الطيب ، ولم يكن فى الأرض أكثر طيبا ، ولا أحذق صناعا للطيب من عدن ؛ ثم يرتحلون فينزلون الرابية من حضرموت ، ومنهم من

(١) فى الأصل : « كلب » والياء زيادة من الناسخ .

(٢) أكيدر ، هو صاحب دومة الجندل .

(٣) يعشّروهم ، أى يأخذ منهم العشر .

(٤) مدينة هجر : قاعدة البحرين . وقيل : ناحية البحرين كلها هجر . قال ياقوت : وهو الصواب .

(٥) المشقر : حصن بالبحرين قديم كان لعبد القيس بنى حصنا لهم آخر يقال له : الصفا قبل مدينة هجر .

(٦) ذكر صاحب بلوغ الأرب أن هذه السوق كانت تقوم فى أول يوم من جمادى الآخرة .

(٧) عمان : كورة عربية على ساحل البحر ، وهى فى شرق هجر .

(٨) فى الأصل : « بدها » وهو تحريف . قال ياقوت : « دبا سوق من أسواق العرب بعمان ، وهى مدينة قديمة مشهورة لها ذكر فى أيام العرب وأخبارها وأشعارها ، وكانت قديمة قصبة عمان » .

(٩) صحار : بلدة بعمان كانت فيما مضى قصبة هذه الكورة ، وهى على البحر وتلى الجبل .

(١٠) إرم : فلاة قرب عدن كما فى كتاب صفة جزيرة العرب .

(١١) الشجر : صقع على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن بين عدن وعمان .

(١٢) اللطائم : نوافج المسك ، أى سرره ، الواحد لطيمة .

يمجوزها ويرد صنعاء ، فتقوم أسواقهم بها ، ومنها كانت تجلب آلة الخرز والأدم والبرود ، وكانت تجلب إليها من معافر^(١) ، وهي معدن البرود والحجر^(٢) ثم يرتحلون إلى عكاظ وذى الحجاز فى الأشهر الحرم ، فتقوم أسواقهم بها ، فيتناشدون ويتحاجون ويتحادون ، ومن له أسير يسعى فى فدائه ، ومن له حكومة أرتفع إلى الذى يقوم بأمر الحكومة من بنى تميم ، وكان آخرهم الأقرع بن حابس ؛ ثم يقفون بعرفة ، ويقضون ما عليهم من مناسكهم ؛ ثم يتوجهون إلى أوطانهم . وهذه الأسواق كانت تقوم طول السنة ، فيحضرها من قرب من العرب ومن بعد . هذا حديثهم ، وهم همّل لا عزّ لهم إلا بالسودد ، ولا معقل لهم إلا السيف ، ولا حصون إلا الخيل ، ولا نحر إلا بالبلاغة .

(٦) ثم لما ملكوا الدّور والقصور والجنان والأودية والأنهار والمعادن والقلاع والمُدن والبلدان والسهل والجبل والبرّ والبحر ، لم يقعدوا عن شأو^(٣) من تقدّم بألف سنين ، ولم يعجزوا عن شئ ، كان لهم ؛ بل أبرّوا عليهم وزادوا ، وأغربوا وأفادوا ؛ وهذا الحكم ظاهر معروف ، وحاضر مكشوف ؛ ايس إلى مرده سبيل ولا لجاحده^(٤) ومنكره دليل .

فليستعنى الجيهانى^(٥) بعد هذا البيان والكشف والإيصاح ، بالإنصاف من القذع والسّفه اللذين حشا بهما كتابه ، وليرفع نفسه عما يشين العقل ، ولا تقبله حُكام العدل ؛ وصاحب العلم الرصين ، والأدب المكين ؛ لا يسلط

(١) فى الأصل : « معافير » والياء زيادة من النسخ . ومعافير : مخلاف باليمن تنسب إليه الثياب المعافرية .

(٢) فى الأصل : « والحجر » ؛ وهو تصحيف .

(٣) وردت هذه الكلمة فى الأصل هكذا : شا « و » والصواب ما أثبتنا .

(٤) « مجاحدة » ؛ وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : « الجانى » .

خصمه على عرضه بلسانه ، ولا يستدعى مُرَّ الجواب بتعرضه ويرضى بالميسور في غالب أمره ؛ فإنَّ العصبية في الحق ربما خذلت صاحبها وأسلمته ؛ وأبدت عورته ، واجتلبت مساوته ^(١) ؛ فكيف إذا كانت في الباطل ونعوذ بالله أن نكون لفضل أمة من الأمم جاحدين ، كما نعوذ به أن نكون بنقص أمة من الأمم جاهلين . فإنَّ جاحد الحق يدلُّ من نفسه على مهانة ، وجاهل النقص يدل من نفسه على قصور ؛ فهذا هذا ؛ وفي الجلة المسلمة ، والدعوة المرسلّة ، أن أهل البرِّ وأصحاب الصَّحارى الذين وطَّأهم الأرض ، وغطَّوهم السماء ، هم في العدد أكثر وعلى بسيط الأرض أجول ، ومن الترفُّه والرفاهية أبعد ، وبالحول والقوة أعلَى وإلى الفكرة والفطنة أفرع ^(٢) ، وعلى الصالح والمنافع أوقع ، ومن المخازى آف وللقباح أعيف ؛ وهذا للدواعي الظاهرة ، والحاجات ^(٣) الضرورية ، والعلائق الخاصة ^(٤) على الألفة والمودة ، والشدائد المؤذية ، والعوارض اللازمة ^(٥) ؛ ولهذا يقال : عيبُ الغنى أنه يورث البلادة ، وفضيلة الفقر أنه يبعث الحيلة ؛ وهذا معنى كريم ، لا يُقرُّ به إلَّا كلُّ نَقَابٍ عليم .

(٧) وقال الجيهانيُّ أيضا : ممَّا يدل على شرفنا وتقدُّمنا وعزِّنا وعلوِّ مكاننا ، أن الله أفاض علينا النِّعم ، ووسَّع لدينا القِسَمَ وبوَّأنا الجنانَ والأريافَ ، ونعمنا وأترقنا . ولم يفعل هذا بالعرب ، بل أشقاهم ^(٦) وعذبهم ، وضيق عليهم وحرَّمهم ،

(١) « ماته » ؛ وهو تحريف .

(٢) في الأصل : « أقرع » .

(٣) في الأصل : « وإلى الحاجات » وقوله « إلى » زيادة من الناسخ .

(٤) في الأصل : « الحاصرة » والراء زيادة من الناسخ .

(٥) اللازمة ، أى الثابتة الشديدة .

(٦) « سقام » .

وَجَمَّعَهُمْ فِي جَزِيرَةِ حَرَجَةٍ ، وَرُقْعَةً صَغِيرَةً ، وَسَقَامًا^(١) بِأَرْتَقٍ صَاحٍ ؛ وَبِهَذَا يُعَمُّ أَنَّ الْخُصُوصَ بِالنِّعْمَةِ وَالْمَقْصُودَ بِالكَرَامَةِ فَوْقَ الْمَقْصُودِ بِالْإِهَانَةِ .

فَأُطَالَ هَذَا الْبَابَ بِمَا ظَنَّ أَنَّهُ قَدْ ظَفَرَ بِشَيْءٍ لَا جَوَابَ عَنْهُ ، وَلَا مُقَابِلَ لَهُ ؛ وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا قَالَ لَمَّا خَفِيَ عَلَى غَيْرِهِ وَتَجَلَّى لَهُ ، بَلْ قَدْ خَصَّتِ الْعَرَبَ بَعْدَ هَذَا بِأَشْيَاءٍ تَطُولُ حَسْرَةُ^(٢) مَنْ فَاتَتْهُ عَلَيْهَا ، وَلَا يَفِيدُ أُلْتِفَاتُهُ بِالغَيْظِ إِلَيْهَا ؛ وَقَدْ دَلَّ كَلَامُهُ عَلَى أَنَّهُ جَاهِلٌ بِالنِّعْمَةِ ، غَافِلٌ عَمَّا هُوَ سِرُّ الْحِكْمَةِ .

وَعِنْدَهُ أَنَّ الْجَاهِلَ إِذَا لَبَسَ الثَّوبَ النَّاعِمَ ، وَأَكَلَ الْخُبْزَ الْخَوَّارِيَّ^(٣) وَرَكِبَ الْجَوَادَ ، وَتَقَلَّبَ عَلَى الْحَشِيَّةِ ، وَشَرِبَ الرَّحِيقَ ، وَبَاشَرَ الْحَسَنَاءَ ، هُوَ أَشْرَفُ مِنَ الْعَالِمِ إِذَا لَبَسَ الْأَطْيَارَ ، وَطَعِمَ الْعُشْبَ ، وَشَرِبَ الْمَاءَ الْقَرَّاحَ ، وَتَوَسَّدَ الْأَرْضَ ، وَقَعَّ بِالْيَسِيرِ وَرَخِيَ الْعَيْشَ ، وَسَلَا عَنْ الْفُضُولِ ؛ هَذَا خَطَأٌ مِنَ الرَّأْيِ ، وَمَرْدُودٌ مِنَ الْحُكْمِ ، عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى أَوَّلًا ، ثُمَّ عِنْدَ جَمِيعِ أَهْلِ الْفَضْلِ وَالْحِجَابِ ، وَأَصْحَابِ التَّقَى وَالنُّهَى ؛ وَعَلَى طَرِيقَتِهِ أَيْضًا أَنَّ الْبَصِيرَ أَشْرَفُ مِنَ الْأَعْمَى ، وَالْفَنَى أَفْضَلُ مِنَ الْفَقِيرِ .

أَلَا يَعْلَمُ أَنَّ الْمَدَارَ عَلَى الْعَقْلِ الَّذِي مَنَ حُرْمُهُ فَهُوَ أَنْقَصُ مِنْ كُلِّ فَقِيرٍ ، وَعَلَى الدِّينِ الَّذِي مَنَ عَرِيٍّ مِنْهُ فَهُوَ أَسْوَأُ حَالًا مِنْ كُلِّ مُوسِرٍ ؛ وَنِعْمَةُ اللَّهِ عَلَى ضَرَبَيْنِ : أَحَدُ الضَّرْبَيْنِ عَمٌّ بِهِ عِبَادَهُ ، وَغَمْرُ بَفَضْلِهِ خَلِيقَتَهُ ، بَدَأَ بِهَا أَسْتَحْقَاقَ وَذَلِكَ أَنَّهُ خَلَقَ وَرَزَقَ وَكَفَلَ وَحَفِظَ وَنَعَشَ وَكَلَأَ وَحَرَسَ وَأَمَهَّلَ وَأَفْضَلَ وَوَهَّبَ وَأَجْزَلَ ؛ وَهَذَا هُوَ الْعَدْلُ الْمَحْلُوطُ بِالْإِحْسَانِ ، وَالتَّسْوِيَةُ الْمَعْمُومَةُ بِالْتَفَضُّلِ

(١) وَرَدَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ فِي الْأَصْلِ سَاقِطًا مِنْهَا الْحَرْفُ الْأَخِيرُ ، وَهُوَ الْقَافُ ، وَأَرْتَقٍ ، أَيْ أَكْدَرُ مِنْ رَقِ الْمَاءِ مِنْ بَابِ بَصَرَ وَفَرَحَ إِذَا كَدَرَ . وَضَاحٌ ، أَيْ مُتَعَرِّضٌ لِلشَّمْسِ .

(٢) « حَرَهُ » .

(٣) الْخَوَّارِيُّ : لِابِابِ الدَّقِيقِ وَخَالِصِهِ .

والقدرةُ المشتعلةُ على الحكمة ؛ والضربُ الثاني هو الذى يُستحقّ بالعمل والاجتهاد والسعى والأرتياد ، والأختبار والأعتقاد ؛ ليكون جزاءً وتواباً ، ولهذا حرّم العاصى الخالف ، وأنال الطائع الموافق ؛ فقد بان الآن أن المدار ليس بالجنان والترفة ، ولا بالذهب والفضة ، ولا بالوبر والمدّر .

وقد مرّ^(١) هذا الكلام كله فليسكن من الجهنانيّ جأشه ، وليفارق طيشه ؛ وليعلم أن من أنصف أعطى بيده ، وسلم الفضل لأهله ؛ فإن التواضع للحق رفعة والترفع بالباطل ضعة^(٢) .

(٨)

وهنا بقية ينبغى أن يُتبصّر فيها ؛ من عرف النقص البحت ، والنقص المشوب بالزيادة ؛ والفضل الصّرف ، والفضل المزوج بالنقص لم يجحد بالهوى المغوى فضلاً ، ولم يدّع للعصبية المردية شرفاً ، ولم يُنكر بالحسد مزية ؛ والخلق كلّهم فى نعم الله تعالى مشتركون ، وفى أياديه مغموسون وبمواهبه متفاضلون ، وعلى قدرته متصرفون ؛ وإلى مشيئته صائرون ، وعن حكمته مخبرون ، ولآلائه ذاكرون ، ولنعمائه شاكرون ، ولأياديه ناشرون ، وعلى اختلاف قضائه صابرون ، ولثوابه بالحسنات مستحقّون ، ولعقابه بالسيئات مستوجبون ، ولعفوه برحمته منتظرون ، والله خيرٌ بما يعملون ، وبصير بما يُسرّون وما يُعلنون مع الجماعة ، وأبو سليمان يقول : القرب^(٣) أذهب مع صفو العقل ؛ ولذلك هم^(٤) بذكر المحاسن أبده ، وعن أضدادها أنزّه . ولو كانت رويّتهم فى وزنِ بديهم ، كان الكمال ؛ ولكن لما عزّ الكمالُ فيهم ، عزّ

(١) « وقدّم » .

(٢) « صنعة » .

(٣) « كقرب » .

(٤) فى الأصل : « لهم » واللام زيادة من الناسخ .

أيضا^(١) في غيرهم من الأمم ، فالأُم كلها شرعٌ واحد في عدم الكمال إلا أنهم متفاضلون بعد هذا فيما نالوه بالخَلقة الأولى ، وبالأختيار الثاني ؛ وأختلفت أَبصارهم في هذا الموضع ، فأما ما مُنِعهُ الإنسانُ في الأول فلا عَتَبَ عليه فيه ، لأنّه لا يقال للأعمى : لِمَ لا تكون بصيرا ، ولا يقال للطويل : لِمَ لا تكون قصيرا وقد يقال للقصير : سَدَّدْ طَرَفَكَ ، وأَكْجُلْ عَيْنَكَ ، ومُدَّ^(٢) ناظِرَكَ ؛ كما يقال للطويل : تَطَامَن ، في هذا الزَّفَاقِ حتى تَدْخُلَ ، وتَقَاصِرَ حتى تَصِلَ ؛ وأما ما لم يُمنِعهُ الإنسانُ في الأول ، بل أُعْطِيَهِ ووَهَبَ لَهُ ، فهو فيه مَطْلَبٌ بما عليه وله كما أنّه مَطْلَبٌ بما له وعليه .

وقال الجِبّهانيُّ أيضا : ليس للعرب كتاب إقليدس ولا المحسّطى ولا الموسيقى^(٣) ولا كتاب الفلاحة ، ولا الطبّ ولا العلاج ، ولا ما يجرى في مصالح الأبدان ، ويدخل في خواصّ الأنفس .

فليَعْلَمْ الجِبّهانيُّ أنّ هذا كلّهُ لم يَنْوَعْ إلهيَّ لا بنوعِ بَشَرِيٍّ ، كما أنّ هذا كلّهُ لغيرهم بنوعِ بَشَرِيٍّ لا بنوعِ إلهيٍّ ، وأعني بالإلهيِّ والبشريِّ الطَّبَاعِيَّ والصَّنَاعِيَّ ؛ على أنّ إلهيَّ^(٤) هؤلاء قد مازجه بشريُّ هؤلاء ، وبشريُّ هؤلاء قد شابهَ إلهيُّ هؤلاء ؛ ولو علم هذا الزاري لَعَلِمَ أنّ المحسّطى وما ذكره ليس للفرس أيضا ، وما عندي أنّه مُكابرٌ فيَدْعَى هذا لهم . فإن قال : هو لليونان ، ويونانُ من العَجَمِ ، والفرسُ من العَجَمِ ، فأنّا أُخْرِجُ^(٥) هذه الفضيلة من العَجَمِ إلى العَجَمِ فهذا منه حَيْفٌ على نفسه ، وشهادةٌ على نقصه ؛ لأنّه لو فاخر يونان لم يستطع أن

(١) رسمت هذه العبارة في الأصل هكذا : « عزابا » ؛ وهو تحريف .

(٢) في الأصل : « وقد » بالفاء ؛ وهو تحريف وما أثبتناه أولى بالسياق .

(٣) في الأصل : « للمهي » ؛ وهو تحريف .

(٤) في الأصل : « أخرج » ؛ وهو تصحيف .

يَدْعَى هذا للفرس ، ولا يمكنه أن يقول : نحن أيضا عَجَم ، وفضيلتكم في هذه الكتب والصناعة متصلة بنا ، وراجعة إلينا . ومتى قال جُبَيْه^(١) بالمكروه وقوبل بالقَدْع^(٢) ، وقيل له : صه ،^(٣) كما يقال للجاهل — إن لم تقل له : « اخسأ » ، كما يقال — في كل^(٤) الأحاديث ، وإن أغفلته^(٥) ظلمتُ نفسي ؛ ومن حابي خصمه غلب .

(١٠)

قال القاضي أبو حامد المروزي^(٦) : لو كانت الفضائل كلها بعقدِها وسُمطِها ، ونظمِها ونثرها ، مجموعة للفرس ، ومصبوبة على أروسهم ، ومعلقة بأذانهم ، وطالعة من جباههم ؛ لكان لا ينبغي أن يذكر شأنها ، وأن يخرسوا عن دِقِّها وجأها ، مع نيكهم الأمهات والأخوات البنات فإن هذا شيء كريه بالطباع ، وضعيف بالسماع ، ومردود عند كل ذي فِطْرة سليمة ، ومستبشع في نفس كل من له جبلة^(٧) معتدلة . قال : ومن تمام طغيانهم ، وشدة بهتانهم ، أنهم زعموا أن هذا بإذن من الله تعالى ، وبشريعة أتت من عند الله ، والله تعالى حرّم الخبائث من المطعومات فكيف حلّ^(٨) الخبائث من المنكوحات ؟

(١) لم يظهر من هذه الكلمة في الأصل غير الباء والهاء والسياق يقتضی ما أثبتنا .

(٢) القَدْع : الشتم والرمي بالفحش وسوء القول .

(٣) في الأصل : « تأكل » وهي زيادة لا معنى لها .

(٤) في « كل » وهو تحريف لا يستقيم معناه .

(٥) « أغفلته » بالعين والقاف ؛ وهو تصحيف .

(٦) هو القاضي أبو حامد أحمد بن بشر البصري المروزي ، كان عالما بفنون العلوم الدينية والأدبية . قال فيه أبو حيان : « كان بحرا يتدفق حفظا للسیر ، وقياما بالأخبار ، واستنباطا للعاني ، وثباتا على الجدول وصبرا في الخصام » . وكان يقول فيه : « إنه أنبل من رأيت في عمری » . توفي سنة ٣٦٢ .

(٧) « الكيم » ؛ وهو تحريف لا معنى له ، وسياق الكلام يقتضی إثبات ما يفيد معنى

لجلبة كما أثبتنا وإن كان بعيدا عن الرسم الموجود في الأصل .

(٨) « على » .

قال : وكذب القوم ، لم يكن زرادشت نبيا ، ولو كان نبيا لذكره الله تعالى في عرض الأنبياء الذين نوه بأسمائهم ورد ذكرهم في كتابه ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « سُنُوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ » لأنه لا كتاب لهم من عند الله منزل على مُبَلِّغ عنه . وإنما هو خرافة خدعهم بها زرادشت بقوة الملِك الذي قَبِل ذلك منه وحمَل الناس عليه طوعا وكرها ، وترغيبا وترهيبا ؛ وكيف يبعث الله نبيا يدعو إلى الإلَهين أثنين ؟ وهذا مستحيل بالعقل ، وما خلق الله العقل إلا ليشهد بالحق للمُحِقِّ والباطل للمُبْطِل ؛ ولو كان شرعا لكان ذلك شائعا عند أهل الكتابين ، أعنى اليهود والنصارى ؛ وكذلك عند الصابئين ، وهم كانوا أكثر الناس عناية بالأديان والبحث عنها ، والتوصل إلى معرفة حقائقها ، ليكونوا من دينهم على ثقة ؛ فكيف صارت النصارى تعرف عيسى ، واليهود تعرف موسى ؛ ومحمدٌ — صلى الله عليه وسلم — يذكرها ويذكر غيرها ، كداود وسليمان ويحيى وزكريا ، وغير هؤلاء ، ولا يذكر زرادشت بالنبوة وأنه جاء من عند الله تعالى بالصدق والحق كما جاء موسى وعيسى (١) لكنني بُعِثْتُ ناسخا لكل شريعة ، ومجددا لشريعة خُصِنِي اللهُ بها من بين العرب .

قال : وهذا بيان نافع في كذبهم ؛ وإنما جاءوا إلى وهي فرقه ، وإلى حرام بالعقل فأناحوه ، وإلى خبيثٍ بالطبع فارتكبهوه وإلى قبيحٍ في العادة فاستحسنوه . وقد وجدنا في البهائم ما إذا أُزْرِىَ الفحل منها على أمه لم يطاوع ، وإذا أُكْرِهَ وخُدِعَ وعَرِفَ غضب على أهله وندَّ عنهم ، وشرَّ رَ عليهم ؛ فما تقول في خُلِقَ لا ترضاه الهيمة ، ولا تطاوعه (٢) فيه الطبيعة ، بل يأباه حسه مع كُلِّهِ (٣)

(١) يلاحظ أن موضع هذه النقط كلام ساقط من الأصل فيما يظهر لنا .

(٢) تطاوعه ، أى تطاوع الفعل .

(٣) وردت هذه الكلمة في الأصل هكذا : « ككوكه » ؛ وهو تحريف .

وتبرُدْ شهوته مع أشتعالها ، ويرضاه هؤلاء القوم مع عجبهم بعقولهم ، وكبرهم في أنفسهم .

ولو كان زرادشت أقام لهم على هذه الخصلة اللثيمة والفعلة الذميمة كل آية وكل برهان ، ونثر عليهم نجوم السماء ، وأطلع لهم الشمس من المغرب ، وفقت لهم الجبال ، وغَيَّضَ لهم البحار ، وأراهم الثريا تمشي على الأرض تحترق السكك وتشهد له بالصدق ، لكان من الواجب بالعقل وبالغيرة وبالحمية وبالأفنة وبالتقزز وبالتعزز ألاَّ يحببوه إلى ذلك ، ويشكوا في كل آية يرون منه ، ويقتلوه ، ويُنكّلوا به .

ولكن بمثل هذا العقل قبلوا من مزدك ما قبلوه مرة ، ولو عاملوا زرادشت بما عاملوا به مزدك ما كان الأمر إلا واحدا ، ولا كان الحق إلا منصورا ، ولا كان الباطل إلا مقهورا ، ولكن اتفق على مزدك ملك عاقل فوضع باطله ، واتفق لزرادشت ملك ركيك فرفع باطله ؛ وما نزع الله عنهم الملك إلا بالحق ، كما قال تعالى : (فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ) . ثم قال : وبعد ، فكل شيء خارج من الحكمة الإلهية والعقلية والطبيعية فهو ساقط بهرج ، ومردود مرذول ، إذا فعله جاهل عذر بالجهل ، وإذا أتاه عالم عذر للعلم .

قال : وكانت العرب بهذا الخلق الذميم ، وهذا الفعل اللثيم ، لو فعلته أعذر ، لأنهم أشد غلّة من غيرهم وأكثر تهيجا ، وأقوى على البضاع ، وأوثب على النساء يدلّك على هذا غزلهم وعشقهم ونظمهم ونثرهم وفراغهم وشهوتهم ، وتراهم مع هذه الدواعي والبواغث لم يستحسنوا هذا ولم يفعلوه ، ولو أكرههم على هذا مكره ودعاهم إليه داع لما أطاعوه ، ولذلك لم ينبجهم منهم ناجم بالحيلة

فدعا إلى هذا ؛ ولو كان لكان أولَ مَنْ دُقَ رأسُه بالعمد ، وُبيج بطنُه بالخنجر ؛ وما منَعهم من هذا إلا الأنفُس الكريمة ، والطباع المعتدلة ، والشكائُم الشديدة ، والأرواح العيِّفة ، والعادات الرضيّة ، والضرائب الطيِّبة ؛ وكان وأد البنات عندهم أنفَى للمعايير ، وأطرَدَ للقبائح من هذا الَّذي أَسْتَحْسَنه زرادشت وقَبِل منه الفُرس ، وهم يدَّعون الحُكم والعِلْم والعَزَم والعزم ، ولقرط جهلهم وغلبة شهوتهم غفلوا عما يجوز أن يكون الله سبحانه مبيحاله أو حاضرا ، أو مطلقا أو مانعا ، أو محللا أو محرِّما ؛ هيهات ما كَلَّف الله أَهْلَ العقل القيامَ بالذِّين والتَّصفَحَ للحقِّ^(١) من الباطل إلا لما شَرَفهم به في العاجل ، وعَرَضهم له في الآجل ؛ والعاقبة للمتقين .

قال أبو الحسن الأنصارى^(٢) — وكان حاضرا — الهند أوضح عذرا في هذا الحديث لأنهم جعلوه من باب القُرْبَة في بيوت الأصنام ، وبلغوا مرادهم بهذه الخديعة ، ولم ينسبوا إلى الله شيئا منه ، ولا أَسْتَجَازوا الكذبَ عليه ، ولا علَّقوه أيضا على نبيٍّ من عند الله ، بل رأوه صوابا بالوضع^(٣) ثم طابت أنفسهم من هذا الفعل بالمران والعادة . وبعد ؛ فعقولهم مدخولة ، والبارع منهم قليل ، وهم إلى الإِفْكَ^(٤) والوهم والسَّحَر أَمِيل ، وفي أبوابها أدخَلَ ؛ ثم قال أبو الحسن : انظر إلى جهل زرادشت في هذا الحُكم وإلى ضعف عقول الفُرس في قبولهم منه هذا

(١) « بالحق » بالياء ، والسياق يقتضى اللام كما أثبتنا .

(٢) كذا بالأصل ولعله الأنطاكي ، فإننا لم نجد فيما بين أيدينا من الكتب من يلقب بالأنصارى . وأبو الحسن الأنطاكي هو أبو القاسم علي بن أحمد أصله من أنطاكية ونزل بغداد ، وكان مهتدا حاسبا له مشاركة في علوم الأوائل مع فصاحة لسانه وعدوبة بيانه . مات ببغداد سنة ٣٧٦ .

(٣) « لوضع » ولعل صوابه ما أثبتنا .

(٤) « الفكر » ؛ وهو خطأ من الناسخ .

هذا المصحح - راجع ٧٤/١٥ من هذا الكتاب باب المجلد الثاني

الفعل ، وخَيْرٌ بينها وبين عقول العرب ، فإنهم قالوا : « اغتربوا لا تُضَوُّوا »^(١) .
 وأستفاض هذا منهم حتى سُمِعَ من صاحب الشريعة صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وذلك
 أَنَّ الضَّوْىَ مكروه ؛ والعرب قالت هذا بالإلهام ، لقراءتهم الصافية ، وأذهانهم
 الواقدة ، وطينتهم الحرة ، وأعراقهم الكريمة ، وعاداتهم السليمة : وإنما شعروا
 بهذا لأن الضَّوْىَ الواصلَ إلى الأبدان هو سار في العقول ، ولكن الفرس عن
 هذا السرِّ غافلون ، ولا يفتن لهذا وأمثاله إلا الألعيتون الأحمديون^(٢) ؛ ثم قال :
 أنشد الأصمعي عن العرب قولَ قائلهم في مدح صاحب له :

فَتَى لَمْ تَلِدْهُ بِنْتُ عَمِّ قَرِيبَةٍ فَيَضَوِّى وَقَدِ يَضَوِّى رَدِيدُ الْأَقَارِبِ
 قال : وقالت العرب : « أضواء حقّه » : إذا نقصه . قال : وقال آخر لولده :
 والله لقد كفيتك الضَّوْءَ ، وأخترتُ لك الخُؤُولَةَ .

وقال أيضا : العرب تقول : « ليس أضوى من القرائب ، ولا أنجب من
 الغرائب » وقال الشاعر :

أَنْذَرْتُ مَنْ كَانَ بَعِيدَ الْهَمِّ تَزَوَّجَ أَوْلَادِ بَنَاتِ الْعَمِّ
 لَيْسَ بِنَاجٍ مِنْ ضَوِّى أَوْ سَقَمٍ وَأَنْتَ إِنْ أَطْعَمْتَهُ لَا يَنْبَغِي
 وقال الأسدي يفتخر :

وَلَسْتُ^(٣) بِضَاوِيٍّ تَمُوجُ عِظَامُهُ وَلَادَتْهُ فِي خَالِدٍ بَعْدَ خَالِدٍ
 تَرَدَّدُ^(٤) حَتَّى عَمَّهُ خَالَ أُمِّهِ إِلَى نَسَبِ أَدْنَى مِنَ السَّرَوَاحِدِ

(١) اغتربوا لا تضووا ، أى تزوجوا في بعاد الأنساب لا في الأقارب لئلا تضوى أولاد
 أى تنحف وتنصف .

(٢) الأحمدي : الحاذق المشير للأمر القاهر لها لا يشذ عليه شيء . وفي الأساس
 « رجل أحمدي » : يسوق الأمور أحسن مساق لعلها بها .

(٣) في الأصل : « وكنت » ، وهو تحريف ؛ ومقام الفخر يقتضى ما أمبنا .

(٤) في الأصل : « تردد » ، والظاهر زيادة من الناسخ .

ثم قال : والعرب لم تُرد بهذا إلا نقص الذهن والعقل ، لأنها لو أرادت نقصان الجسم لكانت مخطئة ، لأنهم يريدون سمانة الجسم مع السلامة والصلابة .
ثم قال : وعلى هذا طباع الأرض ، ولذلك يقال : إذا كثرت المؤتفكات ^(١) زكت الأرض ، لأنَّ الرياح إذا اختلفت حوّلت تراب أرض إلى أرض ، وإذا كان للأعتراب يؤثر من التراب إلى التراب ، فبالجرى ^(٢) أن يؤثر ^(٣) الإنسان في الإنسان بالأعتراب ، لأن الإنسان أيضا من التراب .

قال أبو حامد : فما ظنك بقوم يجهلون آثار الطبيعة ، وأسرار الشريعة ^(٤) ؟
ما أذلهم الله باطلا ، ولا سلبهم ملكهم ظلما ، ولا ضربهم بالجرى والمهانة إلا جزاء على سيرتهم القبيحة ، وكذبهم على الله بالجرأة والمكابرة ، وما الله بظلام للعبيد .

فلما بلغ القول مداه قال ^(٥) : لله ^(٦) [دَرُ] ^(٧) هذا النَّفس الطويل والنَّفث ^(٨)
الغزير ! لقد كنتُ قرما إلى هذا النوع من الكلام ، ففرغ نفسك لرسمه في جزء لأنظر فيه ، وأشرب النفس حلاوته ، وأستنقج العقيم منه ؛ فإنَّ الكلام إذا مرَّ بالسمع خلق ، وإذا شارفَه البصر بالقراءة من كتاب أسف ؛ والمحلق بعيد المنال ، والمُسيف حاضر العين ، والمسموع إذا لم يملكه الحفظ

(١) المؤتفكات : الرياح التي تقل الأرض ؛ أو التي تختلف مهابها .

(٢) في الأصل : « فيه لجرى » وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق .

(٣) في الأصل : « يوحش » ؛ وهو تحريف .

(٤) ورد في الأصل بعد قوله : « الشريعة » قوله « من الشريعة » وهي زيادة من

الناسخ لاتسق مع الكلام .

(٥) أي الوزير .

(٦) « الله » والألف زيادة من الناسخ .

(٧) موضع هذه الكلمة في الأصل حرفان مطوسان ؛ وسباق الجملة يقتضي ما أثبتنا .

تذكر منه الشيء بعد الشيء بالوهم الذي لا أنقاده ، والخيال الذي لا معرج عليه . فقلت : أفعل سامعا مطيعا — إن شاء الله .

الليلة السابعة

(١) ولما عدتُ إليه في مجلس آخر ، قال : سمعتُ صياحك اليوم في الدار مع ابن عبيد ، فقيم كتما ؟ قلتُ : كان يذكر أن كتابة الحساب أنفع وأفضل وأعلق بالملك ، والسلطان إليه أحوج ، وهوبها أغنى من كتابة البلاغة والإنشاء والتحرير ، فإذا الكتابة الأولى جد ، والأخرى هزل ؛ ألا ترى أن التشاؤم والتفهيق والكذب والخداع فيها أكثر ؛ وليس كذلك الحساب والتحصيل والاستدراك والتفصيل . قال : وبعد هذا فتلك صناعةٌ معروفة بالمبدأ ، موصولة بالغاية ، حاضرة الجدوى ، سريعة المنفعة ؛ والبلاغة زخرفة وحيلة ، وهى شبيهة بالسراب ، كما أن الأخرى شبيهة بالماء . قال : ومن خسارة البلاغة أن أصحابها يُسترقعون ويُستحققون ؛ وكان الكتاب قديما في دُور الخلفاء ومجالس الوزراء يقولون : اللهم إنا نعوذ بك من رَقاعة المنشئين ، وحمافة المعلمين ، وركاكة النحويين ، والمنشئ والمعلم والنحوي إخوة وإن كانوا لَعَلَّات ؛ والآفة تشملهم والعادة تجمعهم ، والنقص يفرهم ، وإن اختلفت منازلهم ، وتباينت أحوالهم . قال : ولو لم يكن من صناعة الإنشاء إلا أن الملكة العريضة الواسعة يُكتفى فيها بمنشئ واحد ، ولا يُكتفى فيها بمائة كاتب حساب^(١) وإذا كانت الحاجة إلى هذه أَمَسَّ ، كانت الأخرى في نفسها أخص ؛ وبعد ، فصالح أحوال

(١) لم يرد جواب « لو » للعلم به ، أى لكون كتابة الحساب غفرا على كتابة الإنشاء ، أو ما يفيد هذا المعنى .

العامة والخاصة معلقة بالحساب ؛ على هذه الجديلة^(١) والوتيرة يجري الصغار والكبار والعليّة والسفلة ، وما زال أهل الحزم والتجارب يحثون أولادهم ومن لهم به عناية على تعلم الحساب ، ويقولون لهم : هو سلة الخبز . وهذا كلام مستفيض ؛ ومن عبر عما في نفسه بلفظ ملحون أو محرف أو موضوع غير موضعه وأفهم غيره ، وبلغ به إرادته ، وأبلغ غيره ، فقد كفى ؛ والزائد على الكفاية فضل وأفضل يستغنى عنه كثيرا ، والأصل يُفتقر إليه شديدا ، قال : ومن آفات هذه الكتابة أن أصحابها يُقرّفون بالريبة ، ويرمون بالآفة ، كآل الحسن بن^(٢) وهب وآل ابن ثوبة . قال : هذه ملحمة منكّرة ؛ فما كان من الجواب ؟

قلت : ما قام من مجلسه إلا بعد النذل والقماء ، وهكذا يكون حال من عاب القمر بالكلف ، والشمس بالكسوف ، وأنتحل الباطل ونصر المبطّل ، وأبطل الحق وزرى على الحق . قلت : أيها الرجل ، قولك هذا كان يسلم لو كان الإنشاء والتحرير والبلاغة بآنة من صناعة الحساب والتحصيل والاستدراك وعمل الجماعة وعقد المؤامرة^(٣) . فأما وهي متصلة بها وداخله في جهلتها ومشتتة عليها وحاوية لها ، فكيف يطرد حكمكم وتسلم دعواك ؟ ألا^(٤) تعلم أن أعمال

(١) الجدلة : الشاكلة ؛ يقال : عمل على جدبته ، أى على شاكلته .

(٢) يشير بهذه العبارة إلى ما فعله الوائق بالله مع الحسن بن وهب كاتبه ، فقد حبسه وأعرمه أربعة عشر ألف دينار ، كما حبس كتابا آخرين وقبض منهم أموالا جمّة ، وذلك في سنة تسع وعشرين ومائتين . وإلى سكة أبي الهيثم بن ثوبة سنة ثلاث وثلاثمائة ، فقد حبس حتى مات في حبسه الكوفة بعد أن أخذ منه إسحاق بن عمران أموالا جزيلة لنفسه وللسلطان . ويقال : إنه احتال على قتله خشية أن يقر عليه بما أخذ منه .

(٣) المؤامرة : عمل تجمع فيه الأوامر الخارجة في مدة أيام الطمع ، ويوقع السلطان في آخره بإجارة ذلك ؛ وقد تعمل المؤامرة في كل ديوان تجمع جميع ما يحتاج إليه من استثمار واستدعاء توقيع .

(٤) في الأصل : « ألا أن تعلم » « وأن » زيادة من الناسخ .

الدواوين التي ينفرد أصحابها فيها بعمل الحساب قعيّة إلى إنشاء الكتب في فنون ما يصفونه ويتعاطونه ؛ بل لاسبيل لهم إلى العمل إلا بعد تقدّم هذه الكتب التي مدارها على الإفهام البليغ والبيان المكشوف والأجتناج الواضح ، وذلك يوجد من الكتاب المنشئ الذي عبّته وعضّته^(١) ، وهذه الدواوين معروفة ، والأعمال فيها موصوفة ؛ وأنا أحصيها لك كي تعلم أنك غلط وعن الصواب فيها منحرف .

فنها ديوان الجيش ، وديوان بيت المال ، وديوان التوقيع والدار ، وديوان الخاتم ، وديوان القرض^(٢) ، وديوان النقد والعميار ودور الضرب ، وديوان المظالم وديوان الشرطة والأحداث ؛ هذا إلى توابع هذه الدواوين مثل باب العين^(٣) والمؤامرات ، وباب النوادر^(٤) والتواريخ ، وإدارة الكتب ومجالس الديوان وقبّل وبعد ، كما^(٥) يلزم كاتب الحساب أن يعرف وجوه الأموال^(٦) حتى إذا جباها وحصلها عمل الحساب أعماله فيها ، فلا يُمكنه^(٧) أن ينجي^(٨) إلا بالكتب البليغة والحجج اللازمة واللطائف المستعملة ، ومن تلك الوجوه الفئ ، وهو أرض القنوة وأرض الصلح وإحياء الأرض والقطائع والصفايا والمقاسمة والوضائع

(١) يقال : عضه بلسانه ، إذا تناوله بكمروه الكلام .

(٢) في الأصل : « الفس » بالصاد المهملة ؛ وهو تصحيف ، والمراد بالفس : فس الكتب المختومة .

(٣) يريد بالعين : خراج العين ، وهو ما يقرر على البساتين والشجيرات والكروم والمقائش ويسمخرج على حكم الصرية عند إدراك كل صنف . وكان هذا في البلاد الشامية . انظر الجزء الثامن من نهاية الأرب ص ٢٦١ طبع دار الكتب المصرية .

(٤) لعل صوابه : « التفادير » أي تقادير ما تخرجه الأرض من غلة .

(٥) « فما » .

(٦) في الأصل : « الأعمال » وهو خطأ من الناسخ ؛ ولعل صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه قوله بعد : « حتى إذا جباها » .

(٧) في الأصل : « فيمكنه » واليباق يقتضى زيادة « لا » النافية .

(٨) « ينجي » .

وجزيرة رموس أهل الذمة وصدقات الإبل والبقر والغنم وأخماس الغنائم والمعادن والركاز^(١) والمال المدفون ، وما يخرج من البحر وما يؤخذ من التجار إذا مروا بالعاشر^(٢) واللقطة والصالة وميراث من لا وارث له ومال^(٣) الصدقة ؛ إلى غير ذلك من الأمور المحتاجة إلى المكاتبات البالغة على الرسوم المعتادة والعادات الجارية ، كعهد ينشأ في إصلاح البريد وتقسيط الشرب ، وكتاب في العبارة وإعادة ما نقص منها ، وفي^(٤) حَزْرِ الغلة^(٥) والدياس^(٦) ، وفي الدوالي والدواليب والغرافات ، وفي القلب والقسمة ، وفي تقدير الخضر^(٧) المبكرة وفي المساحة وفي الطراز^(٨) ، وفي الجوالى^(٩) ، وفي قبص فرائض الصدقات ، وفي أفتتاح الخراجات ، إلى غير ذلك من كُتُب^(١٠) المحاسبين .

فإن قلت : « هذا كله مستغنى عنه » كبرت وبهت ، لأن مدار المال ودورره ، وريادته ووفوره على هذه الدواوين التي إما أن يكون حظّ البلاغة فيها أكثر ، وإما أن يكون أثر الحساب فيها أظهر ، وإما أن يتكافأ ؛ فعلى جميع الأحوال لا يكون الكاتب كاملا ، ولا لأسمه مستحقا ، إلا بعد أن ينهض

(١) الركاز ، هو دفين الجاهلية من الأموال .

(٢) العاشر ، هو الذى يأخذ منهم عشر ما معهم .

(٣) « وفي مال » .

(٤) في الأصل « في » بقوط واو العطف ؛ والسياق يقتضى إثباتها .

(٥) في الأصل « حرر العلم » ؛ وهو تحريف في كلتا الكلمتين لا يستقيم معاه ؛ والاصواب ما أمنتنا . والحزر : التقدير بالطن .

(٦) دياس الحطة : دراستها .

(٧) « الحصر » .

(٨) الطراز : قسم الماء في النهر كما ذكره صاحب مفاتيح العلوم في الكلام على مصطلح

كتاب ديوان الماء . ثم قال : وتسمى مقاسم المياه في بلاد ما وراء النهر : الدرقات والمزرقات .

(٩) يريد بالجوالى : مال الحوالى ، وهو الجزية المضروبة على أهل الذمة ، والجوالى هم الذين جلبوا عن أوطانهم .

(١٠) « كسوة » .

بهذه الأتقال ، ويجمع إليها أصولاً من الفقه محلولة ^(١) وفروعها ، وآيات من القرآن مضمومة إلى سعته ^(٢) فيها ، وأخباراً كثيرة مختلفة في فنون شتى لتكون عُدّة عند الحاجة إليها ، مع الأمثال السائرة والأبيات النادرة ؛ والفقر البديعة ؛ والتجارب المعهودة ، والمجالس المشهودة ، مع خطّ كتبه مسبوك ، ولفظ كوشي محوّل ؛ ولهذا عزّ الكمال في هذه الصناعة ، حتى قال أصحابنا : ما نظنّ أنه أُجتمِعَ هذا كله إلّا لجمهر بن يحيى فإن كتابته كانت سوادية ، وبلاغته سحابة ، وسياسته يونانية ، وآدابه عربية ^(٣) ، وشمائله عراقية ؛ أفلا ترى كيف غرق الحساب في غمار هذه الأبواب ؟ ثم اعلم أن البليغ مُستعمل بلاغته من العقل ، وما أخذه فيها من التمييز الصحيح ، وليس كذلك الحساب في متناوله [فلو ^(٤)] ظنّ ظانّ بأن مدار الملْك على الحساب — [فهو ^(٥)] صحيح — ولكن بعد بلاغة المنشئ ، لأن السلطان يأمر وينهى ويلاطف ويخاطب ويحتج وينصف ويوعد ويعد ويضمن ويمنّي ويعلق الأمل ويؤكّد الرجاء ويحسم المادّة الضارة ويذيق الرعيّة حلاوة العدل ويحجّبهم مرارة الجور ، ثم يجبي ، فإذا جبي احتاج إلى الحساب حتى يكون بالحاصل عالماً ، ثمّ يتقدّم بتوزيع ذلك على الحساب حتى يكون من الغلط آمناً ، فانظر إلى المنزلتين كيف اختلفتا ؟ وكيف حصلت المزية لإحدهما : ولو أنصفت لعلت أن الصناعة جامعة بين الأمرين ، أعنى الحساب والبلاغة ؛ والإنسان لا يأتي إلى صناعة فيشقيها نصفين ويشرف ^(٥) أحد النصفين على الآخر .

(١) « محطوة » .

(٢) إلى سعته فيها ، أى إلى تبحره في فهمها .

(٣) « عقلية » .

(٤) هاتان الكلمتان اللتان تحت هذا الرقم ليستا بالأصل ؛ والسياق يقتضى إنباتهما أو

إنبات ما يؤدّى معناها .

(٥) « يسرف » .

وأما قولك : « إحدى الصناعتين هزلٌ والأخرى جدٌ » فبئسما سوَّأتَ لك نفسك على البلاغة ، هي الجدُّ ، وهي الجامعة لثمرات العقل ، لأنها تُحقِّقُ الحقَّ وتُبطلُ الباطل على ما يجب أن يكون الأمرُ عليه ؛ ثم تحقيق الباطل وإبطال الحقِّ لأغراضٍ تختلف ، وأغراضٍ تأتلف ، وأمورٍ لا تخلو أحوال هذه الدنيا منها من خيرٍ وشرٍّ ، وإباءٍ وإذعانٍ ، وطاعةٍ وعصيانٍ ، وعدلٍ وعدولٍ^(١) ، وكفرٍ وإيمانٍ ، والحاجة تدعو إلى صانع البلاغة وواضع الحكمة وصاحب البيان والخطابة ؛ وهذا هو حدُّ العقل والآخر حدُّ العمل .

وأما قولك : « الإنشاء صناعة محمولة المبدأ ، والحساب معروف المبدأ » فقد خَرِفْتَ^(٢) ، لأنَّ مبدأها من العقل ، وممرَّها على اللفظ ، وقرارها في الخطِّ ؛ وأنت إذا قلتَ هذا دَلَلْتَ من نفسك على أنَّه ليس لك [ما]^(٣) تبصر^(٤) به هذا المبدأ الشريف وهذا الأوَّل اللطيف .

وأما قولك : « والبلاغة زخرفة وهي شبيهة بالسراب » فقد أَوْضَحْنَا لك فيه ما كفى ، فإن لم يكفِ فأنت محتاج إلى بَيِّنَةٍ أُخْرَى .

وأما قولك : « إن أصحابها يُسْتَرْقَعُونَ » فهذا شَنَعٌ من القول ، ولو عرفتَ الصِّدْقَ^(٥) فيه لم تَنَبَّسْ به ولم تنطق بحرف منه ، فإن فيه زِرَافَةً على السافِ الصالح والصدر الأوَّل ، ولو وجب أن يُسْتَرْقَعَ البليغ إذا كان عاقلاً ، لوجب أن يُسْتَعْقَلَ الْعَيِّيُّ^(٦) إذا كان أحمق ؛ وهذا خُلْفٌ .

(١) يريد بالعدول : الجور ، من عدل عن الطريق عدولاً إذا نكب عنه وانحرف .

(٢) « صدقت » .

(٣) هذه الكلمة التي بين مربعين ساقطة من الأصل ؛ والسياق يقتضيها .

(٤) « تبصر » .

(٥) « الصرف » .

(٦) « الفبي » .

وأما قولك : « المنشئ والمعلم والنحوي إخوة في الركابة » فما يتعلم الناس إلا من المعلم والعالم والنحوي وإن ندر منهم واحد قليل البضاعة من الحق .

وأما قولك : « إن المملكة تكتفي بمنشئ واحد » فقد صدقت ، وذلك أن هذا الواحد في قوته يفي بأحاد كثيرة ، وهؤلاء الأحاد ليس في جميعهم وفاء بهذا الواحد ، وهذا عليك لا لك . لكن بقي أن تفهم أنك محتاج إلى الأسا كفة أكثر مما تحتاج إلى العطارين ، ولا يدل هذا على أن الإسكاف أشرف من العطار ، والعطار دون الإسكاف ؛ والأطباء أقل من الخياطين ، ونحن إليهم أحوج ، ولا يدل على أن الطبيب دون الخياط .

وأما قولك : « ما زال الناس يحثون أولادهم على تعلم الحساب ويقولون : « هو سلة الخبز » فهو كما قلت ، لأن الحاجة إليه عامة للكبار والصغار ؛ وأشرف الصناعات يحتاج إليها أشرف الناس ، وأشرف الناس الملوك ، فهو محتاج إلى البليغ والمنشئ والمحور ، لأنه لسانه الذي ينطق ، وعينه التي بها يبصر ، وعيبتة التي منها يستخرج الرأي ويستبصر في الأمر ، ولأنه بهذه الخاصة لا يجوز أن يكون له شريك ، لأنه حامل الأسرار ، والحدث بالمسكنونات ، والمفضى إليه يثبات الصدور .

وأما قولك : « من عبّر عما في نفسه بلفظ ملحون أو محرّف وأفهم غيره فقد كفى » فكيف يصحّ هذا الحكم ويُقبل هذا الرأي ؟ والكلام يتغير المراد فيه باختلاف الإعراب ، كما يتغير الحكم فيه باختلاف الأسماء ، وكما يتغير المفهوم باختلاف الأفعال ؛ وكما يتقلب المعنى باختلاف الحروف ؛ ولقد قال رجل بالرمي كان نبيلاً في حاله جليلاً في مرتبته عظيماً عند نفسه : « أقعد حتى تنغذى بنا » وهو يريد : « حتى تنغذى معنا » ؛ فأُنظر إلى هذا المُحال الذي ركبهُ بلفظه

وإلى المراد الذى جَانَبَهُ بجهله ؛ ولهذا نظائر غيرُ خافية عليك ولا ساقطةٍ دونك وكفى بالبلاغة شرفاً أنك لم تستطع تهجينها إلاً بالبلاغة ، ولم تهتد إلى الكلام عليها إلا بقوةها ؛ فانظر كيف وجدت فى استقلالها بنفسها ما يُقِلُّها ويُقِلُّ غيرَها ؛ وهذا أمرٌ بديع وشأنٌ عجيب .

وأما قولك : « ومن آفاتنا أن أصحابها يُقرِّفون بالريبة ويُنالون بالعيب » فهذا ما لا يستحقُّ الجواب ، وما يضرُّ الشمسُ نُباحُ الكلاب ؛ وصيانة اللسان عن هذا النوع أحسن ؛ قال الله تعالى : (وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) ؛ وقال عمر بن الخطَّاب — رضى الله عنه — لو كان المرء أقومَ من قِدْحٍ لوُجِدَ له غامر . وآل ابنِ وهب وابن ثوبة كانوا أنبل وأفضل وأعقل من أن يُظنَّ بهم ما لا يُظنُّ بخساس العبيد وسفهاء الناس وداصة^(١) الرعية وسفلة العامة ؛ على أنا ما سمعنا هذا إلا فى مجلس ابنِ عباد ، منه وممن كان يُحْبِطُ^(٢) فى هواه ، ويتحرى بمثل هذه الأحاديث رضاه ؛ وحسدهُ لهم فى صناعتهم يبعثه على هذه الأكاذيب عليهم ؛ فالعجب أنه يظن أن كذبه على غيره ينفي الصدق عن نفسه ؛ ولو نزه^(٣) لسانه ومجلسه ومذهبه وأبوته لكان أولى به وأزین له ، ولكن النعمة والقدرة إذا عَدِمَتَا عقلا سائسا وحزما حارسا ودينا متينا وطريقا قويا أوردتا ولم تُصدرا وخدلتا ولم تَنْصُرَا ؛ ونعوذ بالله من نعمة تحوُّر بلاء ، ومرحبا ببلاء يورث يقظة ويكون تمحيصا لما نقص من التقصير ؛ ولكن من هذا الذى يَشْرَب فلا يَسْكُر ولا يَثْمَل ؟ ومن هذا الذى إذا سَكِرَ عَقَلَ ؟ ومن هذا الذى إذا صحا لا يعتقب من شرايه سُخارا يصدع الراس ويمكن الوسواس ؟

(١) الداصة : الخساس الجبناء . واللصوص أيضا .

(٢) فى الأصل : « يحط » ؛ وهو تصحيف .

(٣) « كله » .

فقال : هذه جملة قائمة لمن أَدعى دعواه أو نَحَا مَنَحاها ؛ وأتَى لك هذا ؟
لَمْ لَا تُدَاخِلُ صاحبَ ديوانٍ وَلَمْ تَرْضَ لنفسك بهذا اللبوس ؟ فقلتُ :
« أنا رجلٌ حُبُّ السلامة غَالِبٌ عَلَيَّ ، والقناعةُ بالطيف محبوبَةٌ عِنْدِي » .
فقال : كُنيتَ عن الكسل بحبِّ السلامة ، وعن الفُسولة بالرضا باليسير .
قلتُ : إذا كُنْتُ لَا أَصِلُ إِلَى السلامة إِلَّا بالفُسولة ، وَلَا أَتَلْعَمُ الراحة إِلَّا
بالكسل ، فمرحبا بهما .

فقال : لكلِّ إنسانٍ رَأْيٌ وأختيارٌ وعادةٌ وَمَنَشَأٌ ومألوفٌ وقُرْآنٌ متى زُحِرَ ح
عنها قَلِقٌ ، ومتى أُرِيعَ^(١) على سواها فَرِقٌ ؛ أَظُنُّ أَنَّهُ قد نَصَفَ اللَّيْلَ . قلتُ :
لعلَّه . قال : في الدَّعة ؛ قد خَبَأْتُ لك مسألة ، وسأُقيها عليك بعدها — إن شاء
الله تعالى — وانصرفتُ .

الليلة الثامنة

(١) وقال لي مرة أخرى : أوَصَلَ وهبُ بن يعيش الرقي^(٢) اليهودي رسالةً يقول
في عُرْضِها بعد التقريظ الطويل العريض : إن هنا طريقاً في إدراك الفلسفة
مذَلَّةً مَسْلُوكَةً مختصرةً فسيحةً ، ليس على سالِكها كَدٌّ ولا شَقٌّ في بلوغ ما يريد
من الحكمة ونيل ما يطلب من السعادة وتحصيل الفوز في العاقبة ؛ وإن أصحابنا
طَوَّلُوا وهَوَّلُوا وطرحوا الشوك في الطريق ، وَمَنَعُوا من الجواز عليه غشاً منهم وبجلاً
ولوَّم طَباعَ وقلةً نصَحَ وإتاعاً للطلاب وحسداً للراغب ، وذلك أَنَّهُم اتَّخَذُوا
المنطق والهندسة وما دخل فيهما معيشةً ومكسبةً ، وما أَكَلَة ومشرَبة ، فصار ذلك

(١) « أربع » .

(٢) ورد هذا الاسم في المقابلات ؛ وكان أبو حيان يسأله في مسائل فلسفية .

كسور من حديد لطلاب الحكمة والمحبتين للحقيقة والمتصفحين لأنشاء العالم .
وكلاما هذا معناه ، وإلى هذا يرجع مغزاه .

فكان من الجواب : قد عرفتُ مذهب ابن يعيش في هذا الباب ، وهو
جارى ، وكتب هذه الرسالة على هذا الطراز بالأمس إلى الملك السعيد سنة
سبعين^(١) ، وتقرّب بها ، ونفعته بالمسألة والتفقد له ، فإنه شديد الفقر ، ظاهرُ
الخصاصة ، لاصق بالدقء^(٢) ؛ ولّذى قاله وأدعاه ، وقصده وأنتحاه ، وجه واضح
وحجّة ظاهرة ؛ ولّذى قاله أصحابنا — أعنى مخالفه — وجهٌ أيضا وتأويل
وللقولين أنصار ومُحماة ، وحفظة ورعاة .

قال : هاتِ — على بركة الله — فإني أحب أن أسمع في هذا الخطب^(٣)
كلّ ما فيه وأكثر ما يتصل به ؛ فكان من الجواب أن ابن يعيش يريد
بهذه الخطبة أن عمر الإنسان قصير ، وعلم العالم كثير ، وسيره^(٤) مغمور ؛
وكيف لا يكون كذلك وهو ذو صفائح مركّبة بالوضع^(٥) المحكم ، وذو نوائد
مزيّنة بالتأليف المعجب المتقن ؛ والإنسان الباحث عنه وعمّا يحتويه ذو قوى
متقاصرة ، وموانع معتريضة ، ودواعٍ ضعيفة ، وإنه مع هذه الأحوال منتبه
بالحسّ ، حالمٌ بالعقل ، عاشق^(٦) للشاهد ، ذاهل عن الغائب ، مستأنسٌ بالوطن
الذى ألفه ونشأ فيه ، مستوحشٌ من بلد لم يسافر إليه ولم يُلمّ به وإن كان صدر
عنه^(٧) ، فليس له بذلك معرفة باقية ولا ثقة تامّة ؛ وإن الأولى بهذا الإنسان

(١) يعى بعد الثلاثمائة .

(٢) الدقء : الأرض لا نبات بها . والتراب . وهذه العارة كناية عن الفقر الشديد .

(٣) الخطب : الشأن .

(٤) « وشره » .

(٥) « بالوصف » .

(٦) « ما شق » .

(٧) عه ، أى عن البلد .

المنعوت بهذا الضعف والعجز أن يلتبس مسلکا إلى سعادته ونجاته قريبا ويعتصم بأسهل الأسباب على قدر جهده وطوقه ؛ وإن أقرب الطرق وأسهل الأسباب هو في معرفة الطبيعة والنفس والعقل والإله تعالى ، فإنه متى عرف هذه الجملة بالتفصيل ، وأطلع على هذا التفصيل بالجملة ، فقد فاز الفوز الأكبر ونال الملك الأعظم ، وكُنِيَ مؤونة عظيمة في قراءة الكتب الكبار ذوات الورق الكثير ، مع العناية المتصلة في الدرس والتصحيح والتَّصَبُّب في المسألة والجواب ، والتنقير عن الحق والصواب ؛ وهذا الذي قاله ابن يعيش ليس بحيف ولا خارج عن حَوْمة الحق ، وإن كان الأمر فيه أيضا صعبا وشاقا وهائلا وعاملا ، ولكن ليس لكل أحد هذه القوَّة الفائضة ، وهذه الخصوصية الناهضة ؛ وهذا الاستبصارُ الحَسَن ، وهذا الطبع الوَقَاد ، والذهنُ المُنْقَاد ، والقرينة الصافية والأستبانة والتأمل ، لأن هذه القوَّة الإلهية ، فإن لم تكن إلهية فهي مَلَكية ؛ وإن لم تكن مَلَكية فهي في أَفْق البشرية ؛ وليس يوجد صاحبُ هذا النعت إلَّا في الشاذِّ النادر ، وفي دهرٍ مديدٍ بين أمةٍ جمَّةٍ العَدَد ؛ والفائقُ من كلِّ شيءٍ والبائن من كلِّ صنفٍ عزيزٌ في هذا العالمِ الوحشيِّ ، كما أن الرديءَ والفسادَ معدوم في هذا العالمِ الإلهيِّ ، ويمكن أن يقال بالمثل الأدنى : إن من يتكلم بالإعراب والصحة ولا يَلَحَن ولا يَخْطِئُ ويمجى على السليقة الحميدة والضريبة السليمة ، قليل أو عزيز ، وإن الحاجة شديدة لمن عدم هذه السجية وهذا المنشأ إلى أن يتعلَّم النحو ويقف على أحكامه ، ويمجى على منهاجه ، وينبى بشروطه في أسماء العرب وأفعالها وحروفها وموضوعاتها ومستعملاتها ومهملاتها ؛ ومتى أتق^(١) إنسانُ بهذه الخلية^(٢) وعلى هذا النَّجَار ، فلعمري إنَّه غنى عن تطويل

(١) اتفق لسان ، أى وجد بطريق الاتفاق ، أى الصدفة .

(٢) لعله « الخلية » .

النحويين كما يستغنى قارضُ الشعر بالطبع عن علم العروض ، وهكذا يستغنى صاحبُ تلك القوة التي أشار إليها ابن يعيش عن ذلك ، ولكن أين ذاك الفرد والشاذ والنادر ؟ فإن حضر فما تفعل معه إلا أن تقلده وتأخذ عنه وتتبعه .

وإنما المدار على أن تكون أنت بهذا السكّال حائزاً لهذه الغاية ، ولا سبيل لك إليها من تلقاء نفسك ، وإنما هو شيء يأتي من تلقاء غيرك ، فإذا بالضرورة وبالواجب ينبغي أن تخطو على آثار المنطقيين والطبيين والمهندسين بالزحف والعناء والتكلف والدؤوب حتى تصير متشبهاً بذلك الرجل الفاضل والواحد السكّال والبديع النادر ؛ فقد بان من هذا القدر صواب ما أشار إليه ابن يعيش وأنكشف أيضاً وجه ما حث عليه مخالفوه ؛ ولا عيب على المنقوص أن يطلب الزيادة ببذل الجهد ، وإن السكّال مربوط بما مُنح من العطية من غير طلب . وأما قوله في صدر كلامه : « إن القوم صدّوا عن الطريق وطرحوا الشوك فيه ، وأنخذوا نشر الحكمة نحا للمثالة ^(١) العاجلة » ، فما أبعد ، بل قارب الحق فإن متى ^(٢) كان يُملي ورقة بدرهم مقتدرتي وهو سكران لا يعقل ، ويتهمك ، وعنده أنه في ربح ، وهو من الأخسر بن أعمالا ، الأسفلين أحوالا .

ثم إنى أيها الشيخ — أحياء الله لأهل العلم وأحيى بك طالبيه — ذكرت (٢) للوزير مناظرة جرت في مجلس الوزير أبي الفتح [الفضل بن ^(٤)] جعفر بن القرات بين أبي سعيد السيرافي وأبي بشر ^(٥) متى وأختصرتها ؛ فقال لي : اكتب هذه

(١) المثالة : حسن الحال ؛ ومهقولهم : كلما زدت مثالة ، زادك الله رعالة ؛ والرعاة : الحق .

(٢) « متى » .

(٣) انظر التعريف بأبي سعيد السيرافي في الحاشية رقم ١ من صفحة ٢٥ من هذا الجزء .

(٤) هاتان الكلمتان لم تردا بالأصل وقد أثبتناهما عن معجم ياقوت . وأبو الفتح هذا كان

وزير المقتدر الخليفة العباسي سنة عشرين وثلاثمائة .

(٥) موضع هذا الاسم حروف مطبوسة في الأصل ؛ وقد أثبتناه هكذا نقلا عن المقابسات

وأخذنا من الكلام الآتي . وأبو بشر متى ، هو ابن يونس الثاني من أهل دير قتي . كان =

المنظرة على التمام فإن شيئاً يجري في ذلك المجلس النبیه بین هذين الشيخين بمحضرة أولئك الأعلام ينبغي أن يُعْتَمَّ سماعه، وتُوعَى فوائده، ولا يُتَهاوَنَ بشيء منه. فكتبت^(١): حدثني أبو سعيد بلعم من هذه القصة. فأما علي بن عيسى الشيخ الصالح فإنه رواها مشروحة.

لما أنقعد المجلس سنة ست وعشرين وثلاثمائة، قال الوزير ابن الفرات للجماعة — وفيهم الخالدی وأبن الأخشاد والكتبي وابن أبي بشر وأبن رباح وابن كعب وأبو عمرو قدامة بن جعفر والزهری وعلي بن عيسى الجراح وابن فراس وابن رشيد وأبن عبد العزيز الهاشمي وابن يحيى العلوی ورسول ابن طعج من مصر والمرزبانى صاحب آل سامان^(٢) — ألا^(٣) ينتدب منكم إنسان لمنظرة متى في حديث المنطق، فإنه يقول: لا سبيل إلى معرفة الحق من الباطل والصدق من الكذب والخير من الشر والخجة من الشبهة والشك من اليقين إلا بما حويناها^(٤) من المنطق وملكناه من القيام به، وأستفدناه من واضعه على مراتبه وحدوده، فاطلنا عليه من جهة اسمه على حقائقه. فأحجم القوم وأطرقوا قال ابن الفرات. والله إن فيكم لمن يني بكلامه ومناظرته وكسر ما يذهب إليه وإني لأعدكم في العلم بحارا، وللدین وأهلہ أنصارا، وللحق وطلابه منارا؛ فما هذا الترامز والتغامز اللذان^(٥) تجلّون عنهما؟ فرفع أبو سعيد السيرافي رأسه فقال: أعذر أيها الوزير، فإن العلم المصون في الصدر غير العلم المعروف في هذا

= نصرانيا علما بالمنطق، وإليه انتهت رئاسة المنطقين في زمه، نزل بغداد بعد سنة عشرين وثلاثمائة، وكانت وفاته في سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة.

(١) « وكنت ».

(٢) « ساسان ».

(٣) « أن ينتدب ».

(٤) « جربناه ».

(٥) ف. الأصا: « اللذين ».

المجلس على الأسماع المصِيخة^(١) والعيون المَحْدِقة والعقول الحادّة^(٢) والألباب الناقدة ؛ لأن هذا يستصحب الهيبة ، والهيبة مَكْسرة ، ويَجْتَلِبُ الحياء ، والحياء مَغْلَبَة ؛ وليس الرّاز في معركة خاصّة كالْمِصَاع^(٣) في بقعة عامّة .

فقال ابن الفرات : أنت لها يا أبا سعيد ، فأعتذارك عن غيرك يوجب عليك الانتصار لنفسك ، والانتصار في نفسك راجع إلى الجماعة بفضلك . فقال أبو سعيد : مخالفة الوزير فيما رَسَمَهُ هُجْنَة ، والأحتجازُ عن رأيه إخلاد إلى التقصير ؛ ونعوذ بالله من زَلّة القَدَم ، وإياه نَسأل حُسْنَ المعونة في الحرب والسِّلم ؛ ثمّ واجهه مَتّى [فقال^(٤)] : حدّثني عن المنطق ما تَعَنَّى [به] ؟ فإنّا إذا فهمنا مرادك فيه كان كلالنا معك في قبول صوابه وردّ خطئه على سَنَنِ مَرَضِيٍّ وطريقة معروفة .

قال مَتّى : أعنى به أنّه آله من آلات الكلام يُعرَفُ بها صحيح الكلام من سقيمه ، وفاسدُ المعنى من صالحه ، كالْمِيران ، فإنّي أعرف به الرُّجْجَان من النقصان ، والشائل^(٥) من الجانح .

فقال أبو سعيد : أخطأت ، لأن صحيح الكلام من سقيمه يُعرَفُ بالنظم المألوف والإعراب المعروف إذا كنّا نَتَكَلَّمُ بالمرَبِّيّة ؛ وفاسد المعنى من صالحه يُعرَفُ بالعقل إذا كنّا نبحث بالعقل ؛ وهَبْكَ عرفتَ الراجح من الناقص من

(١) « المطنجة » .

(٢) في الأصل : « الجامة » وهو تحريف . وفي معجم الأدباء ترجمة أنى سعيد السيرافي : الجامة ؛ وهو تحريف أيضا لا يستقيم به المعنى ، وأمل صوابه ما أثبتنا .

(٣) المصاع : من صاع الشجاع أقرانه : إذا حمل عليهم ففرق جمعهم .

(٤) لم ترد هذه الكلمة التي بين مربعين في الأصل .

(٥) في الأصل : « والسائل » بالسين المهملة ؛ وهو تصحيف . والشائل : المرتفع .

والجانح : المائل .

طريق الوزن ، فمن لك^(١) بمعرفة الموزون أيما^(٢) هو حديد أو ذهب أو شبه^(٣) [أو رصاص]^(٤) ؟ فأراك بعد معرفة الوزن فقيرا إلى معرفة جوهر الموزون وإلى معرفة قيمته وسائر صفاته التي يطول عدّها ؛ فعلى هذا لم ينفعك الوزن الذي كان عليه اعتمادك ، وفي تحقيقه كان أجهادك ، إلا نفعا يسيرا من وجه واحد ، وبقيت عليك وجوه ، فأنت^(٥) كما قال الأول^(٦) :

* حفظت شيئا وغابت عنك أشياء *

وبعد ، فقد ذهب عليك شيء هاهنا ، ليس كل ما في الدنيا يوزن ، بل فيها ما يوزن ، وفيها ما يُكّال ، وفيها ما يُذرع ، وفيها ما يُمسح و [فيها ما]^(٧) يحزر وهذا وإن كان هكذا في الأجسام المثلثة ، فإنه على ذلك أيضا في المعقولات المقررة ؛ والإحساسات^(٨) ظلال العقول تحكيها بالتقريب والتبعيد ، مع الشبه المحفوظ والمائلة الظاهرة . ودع هذا ؛ إذا كان المنطق وضعه^(٩) رجل من يونان على لغة أهلها واصطلاحهم عليها وما يتعارفونه بها من رسومها وصفاتها . فمن أين يلزم التُّرك والهند والفرس والعرب أن ينظروا فيه ويتخذوه قاضيا وحكما لهم وعليهم ، ما شهد لهم به قبلوه ، وما أنكره رفضوه ؟

(١) « من ذلك »

(٢) « أيما » .

(٣) الشبه بالتحريك : النحاس الأصفر .

(٤) الكلمة التي بين مربعين عن ياقوت .

(٥) في الأصل : « قال » ؛ وهو تحريف .

(٦) هو أبو نواس ؛ وأول البيت : فقل لمن يدعى في العلم فلسفة * حفظت شيئا الخ .

(٧) لم ترد هذه الكلمة التي بين مربعين في الأصل ؛ وقد أثبتناها عن المقابسات

لأبي حيان .

(٨) « والاحتباس ظلال العقول تحكيها » .

(٩) « وصفه » .

قال متى : إنما زعم ذلك لأن المنطق يَحْتُ^(١) عن الأغراض المعقولة والمعاني المدركة ، وتصفّح للخواطر السانحة والسوانح الهاجسة ؛ والناس في المعقولات سواء ألا ترى أن أربعة وأربعة [ثمانية] سواء عند جميع الأمم ، وكذلك ما أشبهه .

قال أبو سعيد : لو كانت المطلوبات بالعقل والمذكورات باللفظ ترجع مع شعبها المختلفة وطرائقها المتباينة إلى هذه المرتبة البينة في أربعة وأربعة وأنهما ثمانية ، زال الاختلاف وحضر الاتفاق ، ولكن ليس الأمر هكذا ، ولقد موته بهذا المثال ، ولكم عادة بمثل هذا التمويه ؛ ولكن مع هذا أيضا إذا كانت الأغراض المعقولة والمعاني المدركة لا يوصل إليها إلا^(٢) باللغة الجامعة للأسماء والأفعال والحروف ، أفليس قد لزمت الحاجة إلى معرفة اللغة ؟ قال : نعم . قال : أخطأت ، قل في هذا الموضع : بلى . قال : بلى ، أنا أقلدك في مثل هذا . قال : أنت إذا لست تدعونا إلى علم المنطق ، إنما تدعو إلى تعلم اللغة اليونانية وأنت لا تعرف لغة يونان ، فكيف صرت تدعونا إلى لغة لا تفق بها ؟ وقد عفت منذ زمان طويل ، وباد أهلها ، وأنقرض القوم الذين كانوا يتعاضون بها ، ويتفاهمون أغراضهم بتصاريقها ؛ على أنك تنقل من السريانية ، فما تقول في معان متحوّلة^(٣) بالنقل من لغة يونان إلى لغة أخرى سريانية ، ثم من هذه إلى أخرى عربية ؟

قال متى : يونان وإن بادت مع لغتها ، فإن الترجمة حفظت الأغراض وأدت المعاني ، وأخلصت الحقائق .

(١) « بحث » .

(٢) ورد في الأصل بعد قوله : « إلا » جيم وألف وذال ، وهي زيادة من الناسج : والصواب حذفها .

(٣) « مملوكة » .

قال أبو سعيد : إذا سلمنا لك أن الترجمة صدقت وما كذبت ، وقومت .
وما حرّفت ، ووزنت^(١) وما جرّفت ، وأنها [ما]^(٢) أثاثت ولا حافت ، ولا
نقصت ولا زادت ، ولا قدّمت ولا أخرت ، ولا أخلّت بمعنى الخاصّ والعامّ
ولا [بأخصّ الخاصّ^(٣) ولا] بأعمّ العامّ — وإن كان هذا لا يكون ، وليس هو
في طبائع اللغات ولا في مقادير المعاني — فكأنك تقول : لا حجة إلا عقول
يونان ، ولا برهان إلا ما وضعوه ، ولا حقيقة إلا ما أبرزوه .

قال متى : لا ، ولكنهم من بين الأمم أصحابُ عناية بالحكمة والبحث عن
ظاهر هذا العالم وباطنه ، وعن كلّ ما يتصل به وينفصل عنه ، وفضل عنايتهم
ظهر ما ظهر وأنتشر ما أنتشر وفشا ما فشا [ونشأ ما نشأ] من أنواع العلم وأصناف
الصنائع ؛ ولم نجد هذا لغيرهم .

قال أبو سعيد : أخطأت وتعضّبت ومِلتَ مع الهوى ، فإنَّ عِلْمَ العالم
مبثوث في العالم بين جميع من في العالم ، ولهذا قال القائل :

العلم في العالم مبثوث ونحوه الماقل محثوث

وكذلك الصناعات مفضوضة على جميع من على جَدَدِ^(٤) الأرض ؛ ولهذا
غلب علم في مكان دون علم ، وكثرت صناعة في بقعة دون صناعة ؛ وهذا واضح
والزيادة عليه مشعّلة ؛ ومع هذا فإنما كان يصحّ قولك وتسلم دعواك لو كانت
يونان معروفة من بين جميع الأمم بالعصمة الغالبة ، والفطنة الظاهرة ، والبنية

(١) في الأصل : « ووريت وما حرّفت » ، وهو تصحيف في كلتا الكلمتين . يقال
جرف فلان الشيء ، أى باعه أو اشتراه خزافا بلا كيل ولا وزن .

(٢) هذه الكلمة التي بين مربعين لم ترد في الأصل .

(٣) هذه العبارة التي بين مربعين لم ترد في الأصل ؛ وقد أثبتناها عن المقابسات .

(٤) الجدد بالتحريك : ما استوى من الأرض . وفي الأصل « جديد » ولم نجد من

معانيه ما يناسب السياق .

الخلافية ، وأنهم لو أرادوا أن يخطئوا لما قَدَرُوا ، ولو قَصَدُوا أن يكذبوا ما أَسْتَطَاعُوا
وأن السكينة نزلت عليهم ، والحق تكفل بهم ، والخطأ تبرأ منهم ؛ والفضائل
لصقت بأصولهم وفروعهم ، والذائل بعدت من جواهرهم وعروقهم ؛ وهذا جهلٌ
تَمَنَّى يظنّه بهم ، وعنادٌ ممن يدّعيه لهم ؛ بل كانوا كثيرهم من الأمم يصيبون
في أشياء ويخطئون في أشياء ، ويعلمون أشياء ويجهلون أشياء ، ويصدقون
في أمور ويكذبون في أمور ، ويحسنون في أحوال ويسئون في أحوال ؛ وليس
واضع المنطق يونانُ بأسرها ، إنما هو رجل منهم ، وقد أخذ عَمَّنْ قبله كما أخذ
عنه مَن بعده ؛ وليس هو حجةٌ على هذا الخلق الكثير والجمّ الفقير ، وله مخالفون
منهم ومن غيرهم ؛ ومع هذا فالأختلاف في الرأي والنظر والبحث والمسألة
والجواب سِنَخٌ^(١) وطبيعة ، فكيف يجوز أن يأتيَ رجل بشيء يرفع به هذا
الخلاف أو يحلّله أو يؤثر فيه ؟ [هيات^(٢)] هذا محال ، ولقد بقى العالم بعد
منطقه على ما كان عليه قبل منطقهِ ؛ فأمسح وجهك بالسلوة عن شيء لا يستطيع
لأنّه منعقد بالفطرة والطباع ؛ وأنت لو فرّغت بالك وصرفت عنايتك إلى معرفة
هذه اللغة التي تحاورنا بها ، وتجارينا فيها ، وتدارس أصحابك بمفهوم أهلها
وتشرح كتب يونانَ بعادة أصحابها ، علمت أنك غنيٌّ عن [معاني^(٣)] يونان كما
أنتك غنيٌّ عن لغة [يونان .

وهاهنا مسألة ، تقول : إن الناس عقولهم مختلفة ، وأنصباؤهم منها متفاوتة .
قال : نعم . قال : وهذا الاختلاف والتفاوت بالطبيعة أو بالأكتساب ؟ قال :
بالطبيعة . قال : فكيف يجوز أن يكون هاهنا شيء يرتفع به هذا الاختلاف

(١) السخ : الأصل . وقد وردت هذه الكلمة في الأصل مهمة الحروف من القط .

(٢) الكلمة التي بين مربعين عن معجم الأدباء .

(٣) لم ترد هذه العبارة التي بين مربعين في الأصل . وقد أئنتناها عن المقابسات ص ٧٣

الطبيعيّ والتفاوت الأصليّ؟ قال متى : هذا قد مر في جملة كلامك آنفا . قال أبو سعيد : فهل وصلتَه بمجواب قاطع وبيانٍ ناصع ؟ ودَعَ هذا ؛ أسألك عن حرف واحد ، وهو دائر في كلام العرب ، ومعانيه متميِّزة عند أهل العقل ؛ فأستخرج أنت معانيه من ناحية منطق أرسطاطاليس الذي تُدَلِّ به وتُبَاهِي بتفخيمه ، وهو (الواو) ما أحكامه ؟ وكيف مواقفه ؟ وهل هو على وجه أو وجوه ؟ فبُهِتَ متى وقال : هذا نحو ، والنحو لم أنظر فيه ، لأنه لا حاجة بالمنطقيّ إليه ، وبالنحويّ حاجة شديدة إلى المنطق ، لأنّ المنطق يبحث عن المعنى ^(١) [والنحو يبحث ^(٢) عن اللفظ] ، فإن مر المنطقيّ باللفظ فبالعرَض ، وإن عثر النحويّ بالمعنى فبالعرَض والمعنى أشرف من اللفظ ، واللفظ أوضع من المعنى .

فقال أبو سعيد : أخطأت ، لأن الكلام ^(٣) والنطق واللغة واللفظ والإفصاح والإعراب والإبانة والحديث والإخبار والاستخبار ^(٤) والعرَض [والتمنّى ^(٥)] والنهي والحضّ والدعاء والنداء والطلب كلّها من واد واحد بالمشاكلة والمماثلة ، ألا ترى أنّ رجلا لو قال : « نطق زيد بالحقّ ولكن ما تكلم بالحقّ ، وتكلم بالفُحش ولكن ما قال الفُحش ، وأعرب عن نفسه ولكن ما أفصح ، وأبان المراد ولكن ما أوضح ، أو فاهَ بمحاجته ولكن ما لَفَظ ، أو أخبر ولكن ما أنبأ » ، لكان في جميع هذا محرّفاً ومناقضاً وواضعا للكلام في غير حقّه ، ومستعجِلا اللفظ على غير

(١) في الأصل : « اللفظ » ؛ وهو تبديل من الناسخ لا يستقيم به المعنى .

(٢) لم ترد هذه العبارة التي بين مربعين في الأصل ، وقد أثبتناها عن المقابسات ، إذ لا يستقيم الكلام بدونها .

(٣) في المقابسات : « لأن النحو والمنطق » .

(٤) الظاهر أنّ في قوله « والاستخبار » تبديلا من الناسخ صوابه « والإنباء » بدليل قوله في التمثيل الآتي « أو أخبر ولكن ما أنبأ »

(٥) الكلمة التي بين مربعين عن معجم الأدباء .

شهادة [من] عقله^(١) وعقل غيره ؛ والنحو منطق ولكنه مسلوخ من العربية والمنطق نحو ، ولكنه مفهوم باللغة ، وإنما الخلاف بين اللفظ والمعنى أن اللفظ طبيعي والمعنى عقلي ؛ ولهذا كان اللفظ بائدا على الزمان ، لأن الزمان يقفو أثر الطبيعة [بأثر آخر^(٢) من الطبيعة] ولهذا كان المعنى ثابتا على الزمان ، لأن مستمل المعنى عقل ، والعقل إلهي ؛ ومادة اللفظ طينية ، وكل طين متهايت ؛ وقد بقيت أنت بلا أسم لصناعتك التي تنتحلها ، وآلتك التي تزهي بها ، إلا أن تستعير من العربية لها أسما فتعار ، ويسلم لك ذلك بمقدار ؛ وإذا لم يكن لك بد من قليل هذه اللغة من أجل الترجمة^(٣) فلا بد لك أيضا من كثيرها من أجل تحقيق الترجمة وأجتلاب الثقة والتوقى من الخلطة اللاحقة .

فقال متى : يكفيني من لغتكم هذه الأسم والفعل والحرف ، فإني أتبلغ بهذا القدر إلى أغراض قد هدبته إلى يونان .

قال [أبو سعيد] : أخطأت ، لأنك في هذا الاسم والفعل والحرف فقير إلى وصفها وبنائها على الترتيب الواقع في غرائز أهلها ؛ وكذلك أنت محتاج بعد هذا إلى حركات هذه الأسماء والأفعال والحروف ، فإن الخطأ والتحريف في الحركات كالخطأ والفساد في المتحرّكات ، وهذا باب [أنت^(٤) وأصحابك ورهطك عنه في غفلة ؛ على أن هاهنا سرّا ما علق بك ، ولا أسفر لعقلك ؛ وهو أن تعلم أن لغة من اللغات لا تطابق^(٥) لغة أخرى من جميع جهاتها بمحدود

(١) « وعفلة » .

(٢) العبارة التي بين مربعين عن المقاسات ومعجم الأدباء .

(٣) « التجربة » .

(٤) هذا الكلام الذي بين هذين المربعين لم يرد في الأصل ؛ وقد أثبتناه عن المقاسات .

(٥) « تناطق » .

صفاتها ، في أسمائها وأفعالها وحروفها وتأليفها وتقديمها وتأخيرها ، وأستعارتها وتحقيقها ، وتشديددها وتخفيفها ، وسعتها وضيقها ونظمها ونثرها وسجعها ، ووزنها وميلها ، وغير ذلك مما يطول ذكره ؛ وما أظنّ أحدا يدفع هذا الحكم أو يشكّ في صوابه ممن يرجع إلى مُسَكَّةٍ من عقل أو نصيبٍ من إنصاف ، فمن أين يجب أن تَثَقُ بشيء تُرْجِمُ لك على هذا الوصف ؟ بل أنت إلى تعرّف اللغة العربيّة أحوج منك إلى تعرّف المعاني اليونانيّة ؛ على أنّ المعاني لا تكون يونانيّة ولا هنديّة ، كما أنّ اللغات تكون فارسيّة وعربيّة وتركّيّة ؛ ومع هذا فإنّك تزعم أن المعاني حاصلة بالعقل والفحص والفكر ، فلم يبق إلّا أحكام اللّغة ، فلم تُزِرْ على العربيّة وأنت تشرح كتب أرسطوطاليس بها ، مع جهلك بحقيقتها ؟

وحدّثني عن قائل قال لك : حالي في معرفة الحقائق والتصفّح لها [والبحث عنها]^(١) حال قوم كانوا قبل واضع المنطق ، أنظر كما نظروا ، وأتدبّر كما تدبّروا ، لأنّ اللغة قد عرفتُها بالنشأ والوراثة ، والمعاني نفرتُ عنها بالنظر والرأى والأعتقاد والاجتهاد . ماتقول له ؟ أتقول : إنّه لا يصحّ له هذا الحكم ولا يستتبّ هذا الأمر ، لأنّه لا يعرف هذه الموجودات من الطريق التي عرفتُها أنت ؟ ولعلّك تفرح بتقليده لك — وإن كان على باطل — أكثر مما تفرح باستبداده وإن كان على حقّ ؛ وهذا هو الجهل المبين ، والحكم المشين^(٢) .

ومع هذا ، فحدّثني عن الواو ما حكمه ؟ فإني أريد أن أبين أنّ تفخيمك للمنطق لا يغني عنك شيئا ، وأنت تجهل حرفا واحدا في اللغة التي تدعو بها إلى

(١) هذه العبارة التي بين مربعين لم ترد في الأصل ؛ وقد أبتناها عن معجم الأدباء لياقوت والمقابس للمؤلف .

(٢) في رواية أخرى « غير المستبين » ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا .

حكمة يونان ، ومن جهل حرفاً أمكن أن يجهل حروفاً ، ومن جهل حروفاً جاز أن يجهل اللغة بكاملها ، فإن كان لا يجهلها كلها ولكن يجهل بعضها ، فلعلة يجهل ما يحتاج إليه ، ولا ينفعه فيه علم ما لا يحتاج إليه . وهذه رتبة العامة أو رتبة من هو فوق العامة بقدر يسير ؛ فلم يتأبى على هذا ويتكبر ، ويتوهم أنه من الخاصة وخاصة الآخر : ، وأنه يعرف سرّ الكلام وغامض الحكمة وحتى القياس وصحيح البرهان ؟

وإنما سألتك عن معاني حرف واحد ، فكيف لو نثرت عليك الحروف كلها ، وطالببتك بمعانيها ومواضعها التي لها بالحق ، وآلت لها بالتجوز ؛ سمعتم تقولون : إن « في » لا يعرف النحويون مواقعها ، وإنما يقولون : هي « للواء » كما [يقولون] : « إن الباء للإلصاق » ؛ وإن « في » تقال على وجوه : يقال « الشيء في الإثناء » « والإثناء في المكان » « والسائس [في السياسة] » « والسياسة في السائس » .

أترى أن هذا التشقيق هو من عقول يونان ومن ناحية لغتها ؟ ولا يجوز أن يُعقل هذا بعقول الهند والترك والعرب ؟ فهذا جهل من كل من يدعيه ، وخطأ من القول الذي أفاض فيه ؛ النحوي إذا قال « في » للواء^(١) فقد أفصح في الجملة عن المعنى الصحيح ، وكفى مع ذلك عن الوجوه التي تظهر بالتفصيل ؛ ومثل هذا كثير ، وهو كافٍ في موضع التَّكْنِيَةِ^(٢) .

فقال ابن الفرات : أيها الشيخ الموفق ، أجبه بالبيان عن مواقع « الواو »

(١) في الأصل : « للوما » وما أثبتناه عن المقابسات ص ٧٧ إذ به يستقيم الكلام .

(٢) في الأصل : « التبكيت » وفي المصادر الأخرى « السكت » ؛ وفي كلا اللفظين تحريف لا يستقيم به المعنى ؛ ولعل صوابه ما أثبتنا .

حتى تكون أشدَّ في إخمائه ، وحقق عند الجماعة ما هو عاجز عنه ، ومع هذا فهو مشنّع^(١) به .

قال أبو سعيد : للواو وجوه ومواقع : منها معنى العطف في قولك : « أكرمت زيدا وعمرا » ومنها القسم في قولك : « والله لقد كان كذا وكذا » ومنها الاستئناف في قولك : « خرجتُ وزيد قائم » لأن الكلام بعده ابتداء وخبر ومنها معنى رُبَّ التي هي للتقليل نحو قولهم^(٢) : * وقَاتِمِ الأعماقِ حاوِي المحترَقِ * ومنها أن تكون أصلية في الأسم ، كقولك : واصلٌ واقِدٌ وافِدٌ ، وفي الفعل كذلك ، كقولك : وجِلَ يَوجِلُ ؛ ومنها أن تكون مقحمة نحو قول الله عز وجل . (فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ) ، أي ناديناه ؛ ومثله قول الشاعر^(٣) :

* فلما أجزنا ساحةَ الحمى وانتحى * المعنى : انتحى بنا ؛ ومنها معنى الحال في قوله عز وجل : (وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا) أي يكلم الناس في حال كهولته ؛ ومنها أن تكون بمعنى حرف الجر ، كقولك : استوى الماء والخشبة أي مع الخشبة .

فقال ابن الفرات : [لمتى] : يا أبا بشر : أكان هذا في نحوك^(٤) .

ثم قال أبو سعيد : دع هذا ، هاهنا مسألة علاقتها بالمعنى العقلي أكثر من علاقتها بالشكل اللفظي ، ما تقول في قول القائل : « زيد أفضل الإخوة » ؟

(١) في الأصل والمقابسات « مشنّع » . وفي معجم ياقوت « مشنّع » . وفي كلا اللفظين تصحيف .

(٢) هذا الشطر من شعر رؤبة بن العجاج .

(٣) هذا الشطر صدر بيت لامرئ القيس ، وبجزه : بنا بطن خبت ذى حفاف عققل .

(٤) في المقابسات « في منطقتك » ؛ وهي أنسب .

قال : صحيح . قال : فما [تقول ^(١)] إن قال « زيد أفضل إخوته » ؟ قال : صحيح .
قال : فما [الفرق بينهما [مع الصَّحَّة ^(٢)] فبلَّح ^(٣)] وجَنَحَ وغصَّ بريقه .

فقال أبو سعيد : أفيتَّ على غير بصيرة ولا أستبانه ؛ المسألة الأولى جوابُك عنها صحيح وإن كنت غافلا عن وجه صحتها ؛ والمسألة الثانية جوابُك عنها غير صحيح وإن كنت أيضا ذاهلا عن وجه بطلانها .

قال متى . بين لى ما هذا التهجين ؟

قال أبو سعيد : إذا حضرتَ الحَلَقَة ^(٤) استفتدت ، ليس هذا مكان التدريس هو مجلس إزالة التلبيس ، مع من عاداته التمويه والتشبيه ؛ والجماعة تعلم أنك أخطأت ، فلم تدعى أن النحوى إنما ينظر فى اللفظ دون المعنى ، والنطقى ينظر فى المعنى لا فى اللفظ ؟ هذا كان يصح لو أن النطقى كان يسكت ويحيل ^(٥) فكره فى المعانى ، ويرتب ما يريد بالوهم السامع والخطر العارض والحَدْس الطارى ؛ فأما وهو يريد أن يبرّر ^(٦) ما صح له بالاعتبار والتصفح إلى المتعلم والمُناظر ، فلا بد له من اللفظ الذى يشتمل على مراده ، ويكون طباقا لفرضه ، وموافقا لقصده ^(٧) .

قال ابن الفرات لأبى سعيد : تمَّ لنا كلامك فى شرح المسألة حتى تكون الفائدة ظاهرة لأهل المجلس ، والتبكيكُ عاملا فى نفس أبى بشر .

(١) هذه العبارة الموضوعية بين مربعين ساقطة من الأصل . وقد أثبتناها عن المقابسات وبها يستقيم المعنى .

(٢) هذه العبارة التى بين مربعين لم ترد فى الأصل . وقد أثبتناها عن المقابسات .

(٣) بلح : أعجى وعجز . وجنح ، أى مال .

(٤) المختلفة .

(٥) ويحيل .

(٦) يزن .

(٧) لضده .

فقال : ما أكره من إيضاح الجواب عن هذه المسألة إلا ملل الوزير ؛
فإن الكلام إذا طال ملّ .

فقال ابن الفرات : ما رغبت في سماع كلامك وبينى وبين الملل علاقة ؛
فأما الجماعة فحرصها على ذلك ظاهر .

فقال أبو سعيد : إذا قلت : « زيد أفضل إخوته » لم يجز ، وإذا قلت :
« زيد أفضل الإخوة » جاز ؛ والفصل بينهما أن إخوة زيد هم غير زيد ، وزيد خارج
عن جملتهم . والدليل على ذلك أنه لو سأل سائل فقال : « من إخوة زيد » .
لم يجز أن تقول : زيد وعمرو وبكر وخالد [وإنما ^(١) تقول : بكر وعمرو وخالد]
ولا يدخل زيد في جملتهم ، فإذا كان زيد خارجا عن إخوته صار غيرهم ، فلم يجز
أن تقول : أفضل إخوته ، كما لم يجز أن تقول : « إن حمارك أفره ^(٢) البغال »
لأن الحمير غير البغال ، كما أن زيدا غير إخوته ، فإذا قلت : « زيد خير الإخوة »
جاز ، لأنه أحد الإخوة ، والأسم يقع عليه وعلى غيره ، فهو بعض الإخوة ، ألا
ترى أنه لو قيل : « من الإخوة » ؟ عددته فيهم ، فقلت : « زيد وعمرو وبكر
وخالد » فيكون بمنزلة قولك : « حمارك أفره الحمير » لأنه داخل تحت الأسم
الواقع على الحمير . فلما كان على ما وصفنا جاز أن يضاف إلى واحد منكور يدل
على الجنس ، فتقول : « زيد أفضل رجل » و « حمارك أفره حمار » فيدل « رجل »
على الجنس كما دل الرجال ؛ وكما في « عشرين درهما ومائة درهم » .

فقال ابن الفرات : ما بعد هذا البيان مزيد ، ولقد جلّ علم النحو عندي
بهذا الاعتبار وهذا الإسفار .

(١) هذه العبارة التي بين مربعين لم ترد في الأصل . وقد أثبتناها عن المقابسات إذ بها
يستقيم الكلام .

(٢) في المقابسات « أفضل » ؛ والمعنى عليها يستقيم أيضا .

فقال أبو سعيد : معانى النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته ، وبين وضع الحروف فى مواضعها المقتضية لها ، وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير وتوخي الصواب فى ذلك وتجنّب الخطأ من ذلك ، وإن زاغ شئ عن هذا النعت فإنه لا يخلو من أن يكون سائعا بالأستعمال النادر والتأويل البعيد ، أو مردودا لخروجه عن عادة القوم الجارية على فطرتهم . فأما ما يتعلق باختلاف لغات القبائل فذلك شئ مسلم لهم ومأخوذ عنهم ، وكل ذلك محصور بالتنوع والرواية والسماع والقياس المطرد على الأصل المعروف من غير تحريف ، وإنما دخل العجب على المنطقيين لظنهم أن المعانى لا تُعرف ولا تُستوضح إلا بطريقهم ونظرهم وتكلفهم ، فترجوا لغة هم فيها ^(١) ضعفاء ناقصون . وجعلوا تلك الترجمة صناعة ، وأدّعوا على النحويين أنهم مع اللفظ لا مع المعنى .

ثم أقبل أبو سعيد على متى فقال : أما تعرف ^(٢) يا أبا بشر أن الكلام أسم واقع على أشياء قد اختلفت بمراتب ، وتقول ^(٣) بالمثل : هذا ثوب والثوب اسم يقع على أشياء بها صار ثوبا ، لأنه نُسجَ بعد أن غزل ، فسدائه لا تكفى دون لُحْمَتِهِ وَلُحْمَتُهُ لا تكفى دون سدائه ، ثم تأليفه ^(٤) كنسجه ، وبلاغته كقصارته ^(٥) ورقة سلكه كرقّة لفظه ، وغلظ غزله ككثافة حروفه ، ومجموع هذا كله ثوب ، ولكن بعد تقدمة كل ما يحتاج إليه فيه .

قال ابن الفرات : سله يا أبا سعيد عن مسألة أخرى ، فإن هذا كلّمّا توالى

(١) عبارة الأصل : « فترجوا لعمهم بهما » ؛ وهو تحريف .

(٢) رواية المقابسات : « ألا تعلم » والمعنى عليه يستقيم أيضا .

(٣) عبارة المقابسات : « مثال ذلك أن تقول » والمعنى يستقيم عليه أيضا .

(٤) كذا فى المقابسات . والذى فى الأصل : « بالنقل » ؛ وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : « لنضارته » ؛ وهو تحريف .

عليه بان أنقطاعه ، وأنخفض أرتفاعه ، في المنطق الذي ينصره ، والحق الذي [لا^(١)] يُبصره .

قال أبو سعيد : ما تقول في رجل يقول : « لهذا على درهم غير قيراط ؛ ولهذا الآخر على درهم غير قيراط » . قال : مالى علم بهذا التَّمَط . قال : لست نازعا عنك حتى يصحّ عند الحاضرين أنك صاحب مخرقة وزرّق^(٢) ، هاهنا ما هو أخفّ من هذا ، فال رجل لصاحبه : « بكم الثوبان المصبوغان » ، وقال آخر : « بكم ثوبان مصبوغان » وقال آخر : « بكم ثوبان مصبوغين » بين هذه المعانى التى تضمّنها لفظٌ لفظ .

قال متى : لو نثرتُ أنا أيضا عليك من مسائل المنطق أشياء لكان حالك كحالى .

قال [أبو سعيد] : أخطأت ، لأنك إذا سألتنى عن شيء أنظر فيه ، فإن كان له علاقة بالمعنى وصحّ لفظه على العادة الجارية أجبت ، ثم لا أبالى أن يكون موافقا أو مخالفا ، وإن كان غير متعلّق بالمعنى رددته عليك ، وإن كان متّصلا باللفظ ولكن على وضعٍ لكم فى الفساد على ما حشوتهم به كتبكم رددته أيضا لأنه لا سبيل إلى إحداث لغة فى لغة مقرّرة بين أهلها .

ما وجدنا لكم إلّا ما أستمعتم من لغة العرب [كالسبب والآلة^(٣)] والسلب والإيجاب والموضوع والمحمول والكون والفساد والمهمّل والمحضور وأمثلة لا تنفع ولا تُجدي ، وهى إلى العيِّ أقرب ، وفى الفهامة أذهب .

(١) لم ترد هذه الكلمة التى بين مربعين فى الأصل . وقد أثبتناها عن المقابسات .

(٢) يريد بالزرّق : الخداع كما يستفاد من كتب اللغة فقد ورد فى اللسان ومستدرک التاج « رجل زراق » ، أى خداع . ولم يذكر فى هذين الكتّابين فعله ولا مصدره .

(٣) الزيادة التى بين مربعين عن المقابسات ومعجم الأدباء .

ثم أتم هؤلاء في منطقكم على نقص ظاهر ، لأنكم لا تقولون^(١) بالكتب ولا هي مشروحة ، فتدعون الشعر ولا تعرفونه^(٢) وتذكرون^(٣) الخطابة وأتم عنها في منقطع التراب ؛ وقد سمعتُ قائلكم يقول : الحاجة ماسة إلى كتاب البرهان . فإن كان كما قال فلمِ قُطِع الزمانُ بما قبله من الكتب ، وإن كانت الحاجة قد مسّت إلى ما قبل البرهان ، فهي أيضا ماسةٌ إلى ما بعد البرهان ، وإلا فلمِ صُنِفَ مالا يحتاج إليه ويستغنى عنه . هذا كله تخليط وزرق وتهويل ورعد وبرق .

وإنما بودّكم^(٤) أن تشغلوا جاهلا ، وتستذلّوا عزيزا ؟ وغايتكم أن تهولوا بالجنس والنوع والخاصة والفصل والعرض والشخص ، وتقولوا : الهليّة^(٥) والأينية والماهية والكيفية والكمية والذاتية والعرضية والجوهرية والهوية والصورية والأيسية^(٦) والليسية والنفسية ؟ ثم تتناولون^(٧) فتقولون : « جننا بالسّحر » في قولنا : « لا » في شيء من « ب » و « ج » في بعض « ب » ، ف « لا » في بعض « ج » و « لا » في كل « ب » و « ج » في كل « ب » فإذن « لا » في كل « ج »^(٨) ؛ هذا بطريق الخلف ، وهذا بطريق الاختصاص .

(١) كذا في المقابسات . والذي في الأصل : « تقولون » ؛ وهو تحريف .

(٢) في الأصل : « تذكرونه » ؛ وما أثبتناه عن المقابسات .

(٣) في المقابسات « وتدعون » ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا .

(٤) في الأصل : « قولكم » ؛ وهو تحريف .

(٥) الهلية والأينية : نسبة إلى « هل » و « أين » الاستفهاميتين ؛ والنسبة في الألفاظ التي بعدها معروفة .

(٦) الأيسية والليسية : الإثبات والنفي .

(٧) في المقابسات : « يتمطون » أي بتشديد الطاء .

(٨) كذا في الأصل ، ولعل صحة العبارة : لا « أ » في شيء من « ب » و « ج » في بعض « ب » ف « أ » إذن لا في « ج » و « أ » لا في كل « ب » و « ج » في بعض « ب » ف « أ » إذن ليس في « ج » كما يقتضيه علم المنطق .

وهذه كلها خرافات وثُرَّهات ، ومغالق وشبكات ؛ ومن جاد عقله وحسُن تمييزه ولطف نظره وثقُب رأيه وأنارت نفسه أَسْتَغْنَى عن هذا كله — بعون الله وفضله — وجُودَةُ العقل وحُسْنُ التمييز ولُطْفُ النظر وثُقُوبُ الرأى وإنارة النفس من منافع الله الهنيئة ، ومواهبه السنية ، يختص بها من يشاء من عباده وما أعرف لأستطالكم بالمنطق وجها ، وهذا الناشئ أبو العباس قد نَقَضَ عليكم وتبمع طريقكم ، وبين خطأكم ، وأبرز ضَعْفَكم ، ولم تقدروا إلى اليوم أن تردوا عليه [كلمة واحدة ^(١)] مما قال ، وما زدتم ^(٢) على قولكم : لم يعرف غرضنا ولا وقف على مرادنا ، وإنما تكلم على وهم . وهذا منكم تحاجز ونكول ورضى بالعجز وكُلُول ، وكل ما ذكرتم في الموجودات فعليكم فيه ^(٣) اعتراض هذا قولكم في « يفعل وينفعل » لم تستوضحوا فيهما مراتبهما ومواقعهما ، ولم تقفوا على مقاسمهما ، لأنكم قنعتم فيهما بوقوع الفعل من « يفعل » وقبول الفعل من « ينفعل » ، ومن وراء ذلك غايات خفيت عليكم ، ومعارف ذهبت عنكم وهذا حالكم في الإضافة .

فأما البدل ووجوهه ، والمعرفة وأقسامها ، والنكرة ومراتبها ، وغير ذلك مما يطول ذكره ، فليس لكم فيه مقال و [لا] مجال .
وأنت إذا قلت للإنسان . « كن منطقيا » ، فإنما تريد : كن عقليا أو عاقلا أو أعقل ما تقول ^(٤) لأن أصحابك يزعمون أن النطق هو العقل ؛ وهذا قول مدخول ، لأن النطق على وجوه أتم عنها في سهو .

(١) العبارة التي بين مربعين عن المقابسات .

(٢) في الأصل : « زدتم » والكاف زيادة من الناسخ .

(٣) « عليه » .

(٤) « ما يكون » .

وإذا قال لك آخر : « كن نحوياً لغوياً فصيحاً » فإنما يريد : افهم عن نفسك ما تقول ، ثم رُم أن يفهم عنك غيرك .

وقدّر اللفظ على المعنى فلا يفضل عنه ، وقدّر المعنى على اللفظ فلا ينقص منه ؛ هذا إذا كنت في تحقيق شيء على ما هو به . فأما إذا حاولت فرش المعنى وبسط المراد فأجل اللفظ بالروادف الموضحة والأشباه المقرّبة ، والاستعارات الممتعة ، وبين^(١) المعاني بالبلاغة ، أعني لوّح منها شيء حتى لا تصاب إلا بالبحث عنها والشوق إليها ، لأن المطلوب إذا ظفر به على هذا الوجه عزّ وحلا ، وكرّم وعلا ؛ وشرح منها شيئاً حتى لا يمكن أن يمتري [فيه] أو يتعب في فهمه أو يعرج عنه لأعتماضه ؛ فهذا المذهب يكون جامعاً لحقائق الأشباه ولأشباه الحقائق ؛ وهذا بابٌ إن استقصيته خرج عن نمط ما نحن عليه في هذا المجلس ؛ على أنى لا أدري أيؤثر فيك ما أقول أو لا ؟

ثم قال : حدثنا هل فصلتم [قطّ] بالمنطق بين مختلفين ، أورفعتم الخلاف بين اثنين ؛ أثراك بقوة المنطق وبرهانه اعتقدت أن الله ثالث ثلاثة ، وأن الواحد أكثر من واحد ، وأن الذي هو أكثر من واحد هو واحد ، وأن الشرع ما تذهب إليه ، والحق ما تقوله^(٢) ؟ هيهات ، هاهنا أمور ترتفع عن دعوى أصحابك وهذيانهم ، وتدقّ عن عقولهم وأذهانهم .

ودع هذا ، هاهنا مسألة قد أوقعت خلافاً ، فارفع ذلك الخلاف بمنطقك . قال قائل : « لفلان من الحائط إلى الحائط » ما الحكم فيه ؟ وما قدر المشهود به لفلان ؟ فقد قال ناس : له الحائطان معا وما بينهما . وقال آخرون :

(١) في معجم الأدباء : « وسدد » .

(٢) « ما هو له » .

له [النصف من كلٍ منهما . وقال آخرون ^(١) : له] أحدهما . هات الآيتك الباهرة ، ومعجزتك القاهرة ، وأنت لك بهما ، وهذا قد بان بغير نظرٍ ونظرٍ أصحابك .

ودع هذا أيضا ؛ قال قائل : « من الكلام ما هو مستقيم حسن ، ومنه ما هو مستقيم محال ، ومنه ما هو مستقيم قبيح ، ومنه ما هو محال كذب ، ومنه ما هو خطأ » . فسر هذه الجملة . وأعرض عليه عالم آخر ، فاحكم أنت بين هذا القائل والمعتز وأرنا قوة صناعتك التي تميز [بها] بين الخطأ والصواب ، وبين الحق والباطل ؟ فإن قلت : كيف أحكم بين اثنين أحدهما قد سمعتُ مقالته ، والآخر لم أحصلُ اعتراضه ؟ قيل لك : استخرج بنظرك الاعتراض إن كان ما قاله محتملا له ، ثم أوضح الحق منهما ، لأن الأصل مسموع لك ، حاصلٌ عندك وما يصحّ به أو يردُّ عليه يجب أن يظهر منك ، فلا تتعاسر ^(٢) علينا ، فإن هذا لا يخفى على [أحد ^(٣)] من الجماعة .

فقد بان الآن أن مركّب اللفظ لا يحوز مبسوط العقل ؛ والمعاني معقولة ولها اتصال شديد وبساطة تامة ؛ وليس في قوة اللفظ من أى لغة كان أن يملك ذلك المبسوط ويحيط به ، وينصب عليه سورا ، ولا يدعُ شيئا من داخله أن يخرج ، ولا شيئا من خارجه أن يدخل ، خوفا من الأختلاط الجالب للفساد ، أعنى أن ذلك يخلط الحق بالباطل ، ويشبه الباطل بالحق ؛ وهذا الذى وقع الصحيح منه فى الأول قبل وضع المنطق ، وقد عاد ذلك الصحيح فى الثانى بعد ^(٤) المنطق ؛

(١) التكملة التي بين مربعين لم ترد فى الأصل ؛ وقد أثبتناها عن المقابسات .

(٢) « تنقلش » .

(٣) كذا فى المقابسات . والذى فى الأصل : « على من حضرته » ؛ وهو تحريف لا يستقيم به معنى الجملة .

(٤) فى المقابسات « بهذا » .

وأنت لو عرفتَ تصرفَ العلماء والفقهاء في مسائلهم ، ووقفتَ على غورهم في نظريهم وغوصهم في استنباطهم ، وحسنِ تأويلهم لِمَا يَرِدُ عليهم ، وسعةِ تشقيقهم للوجوه المحتكمة والكنايات المفيدة والجهات القريبة والبعيدة ، لحقَّتْ نفسك ، وأزدريت أصحابك ، ولكان ما ذهبوا إليه وتابَعوا عليه أقلَّ في عينك من الشُّها عند القمر ، ومن الحِصا عند الجبل . أليس الكِنْدِيُّ وهو علم في أصحابك يقول ^(١) في جواب مسألة « هذا ^(٢) من باب عدّ » . فعَدَّ الوجوه بحسب الاستطاعة على طريق الإمكان من ناحية الوهم بلا ترتيب ، حتَّى وضعوا له مسائل من هذا الشكل وغالطوه بها وأرَوْه أنَّها من الفلسفة الداخلة ، فذهب عليه ذلك الوضع ، فاعتقد فيه أنه [صحيح وهو ^(٣)] مريض العقل فاسد المزاج حائلُ الغريزة مشوَّشُ اللَّب .

قالوا له : أخبرنا عن أَصْطِكَاكِ ^(٤) الأجرام ، وتَضَاغُطِ الأركان ؟ هل يدخل في باب وجوب الإمكان ؟ أو يخرج من باب الفُقْدان إلى ما يَحْتَجُّ عن الأذهان ؟ وقالوا له أيضا : ما نسبة الحركات الطبيعية إلى الصُّور الهَيُولَانِيَّة ؟ وهل هي ملابسة للكِيان في حدود النظر والبيان ، أو مزايلَةٌ له مزايلَةٌ على غاية الإحكام ؟ وقالوا له : ما تأثير فُقْدان الوجودان في عدم الإمكان عند أمتناع الواجب من وجوبه في ظاهرٍ مالا وجوب له لاستحالته في إمكان أصله ؟ وعلى هذا فقد حُفِظ جوابُه عن جميع هذا على غاية الرَّكَاكَةِ والضعف [والفساد] والفسالة

(١) في الأصل : « يقولون » ، والواو والنون زيادة من الناسخ .

(٢) في الأصل : « عدم » ، وفي بعض المصادر الأخرى « عدة » وهي غير واضحة المعنى في كلتا الروايتين ؛ ولعلَّ الصواب ما أثبتنا .

(٣) لم ترد هذه العبارة التي بين مربعين في الأصل .

(٤) في الأصل : « استقصائك » ؛ وهو تحريف .

والسُّخْفُ . ولولا التَّوَقُّعُ مِنَ التَّطَوُّيلِ لَسَرَدْتُ ذَلِكَ كُلَّهُ ، وَلَقَدْ مَرَّ بِي فِي خَطِّهِ :
التَّفَاوُتُ فِي تَلَاثِي الْأَشْيَاءِ غَيْرُ مُحَاطٍ بِهِ ، لِأَنَّهُ يَلَاقِي الْإِخْتِلَافَ فِي الْأَصُولِ
وَالْإِتْفَاقِ فِي الْفُرُوعِ ؛ وَكُلُّ مَا يَكُونُ عَلَى هَذَا النَّهْجِ فَالْنَّكَرَةُ تَزَاحِمُ عَلَيْهِ
الْمَعْرِفَةُ ، وَالْمَعْرِفَةُ تُنَاقِضُ النَّكَرَةَ ، عَلَى أَنَّ النَّكَرَةَ وَالْمَعْرِفَةَ مِنْ بَابِ الْأَلْبَسَةِ
الْعَارِيَةِ مِنْ مَلَابِسِ الْأَسْرَارِ الْإِلَهِيَّةِ ، لَا مِنْ بَابِ الْإِلَهِيَّةِ الْعَارِضَةِ فِي
أَحْوَالِ الْبَشَرِيَّةِ .

وَلَقَدْ حَدَّثَنَا أَصْحَابُنَا الصَّابِقُونَ عَنْهُ بِمَا يُضْحِكُ الشَّكْلِيَّ وَيُشْمِتُ الْعَدُوَّ
وَيَغْمُ الصَّدِيقَ ، وَمَا وَرِثَ هَذَا كُلَّهُ إِلَّا مِنْ بَرَكَاتِ يُونَانَ وَفَوَائِدِ الْفَلَسَفَةِ وَالْمَنْطِقِ
وَنَسْأَلُ اللَّهَ عَصْمَةً وَتَوْفِيقًا نَهْتَدِي بِهِمَا إِلَى الْقَوْلِ الرَّاجِعِ إِلَى التَّحْصِيلِ ، وَالْفِعْلِ
الْجَارِي عَلَى التَّعْدِيلِ ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مَجِيبٌ .

هَذَا آخَرُ مَا كَتَبْتُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ عِيسَى الرَّمَّانِيِّ الشَّيْخِ الصَّالِحِ بِإِمْلَائِهِ .
وَكَانَ أَبُو سَعِيدٍ قَدْ رَوَى لَمَعًا مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ .

وَكَانَ يَقُولُ : لَمْ أَحْظَ عَنْ نَفْسِي كُلِّ مَا قُلْتُ ، وَلَكِنْ كَتَبْتُ ذَلِكَ أَقْوَامَ
حَضَرُوا فِي أَلْوَاَحٍ كَانَتْ مَعَهُمْ وَمُحَاطَرُ أَيْضًا ؛ وَقَدْ اخْتَلَّ عَلَى كَثِيرٍ مِنْهُ .

قَالَ عَلِيُّ بْنُ عِيسَى : وَتَقَوَّضَ الْمَجْلِسُ وَأَهْلُهُ يَتَعَجَّبُونَ مِنْ جَاشِ أَبِي سَعِيدٍ
الثَّابِتِ وَلِسَانِهِ الْمُتَصَرِّفِ وَوَجْهِهِ الْمُتَهَلِّلِ وَفَوَائِدِهِ الْمُتَتَابِعَةِ .

وَقَالَ الْوَزِيرُ ابْنُ الْفَرَاتِ : عَيْنُ اللَّهِ عَلَيْكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ ، فَقَدْ نَدَيْتُ أَكْبَادًا
وَأَقْرَرْتُ عَيُونًا ، وَبَيَّضْتُ وَجُوهًا ، وَحُكَّتْ طِرَازَا لَا يَبْلِيهِ الزَّمَانُ ، وَلَا يَنْطَرِّقُ
إِلَيْهِ الْخُدَّانُ .

قُلْتُ لَعَلِيَّ بْنَ عِيسَى : وَكَمْ كَانَتْ سِنُّ أَبِي سَعِيدٍ ^(١) فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ؟

(١) فِي الْأَصْلِ : « عَلِيُّ بْنُ عِيسَى » ؛ وَهُوَ خَطَأٌ مِنَ النَّاسِخِ .

قال : مولده سنة ثمانين ومائتين ، وكان له يومَ المُنَاطَرَةِ أربعون سنة ، وقد عَيشَ الشَّيْبَ بِلَهَازِمِهِ^(١) مع السَّمْتِ والوَقَارِ والدِّينِ والجِدِّ ، وهذا شعار أهل الفضل والتقدّم ، وقلّ من تظاهر به أو تحلّى بحليته إلا جَلَّ في العيون وعظم في النفوس ، وأحبّته القلوب ، وجرت بمدحه الألسنة .

وقلت لعمليّ بن عيسى : أما كان أبو عليّ^(٢) الفسوّيّ النحويّ حاضرَ المجلس ؟ قال : لا ، كان غائبا ، وحُدِّثَ بما كان ، فكان يكتُمُ الحَسَدَ لأبي سعيد على ما فاز به من هذا الخبر المشهور ، والثناء المذكور .

(٣) فقال لي الوزير^(٣) عند منقطع هذا الحديث : ذكرتني شيئا قد دار في نفسي مرارا ، وأحببت أن أقف على واضحِه ؛ أين أبو سعيد من أبي عليّ ، وأين عليّ بن عيسى منهما ، وأين ابنُ المِراغِيّ أيضا من الجماعة ؟ وكذلك المرزُبانيّ وابنُ شاذان وابنُ الورّاق وابنُ حَيّويه ؟

فكان من الجواب ، أبو سعيد أجمعُ لشمَلِ العلم ، وأنظَمُ لمذاهبِ العربِ وأدخَلَ في كلِّ باب ، وأخرجُ من كلِّ طريق ، وألزمُ للجادة الوسطى في الدينِ والخُلُقِ ، وأروى في الحديث ، وأقضى في الأحكام ، وأفقه في الفتوى ، وأحضرُ بركة على المختلفة ، وأظهرُ أثرا في المقتبسة . ولقد كتب إليه نوح بن نصر — وكان من أدباء ملوك آل سامان — سنة أربعين^(٤) كتابا خاطبه فيه بالإمام

(١) اللهازم : جمع لهزمة بكسر اللام ، وهي مجتمعة اللحم بين الماضغ والأذن ؛ أو هي العظم الثاني في اللحية تحت الأذن ، وما لهزمتان ؛ ويريد هنا الشعر النابت عليهما .

(٢) أبو عليّ الفسوّي ، هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن محمد بن سليمان بن أبان الفارسيّ النحويّ ، ولد بمدينة فسا سنة ثمان وثمانين ومائتين ، وكان إمام وقته في علم النحو وله فيه كثير من المؤلفات الوافية النافعة ، وتوفي في سنة سبع وسبعين وثلاثمائة .

(٣) يريد الوزير أبا عبد الله العارض .

(٤) أي وثلاثمائة .

وسأله عن مسائل تزيد على أربعمائة مسألة ، الغالب عليها الحروف ، وباقى ذلك أمثال مصنوعة على العرب شكَّ فيها فسأل عنها ؛ وكان هذا الكتاب مقرونا بكتاب الوزير البلعميَّ خاطبه فيه بإمام المسلمين ، ضمَّنه مسائل فى القرآن وأمثالا للعرب مشكلة .

وكتب إليه المرزبان بن محمد ملك الديلم من أذربيجان كتابا خاطبه فيه بشيخ الإسلام ، سأله عن مائة وعشرين مسألة ، أكثرها فى القرآن ، وباقى ذلك فى الروايات عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه رضوان الله عليهم .

وكتب إليه ابن حنزابة من مصر كتابا خاطبه فيه بالشيخ الجليل ، وسأله فيه عن ثلاثمائة كلمة من فنون الحديث المروى عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن السلف .

وقال لى الدارقطني سنة سبعين : أنا جمعت ذلك لأبن حنزابة على طريق المعونة .

وكتب إليه أبو جعفر ملك سجستان على يد شيخنا أبى سليمان كتابا يخاطبه فيه بالشيخ الفرد ، سأله عن سبعين مسألة فى القرآن ، ومائة كلمة فى العربية وثلاثمائة بيت من الشعر ، هكذا حدثنى به أبو سليمان ؛ وأربعين مسألة فى الأحكام وثلاثين مسألة فى الأصول على طريق التكميل .

قال لى الوزير : وهذه المسائل والجواب عنها عندك ؟ قلت : نعم . قال : فى كم تقع ؟ قلت : لعلها تقع فى ألف وخمسمائة ورقة ، لأن أكثرها فى الظهور . قال : ما أحوَجنا إلى النظر فيها والاستمتاع بها والاستفادة منها ! وأين الفراغ وأين السكون ؟ ونحن كل يوم نُدفع إلى طامة نُنسى ما سلف ، وتُوعد بالدهية

اللهم هذه ناصيتي بيدك ، فتولني بالعصمة ، وأخصني بالسلامة ، وأجعل عقباي إلى الحسنى .

ثم قال : صل حديثك .

قلت : وأما أبو علي^(١) فأشدّ تفرّدا بالكتاب^(٢) وأشدّ إكبابا عليه ، وأبعد من كلّ ما عداه ممّا هو علم الكوفيين ، وما تجاوز في اللغة كتب أبي زيد ، وأطرافا ممّا لغيره ؛ وهو متّقد بالغيط على أبي سعيد ، وبالحسد له ، كيف تمّ له تفسير كتاب سيبويه من أوّله إلى آخره بغريبه وأمثاله وشواهد وأبياته (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ) ، لأنّ هذا شيء ما تمّ للمبرد ولا للزجاج ولا لابن السراج ولا لأبن درستويه مع سعة علمهم ، وفيض كلامهم .

ولأبي علي أطراف من الكلام في مسائل أجاد فيها ولم يأتل ، ولكنه قعد على الكتاب^(٣) على النظم المعروف .

وحدثني أصحابنا أن أبا علي أشتري شرح أبي سعيد في الأهواز في توجهه إلى بغداد سنة ثمان وستين — لاحقا بالخدمة المرسومة به ، والندامة^(٤) الموقوفة عليه — بألني درهم ؛ وهذا حديث مشهور ، وإن كان أصحابه يأتون الإقرار به إلّا من زعم أنه أراد النقص عليه ، وإظهار الخطأ فيه .

وقد كان الملك السعيد — رضى الله عنه — هم بالجمع بينهما فلم يقض له ذلك ، لأنّ أبا سعيد مات في رجب سنة ثمان وستين وثلاثمائة .

(١) يريد أبا علي الفسوى السابق ذكره .

(٢) يريد بالكتاب كتاب سيبويه .

(٣) يريد بالكتاب كتاب سيبويه . يقول : لأنه اقتصر على دراسته على الطريقة المروفة .

(٤) الندامة ، أي المندامة على الشراب ، بدليل ما يأتي بعد في سطر (١) من صفحة ١٣٢ .

وأبو عليّ يشرب ويتخالّع ويفارق هذَى أهل العلم وطريقة الرابّتين^(١) وعادة المتنسّكين .

وأبو سعيد يصوم الدهر ، ولا يصلى إلّا فى الجماعة ، ويقيم على مذهب أبى حنيفة ، ويلى القضاء سنين ، ويتألّه^(٢) ويتحرّج ، وغيره بمنزل عن هذا ؛ ولولا الإبقاء على حرمة العلم ، لكان القلم يجرى بما هو خافٍ ويخبر بما هو مجمّع^(٣) ولكنّ الأخذ بحكم المروءة أولى ، والإعراض عما يجلب اللأئمة أخرى .

وكان أبو سعيد حسن الخطّ ، ولقد أراد الصّيمرى أبو جعفر على الإنشاء والتحرير فاستعفى وقال : هذا أمر يحتاج فيه إلى دُرّة وأنا عارٍ منها ، وإلى سياسة وأنا غريب فيها * ومن العناية رياضة الهرم *

وحدّثنا النّصرى^(٤) أبو عبد الله — وكان يكتب النوبة للهلبى — بحديث مفنّد^(٥) لأبى سعيد هذا موضعه ، قال : كنت أخطّ بين يدى الصّيمرى أبى جعفر محمد بن أحمد بن محمّد ، فالتسنى يوما لأنّ أجيب ابن العميد أبا الفضل عن كتاب فلم يجدنى ، وكان أبو سعيد السيرافى بحضرته ؛ فظنّ^(٦) أنّه بفضل علمه أقوم بالجواب من غيره ، فتقدّم إليه أن يكتب ويحيب ، فأطال فى عمل نسخة كثر فيها الضرب والإصلاح ، ثم أخذ يحوّر ، والصّيمرى يقرأ ما يكتبه ، فوجده مخالفا

(١) الرابّان : المتألّه العارف بالله . وفى الأصل : « الديانين » ولم نجده فى كتب اللغة بهذا المعنى .

(٢) يتألّه ، أى يتعبد ويتنسك .

(٣) مجمّع : من جمّع الكلام فى نفسه إذا لم يبينه يريد به المستتر الخافى .

(٤) كذا فى معجم الأدباء لياقوت ج ٨ ص ١٨٣ طبع الحلبي . والذى فى الأصل :

بالبرى ؛ وهو تحريف .

(٥) « معد » .

(٦) كذا فى معجم الأدباء لياقوت ج ٨ ص ١٨٣ طبع الحلبي . والذى فى الأصل : « فبان » .

الجارى العادة لفظا ، مباينا لما يريد^(١) ترتيبا .

قال : ودخلت في تلك الحال ، فتمثل الصَّيْمَرِيُّ بقول الشاعر :

يا بارى القوسِ برِّيا ليس يُصلِّحه لا تَظلمِ القوسَ ، أعطِ القوسَ بارِيا

ثم قال لأبى سعيد : خَفَّفْ عليك أيها الشيخ وأدفع الكتاب إلى أبى

عبد الله تلميذك ليُجيب عنه ، فحُجِّل من هذا القول ، فلما أبتدأتُ الجواب من

غير نسخة تَحَيَّرَ مِنِّي أبو سعيد ، ثم قال : أيها الأستاذ ، ليس بمستنكرٍ ما كان

مَنِّي ، ولا بمستكثرٍ ما كان منك ، إنَّ مال النَّفْيِ لا يَصِحُّ في بيت المال إلَّا بين

مستخرج^(٢) وجهْذٍ ، والكتَّاب جهابذة الكلام ، والعلماء مستخرجوه . فتبسَّم

الصَّيْمَرِيُّ وأعجبه ما سمع ، وقال : على كلِّ حال ما أخلِيتنا من فائدة .

وكان أبو سعيد بعيدَ القَرين ، لأنَّه كان يُقرَأُ عليه القرآنُ والفقهُ والشروطُ

والفرائض والنحو واللغة والعروض والقوافي والحسابُ والهندسة والحديث والأخبار

وهو في كلِّ هذا إمامًا في الغاية وإمامًا في الوسط .

وأما على بن عيسى^(٣) فعلى الرتبة في النحو واللغة والكلام والعروض

والمنطق ، وعِيبَ به ، إلَّا أنَّه لم يَسَلْكَ طريقَ واضع المنطق ، بل أفرَدَ صناعةً ،

وأظهرَ براعةً ، وقد عمل في القرآن كتابا نفيسا ، هذا مع الدِّينِ الثخين ، والعقل

الرزين .

وأما ابنُ المِراغى^(٤) فلا يَلْحَقُ بهؤلاء ، مع براعة اللفظ ، وسعة الحِفظ ، وعزَّة

(١) في معجم الأدياء : « لأثورة » .

(٢) مستخرج الأموال ، أى جايها ومحصلها . والجهْذ : الناقد العارف بالجد والردى .

(٣) يريد بعلى بن عيسى أبا الحسن الرمانى وهو إمام في العربية ، كان علامة في الأدب ،

إماما في النحو ، بصيرا بالمقالات ، معتزليا ، مات سنة ٣٨٤ .

(٤) ابن المِراغى هو أبو الفتح محمد بن جعفر الهمداني وكان معلما في دولة أبي منصور ،

وكان حافظا نحويا بليغا إخباريا في نهاية الشرف والحرية ؛ وله من الكتب كتاب البهجة على

مثال كتاب الكامل .

النفس ، وبلل^(١) الريق ، وغزارة النَّفث ، وكثرة الرواية ؛ ومن نظر في كتاب
البهجة له عرف ما أقول ، واعتقد فوق ما أصف ، ونَحَلَ^(٢) أكثر مما أبذل .
وأما المرزباني^(٣) وأبن شاذان وأبن القَرْمِيسِيَّ وأبن حَيَّوِيَّة^(٤) فهم رواية
وسمعة ليس لهم في ذلك نَقْطٌ ولا إجماع ، ولا إسراج ولا إجماع .

(٤) فقال : فصلٌ حديثك [عن^(٥)] هؤلاء بمحدث أصحابنا الشعراء ، صف لي
جماعتهم ، وأذكر لي بضاعتهم ، وما خصَّ كلَّ واحد منهم . قلتُ : لست من
الشعر والشعراء في شيء ، وأكره أن أخطو على دَحْض^(٦) ، وأحتسب غير
محض . قال : دع هذا القول ، فما حُضْنَا في شيء إلى هذا الوقت إلا على غاية
ما كان في النفس ، ونهاية ما أفاد من الأنس ، فكان من الوصف :

أما السَّلاَمِيُّ^(٧) فهو حلوا الكلام ، متَّسق النظام ، كأنما يَبْسِمُ عن ثغر الغمام
خفيُّ السرقة ، لطيفُ الأخذ ، واسع المذهب ، لطيف التمارس ، جميلُ الملابس ؛
لكلامه لَيْطَةٌ^(٨) بالقلب ، وعبثٌ بالروح ، وبرْدٌ على الكبد .

(١) بلل الريق : كناية عن الاتساع في الكلام .

(٢) « نَحَلَ » الخ أي أضاف إليه من الفضائل أكثر مما أبذل في وصفه .

(٣) المرزباني ، هو أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى ، أصله من خراسان ، كان
من الأدباء الإخباريين المصنفين ، وله كتب كثيرة في الأدب والتاريخ عدّها صاحب الفهرست
وقال : إنه كان صادقاً للبهجة ، واسع المعرفة بالروايات ، كثير السماع ، ومات سنة ٣٧٨ .

(٤) ابن حيويه ، هو محمد بن حيويه بن المؤمل ، عالم نحوي من أهل همدان مات سنة ٣٧٣ .

(٥) لم ترد هذه الكلمة في الأصل .

(٦) على دحض ، أي على مزلة ومزلة للأقدام .

(٧) السلامي : من أشهر أهل العراق ، عربي الأصل من بني مخزوم ، ولد بكرخ بغداد
سنة ٣٣٦ واتصل بالصاحب بن عباد وعضد الدولة البويهى ومدحهما ، وقد روى له صاحب
النيمة كثيراً من شعره ، مات سنة ٣٩٤ .

(٨) ليطّة بالقلب ، أي التصاق به وتعلق .

وأما الحاتمي^(١) فغليظ اللفظ ، كثير العقْد ، يحبُّ أن يكون بدويا قحًّا ، وهو لم يَتِمَّ حَضَرِيًّا ؛ غزيرُ المحفوظ ، جامعُ بين النظم والنثر ، على تشابهِ بينهما في الجفوة^(٢) وقلة السَّلاسة ، والبعدِ من المسلوك ، بادی العورة فيما يقول ، لكأنما يُبرز ما يُخفي ، ويكدر ما يُصفي ، له سكرة في القول إذا أفاق منها خَيْر^(٣) وإذا خُمِر سَدِر^(٤) ؛ يتناول شاخصا ، فيتضائل متقاعسا ؛ إذا صدق فهو مَهين ، وإذا كَذَب فهو مَشين .

وأما ابن جَلَبَات^(٥) فجنون الشعر ، متفاوت اللفظ ، قليل البديع ، واسع الحيلة ، كثير الزَّوْق^(٦) ، قصير الرِّشَاء^(٧) ، كثير الفُشاء^(٨) ؛ غَرَّه نَفَاقُه^(٩) ونَفَقَه نِفَاقُه .

(١) هو محمد بن الحسين الحاتمي ، مدح الخليفة القادر بالله ؛ وله الرسالة الحاتمية التي شرح فيها ما جرى بينه وبين المتقي ، مات سنة ٣٨٨ .

(٢) عبارة الأصل : « على تشابه بينهما في الهوة وقلة السياسة والبعد من الشكوك » ؛ وفي هذا الكلام تحريف لا يستقيم به المعنى في ثلاثة ألفاظ ؛ وسياق الكلام يقتضي ما أثبتنا .

(٣) خمر ، أى أصيب بالخمار ، وهو ألم في الرأس وصداع يعقبان السكر . والكلام هنا على طريق الاستعارة .

(٤) سدر : تخير . أو لم يبال ما صنع ولم يهتم . وكلا التفسيرين يستقيم به المعنى .

(٥) في الأصل : « ابن الحليات » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا . وهو أبو القاسم علي بن جلبات ، ذكره صاحب القيمة في الجزء الثاني من ٢٧٠ وروى شيئا من شعره .

(٦) في الأصل : « الرزق » ؛ وهو تحريف . وسياق الكلام يقتضي ما أثبتنا ، فانه بصدد الكلام في الشعر لا في الرزق . والزوق بالحريك : جمع زاووق ، وهو ما يحسن به الشيء . وزين ، والمراد هنا ما يحسن به الشعر تحسينا ظاهريا . والزاووق في الأصل : الزئبق ، وكان يدخل في التصاوير ، ولذلك قالوا لكل مزين : مزوق .

(٧) الرشاء : الحبل الذي يستقي به ، والمراد هنا قصر بآعه في الشعر وقصوره عن الإطالة .

(٨) الفشاء في الأصل : البالي من ورق الشجر المحالط زبد السيل . ويريد به هنا ما لا فائدة فيه ، ولا يعتد به .

(٩) النفاق بفتح النون : الرواج . ونفقته بتشديد الفاء : رواجه . والمراد رواج شعره وانتشاره بين الناس ، وعبارة الأصل : « غرَّه بفاقة ونفقته بفاقة » وفي كلتا المجلتين تصحيح . هذا إلى أنها على هذا الوضع لا يستقيم بهما السجع الذي يريد المؤلف كما يظهر .

النفس ، و بلبل ^(١) الريق ، وغزارة النَّفْث ، وكثرة الرواية ؛ ومن نظر في كتاب
البهجة له عرف ما أقول ، واعتقد فوق ما أصف ، ونَجَلَ ^(٢) أكثر مما أبذل .
وأما المرزباني ^(٣) وابن شاذان وابن القَرْمِيسِيّ وابن حَيَّوَيْه ^(٤) فهم رواة
وسَمَلَة ليس لهم في ذلك نَقْطٌ ولا إجماع ، ولا إسراج ولا إجماع .

(٤) فقال : فصلٌ حديثك [عن ^(٥)] هؤلاء بمحدث أصحابنا الشعراء ، صف لي
جماعتهم ، وأذكر لي بضاعتهم ، وما خصّ كل واحد منهم . قلت : لست من
الشعر والشعراء في شيء ، وأكره أن أخطو على دَحْض ^(٦) ، وأحتسى غير
محض . قال : دع هذا القول ، فما خُضْنَا في شيء إلى هذا الوقت إلا على غاية
ما كان في النفس ، ونهاية ما أفاد من الأنس ، فكان من الوصف :

أَمَّا السَّلَامِيُّ ^(٧) فهو حلوا الكلام ، متّسق النظام ، كأنما يَبْسِمُ عن ثغر الغمام
خفى السَّرَقَة ، لطيفُ الأخذ ، واسع المذهب ، لطيف المغارس ، جميلُ الملابس ؛
لكلامه لَيْطَةٌ ^(٨) بالقلب ، وعبثٌ بالروح ، وبرْدٌ على الكبد .

(١) بلل الريق : كناية عن الاتساع في الكلام .

(٢) « نَجَلَ » الخ أي أضاف إليه من الفضائل أكثر مما أبذل في وصفه .

(٣) المرزباني ، هو أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى ، أصله من خراسان ، كان
من الأدباء الاخباريين المصنفين ، وله كتب كثيرة في الأدب والتاريخ عدها صاحب الفهرست
وقال : إنه كان صادق اللهجة ، واسع المعرفة بالروايات ، كثير السماع ، ومات سنة ٣٧٨ .

(٤) ابن حيويه ، هو محمد بن حيويه بن المؤمل ، عالم نحوي من أهل همدان مات سنة ٣٧٣ .

(٥) لم ترد هذه الكلمة في الأصل .

(٦) على دحض ، أي على مزلفة ومزلة للأقدام .

(٧) السلامي : من أشهر أهل العراق ، عربي الأصل من بني مخزوم ، ولد بكرخ بغداد
سنة ٣٣٦ واتصل بالصاحب بن عباد وعضد الدولة البويهى ومدحهما ، وقد روى له صاحب
التيمة كثيرا من شعره ، مات سنة ٣٩٤ .

(٨) لطة بالقلب ، أي التصاق به وتعلقه .

وأما الحاتمي^(١) فغليظ اللفظ ، كثير المقّد ، يحبُّ أن يكون بدوياً قحّاً ، وهو لم يَتِمَّ حَضَرِيّاً ؛ غزيرُ المحفوظ ، جامعُ بين النظم والنثر ، على تشابهٍ بينهما في الجفوة^(٢) وقلة السّلاسة ، والبعدُ من المسلوك ، بادی العورة فيما يقول ، لكنّهما يُبرز ما يُخفي ، ويكدر ما يُصفي ، له سكرةٌ في القول إذا أفاق منها خُمر^(٣) وإذا خُمر سدر^(٤) ؛ يتناول شاخصاً ، فيتضاءل متقاعساً ؛ إذا صدق فهو مَهِين ، وإذا كَذَب فهو مَشِين .

وأما ابن جَلَبَات^(٥) فجنون الشعر ، متفاوت اللفظ ، قليل البديع ، واسع الحيلة ، كثير الزّوق^(٦) ، قصير الرّشاء^(٧) ، كثير النّشاء^(٨) ؛ غَرَّهُ نفاقه^(٩) ونفقته نفاقه .

(١) هو محمد بن الحسين الحاتمي ، مدح الخليفة القادر بالله ؛ وله الرسالة الحاتمية التي شرح فيها ما جرى بينه وبين التّغني ، مات سنة ٣٨٨ .

(٢) عبارة الأصل : « على تشابهٍ بينهما في الهوة وقلة السياسة والبعد من الشكوك » ؛ وفي هذا الكلام تحريف لا يستقيم به المعنى في ثلاثة ألفاظ ؛ وسياق الكلام يقتضي ما أثبتنا .

(٣) خر ، أي أصيب بالخمار ، وهو ألم في الرأس وصداع يعقبان السكر . والكلام هنا على طريق الاستعارة .

(٤) سدر : تخير . أو لم يبال ما صنع ولم يهتم . وكلا التفسيرين يستقيم به المعنى .

(٥) في الأصل : « ابن الحلبات » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا . وهو أبو القاسم علي بن جلبات ، ذكره صاحب الينبئة في الجزء الثاني ص ٢٧٠ وروى شيئاً من شعره .

(٦) في الأصل : « الرزق » ؛ وهو تحريف . وسياق الكلام يقتضي ما أثبتنا ، فانه بصدد الكلام في الشعر لا في الرزق . والزوق بالتحريك : جمع زاووق ، وهو ما يحسن به الشيء ويزين ، والمراد هنا ما يحسن به الشعر تحسيناً ظاهرياً . والزاووق في الأصل : الزئبق ، وكان يدخل في التصاوير ، ولذلك قالوا لكل مزين : مزوق .

(٧) الرشاء : الحبل الذي يستقي به ، والمراد هنا قصر بآعه في الشعر وقصوره عن الإطالة .

(٨) النشاء في الأصل : البالي من ورق الشجر المخالط زبد السيل . ويريد به هنا ما لا فائدة فيه ، ولا يعتد به .

(٩) النفاق بفتح النون : الرواج . ونفقته بتشديد الفاء : روجه . والمراد رواج شعره وانتشاره بين الناس ، وعبارة الأصل : « غرّه بفاقة ونفقته بفاقة » وفي كلتا المجلتين تصحيف . هذا إلى أنهما على هذا الوضع لا يستقيم بهما السجع الذي يريده المؤلف كما يظهر .

وأما الخالغ^(١) فأديب الشعر، صحيح النّحت، كثيرُ البديع، مستوًى^(٢) الطريقة، متشابهُ الصّناعة، بعيدٌ من طَفَرَةِ المتحير، قريبٌ من فرصة المتخير؛ كان ذو الكفایتین يقدمه بالرّى، ويَقْبَلُه على النّشر والطنى.

وأما مَسْكُويهِ^(٣) فلطيف اللفظ، رَطْبُ الأطراف، رقيق الحواشى، سهلُ المأخذ، قليلُ السّكب، بطىءُ السّبك؛ مشهورُ المعانى، كثيرُ التّوانى؛ شديدُ التّوقى، ضعيفُ التّرقى؛ يَرِدُ أكثرُ ممّا يَصْدُرُ، ويتطاولُ جُهدُه ثم يَقتَصِرُ؛ ويطير بعيدا ويقع قريبا، ويسقى من قبل أن يَغرس، ويمتَحُ^(٤) من قبل أن يُميه؛ وله بعد ذلك مآخذُ كَشْدُو^(٥) من الفلسفة، وتأتى^(٦) فى الخدمة، وقيامُ برسوم النّدامة^(٧)؛ وسُنّة^(٨) فى البخل، وغرائبُ من الكذب؛ وهو حائل^(٩) العقل لشغفه بالكيمياء.

وأما ابنُ نُبّاتة^(١٠) فشاعر الوقت، يدفعُ ما أقولُ إلّا حاسدا أو جاهل

(١) هو أبو على الحسن بن على الخالغ شاعر من شعراء الوزير أبى نصر سابور بن أزدشير وهو من شعراء اليتيمة.

(٢) فى الأصل: «مستوسق»، وهو تحريف. وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا كما يقتضيه قوله بعد: «متشابه» الخ.

(٣) انظر التعريف به فى ص ٣٢ رقم ٥.

(٤) متح الدلو ومنتج بها: استخرجها من البئر عند الاستقاء، وأما الحافر إمالة: بلغ الماء واستخرجه من الأرض. والكلام كله جار على طريق الاستعارة، يشير بهذه العبارة والتى قبلها إلى أنه يقدم ما حقّه التأخير والعكس.

(٥) شدا شدوا، أخذ طرفا من العلم والأدب.

(٦) التأتى: التلطف.

(٧) النّدامة بكسر النون: حرفة المادامة على الشراب.

(٨) «وثيقة».

(٩) حائل العقل، أى متغير متحول من الاستواء إلى العوج.

(١٠) ابن نبّاتة السعدى، هو عبد العزيز بن محمد بن نبّاتة من شعراء سيف الدولة بن حمدان، واتصل كذلك بابن العميد ومدحه؛ ولد سنة ٣٢٧ ومات ببغداد سنة ٤٠٥.

أو معانيد ، قد لَحِقَ عصابة (سيف الدولة) وعدًا معهم ووراءهم ، حَسَنُ الحَذْوِ على مثال سَكَّانِ البادية ، لطيفُ الأتِّمَامِ بهم ، خَفِيُّ الغَاصِ في واديهم ، ظاهرُ الإِطْلَالِ على ناديمهم ؛ هذا مع شُعْبَةٍ من الجنون وطائِفٍ من الوَسْوَاسِ .

وأما ابنُ حَجَّاج^(١) فليس من هذه الزُّمْرَةِ بشيء ، لأنَّه سَخِيفُ الطَّرِيقَةِ بعيدٌ من الحِدَّةِ ، قَرِيعٌ في الهزل ؛ ليس للعقل من شِعْرِهِ مَنَالٌ^(٢) ، ولا له في قَرَضِهِ^(٣) مِثَالٌ ؛ على أَنَّهُ قَوِيمُ اللَّفْظِ ، سهلُ الكلام ، وشَمائلُهُ نَائِيَةٌ بِالْوَقَارِ عن عادته الجارية في الخَسَارِ ؛ وهو شريكُ ابنِ سُكَّرَةٍ في هذه الفَرَامَةِ^(٤) ؛ وإذا جَدَّ أَقْعَى ، وإذا هَزَلَ حَكَّى الأَفْعَى .

وله مع ذى الكفابتين مناظرة طَيِّبَةٌ . قال : ما هـى ؟ قلتُ : لما ورد ذو الكفابتين سنة أربع وستين وهزم الأتراك مع أَفْتِكِينَ^(٥) ، وكان من الحديث ما هو مشهور ، سأل عن ابن حجاج — وكان متشوقاً له لِمَا كان يُقْرَأُ عليه من قَوَافِيهِ^(٦) ، فَأَحَبَّ أَنْ يَلْقَاهُ ، لأنَّه ليس الخبِرُ كالمُعَايَنَةِ ، والمبصَّرُ كالأَثْنِ والذِّكْرِ ؛ يَنْزِعُ كُلُّ واحدٍ منهما إلى تمامه ؛ فلمَّا حضره أبو عبد الله أَحْتَبَسَهُ للطعام ، وسمع كلامه ، وشاهدَ سَمْتَهُ ، واستَحْلَى شَمائلَهُ ، فقام

(١) هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحجاج ، شاعر ماجن في شعره مشهور ، اتصل بالوزير المهلي وسابور بن أردشير وعضد الدولة وابن عباد وابن المبرد ، لشعره منتخبات في الينمية وفي التحف البريطاني وفي مكتبة باريس ؛ وقد مات سنة ٣٩١ .

(٢) « مِثَال » .

(٣) « عَرَضَهُ » .

(٤) الفرامة : الخسران .

(٥) في الأصل : « الوركين » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلًا عن الكامل لابن الأثير وغيره .

(٦) في الأصل : « من فيه » سقوط القاف والواو والألف ؛ ولعل الصواب ما أثبتنا إذ به يستقيم الكلام .

من مجلسه ؛ فلما خلا به قال : يا أبا عبد الله ، لقد والله تهت^(١) عجباً منك ، فأما عَجَبِي بك فقد تقدّم ؛ لقد كنت أفلي ديوانك ، فأتمنى لقاءك ، وأقول : من صاحب هذا الكلام ، أطيش طائش ، وأخف خفيف ، وأغرّم غارم ؛ وكيف يجاس من يكون في هذا الإهاب ؟ وكيف يقارب من ينسلخ من ملابس الكتاب وأصحاب الآداب ؛ حتى شاهدتُك الآن ، فتهاكت على وقارك وسكون أطرافك ، وسكوت لفظك ، وتناسب حركاتك ، وفرط حيائك وناضر ماء وجهك ، وتعادل كلِّك^(٢) وبعضك ؛ وإنك لمن عجائب خلق الله وطرف عباده^(٣) ؛ والله ما يصدق واحد أنك صاحب ديوانك ، وأن ذلك الديوان لك ، مع هذا التنافى الذى بين شعرك وبينك فى جدك . فقال أبو عبد الله : أيها الأستاذ ، وكان عجبى منك دون عجبك منى ، لو تقارعنا على هذا لفلجت عليك بالتعجب منك . قال : لأنى قلت : إذا ورد الأستاذ فسألنى منه خلُقاً جافياً وفظاً^(٤) غليظاً وصاحب رواسير^(٥) وآكل كوامخ^(٦) وجليلاً ذليلاً متكاثراً متعاضلاً ، حتى رأيتك الآن وأنت ألطف من الهواء ، وأرق من الماء ، وأغرزل من جميل^(٧) بن معمر ، وأعذب من الحياة ، وأرزن من الطود ، وأغرر من

(١) تهت ، أى تحيرت .

(٢) فى الأصل : « نخلك » ؛ وهو تحريف .

(٣) فى الأصل من هذه الكلمة العين والباء ، ورسمت الهاء بعيدة عنها .

(٤) « وعظا » .

(٥) فى الأصل : « رواصير » .

(٦) الكوامخ : جمع كامخ يفتح الميم ، وهو إدام يؤتد به يقال له : المرى ، ويقال : هو الردىء منه ؛ وقيل : هو خبز بخلٍ مرّ ب « كامه » بالفارسية ؛ وخصه بعضهم بالخللات التى تستعمل لتشهى الطعام .

(٧) جميل بن معمر ، هو المعروف بجميل بثينة العذرى .

البحر ، وأبهى من القمر ، وأندى من الغيث ، وأشجع من الليث ، وأنطق من سخبان ، وأندى من الغمام ، وأنفذ من السهام ، وأكبر من جميع الأنعام . فقال أبو الفتح وتبسم : هذا أيضا من ودائع^(١) فضلك ، وبواعث تفضلك . ووصله وصرفه .

قال^(٢) : لم يكن هذا الحديث عندي .

وأما بشر بن هارون فليس من هذه الطبقة في شيء ، لكنه يقرض فيخز^(٣) ويشتم فيهز ، ويجرح فيجهز ؛ والمدهون^(٤) منه كثير ؛ « وأصحابنا^(٥) يستحسنون قول ابن الحجاج في الوزير حين يقول :

لله در الحسين من قمر ردت إليه وزارة الشمس

فقال : إن قبلت هذا منهم خفت أن يقال : ماح نفسه يقرئك السلام ؛ وما أصنع بهذا البيت وهو مضموم إلى كل بيت سخيف في القصيدة .

ثم قال : وجب أن نصف قبل هذا عصابة العلماء ، فلم تركنا ذكرهم ونحن لا نخلو في حديثهم من غرّة لأئمة ، وفائدة نافعة ، وصواب زائد في العقل وفضيلة على الأدب ، وحلم يزدان به في وقت الحاجة ، وحكمة يستعان بها في داهية ؛ ورأى يكون مقيلا للتمييز عند تهجيرنا به .

(١) من ودائع فضلك ، أى من فضلك الذى تودعه لدينا فنحفظه لك ونؤديه إليك جزاء وفاقا .

(٢) قال ، أى الوزير أبو عبد الله العارض .

(٣) فى الأصل : « يقرض فيخر » ، وهو تصحيف فى كلتا الكلمتين . ويريد بهذه العبارة والعبارتين اللتين بعدها أن أثره بالغ عابته فى الهجاء .

(٤) المدهون ، أى المتلون بالدواهي مه .

(٥) الظاهر أن هذا الكلام الذى بين هاتين العلامتين مؤخر عن موضعه وموضعه

الكلام فى ابن حجاج السابق ذكره إذ لا مناسبة بينه وبين ما هنا .

قلتُ : أما أبو عبد الله الجعَل (١) فقد شاهدته . قال : صدقتَ ، ولكن لم أقف على مذهبه ودُخلته وسيرته في اعتقاده .

قلتُ : كان الرجل ملتهب الخاطر ، واسع أطراف الكلام ، مع غثاثة اللفظ ، وكان يرجع إلى قوَّة عجيبة في التدريس ، وطول نفس في الإملاء ، مع ضيق صدر عند لقاء الخصم ومُعارَكة القرن ، بعيد العهد بالمصاع والدفاع والوقاع ؛ وكان سببُ هذا الجبن والخَوَر قلةُ الضراوة على هذه الأحوال ؛ ولقد خَزِيَّ في مشاهد عظيمة .

وأما يقينه فكان ضعيفا ؛ وأما سيرته فكانت واقفةً على حبِّ الرياسة وبذل المال والجاه إذا حضرا ، مع تعصُّب شديد لمن قدَّمه وأحبَّه ، وإنحاء مفرط على من عاداه ، وكان خَوْضُه في الدُول والولايات — ولهذا رغب عنه (٢) الواسطيُّ وكان أخا ورع ودين — وقال (٣) : هذا منقر (٤) عن الدين والمذهب ، ودافع (٥) للناس عن القول بالحق ، وطارح للشبهة في القلوب .

وكان يجهر بهذا وأشباهه ، ولكن كان جاء الرجل لا يُنتقص بهذا القدر وركنُه لا يتخلخل على هذا الهدى ، لأسباب انعقدت له ، وأصحاب ذبُّوا عنه .

وأما ابن الملاح فشيخ حسن المعرفة بالمذهب ، شديد التوقُّ ، محمود القناعة

(١) في الأصل « جفل » ؛ ولعل صوابه ما أثبتنا . والجعل ، هو أبو عبد الله الحسين بن عليّ ، أصله من البصرة وبها ولد سنة ٣٠٨ وانهت إليه الرياسة في علم الكلام في عصره ، وكان كذلك فقيها ، وله كتب في الكلام وكتب في الفقه ، من أشهر كتبه في الكلام كتاب نقض كلام الراوندى ونقض كلام الرازى . مات ببغداد سنة ٣٩٩ .

(٢) « فيه » .

(٣) وقال ، أى الواسطي .

(٤) « منقر » .

(٥) « ونافع » .

ظاهر الرضا ؛ تَدُلُّ (١) سيرته الجميلة على أنه حَسَنُ العقيدة .

وأما ابن المعلم (٢) فَحَسَنَ اللِّسَانَ والجَدَلَ ، صبور على الخصم ، كثيرُ الحيلة ظنين (٣) السرّ ، جميل العلانية .

وأما أبو إسحق النصيبي فدقيق الكلام ، يشكّ في النبوات كلّها ، وقد سمعتُ منه فيها شُبُهًا ، ولُغْتُهُ (٤) معقّدة ، وله أدب واسع ؛ ولقد أضلَّ بهمذان كاتبَ فخر الدولة أَبْنِ المرزبان . وحمله على قلة الأكتراث بظلم الرعية ، وأراه أنه لا حرج عليه في غُيْبِهِمْ لأنهم بهائم ، وما خرج من الجبل حتى أفتضح .

وأما ابن خيران (٥) فشيخ لا يعدو الفقه ، وفيه سلامة .

وأما الدَّارَكِي (٦) فقد اتخذَ الشهادة مكسبة ، وهو يأكل الدنيا بالدين ، ويغلب عليه اللّواط ، ولا يرجع إلى ثقة وأمانة ؛ ولقد تهتكت بنيسابور قديما ، وبيغداد حديثا ؛ هذا مع الغدامة والوخامة ؛ ولقد ندَّ بِجُعَلٍ (٧) غلام ، وهو اليوم قاضي الرى . وأبْنُ عباد يَكْنُفُهُ ويقربه ليكون داعية له ونائبا عنه ، وليس له أصل وهو من سواد همذان ، وأبوه كان فلاحا ، ولقد رأيتُهُ ، إلا أنه يأتي لابن عباد في سَمْتِهِ ولزوم ناموسه حتى خفَّ عليه ، وهو اليوم قارون ؛ وقد علت رتبته في

(١) « يدل » .

(٢) ابن المعلم ، هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان ، انتهت إليه رئاسة الشيعة الإمامية في الفقه والسكلام والآثار ولد سنة ٣٣٨ .

(٣) ظنين ، أى متهم .

(٤) « ولقبه » .

(٥) هو أبو علي الحسين بن صالح بن خيران ، أحد فقهاء عصره ، ألف في الفقه كتاب « اللطيف » وكتاب « المقدمات » .

(٦) لعله يريد أبا القاسم الداركي ، نسبة إلى دارك ، قرية في أصفهان ، أحد فقهاء الشافعية وهو بغدادى ، أقام بنيسابور مدة ، وانتهى التدريس إليه ببيغداد ، وأخذ عنه عامة شيوخها ؛ مات سنة ٣٧٥ .

(٧) في الأصل : « ندر » ؛ ولعل صوابه ما أثبتنا . وند : هرب .

الكلام حتى لا مزيد عليها ، إلا أنه مع ذلك نَعْلُ^(١) الباطن ، خبيث الخبء ، قليل اليقين ؛ وذلك أن الطريقة التي قد لزموها وسلكوها لا تَقْضِي بهم إلا إلى الشك والأرتياب ، لأن الدين لم يأت بكمْ وكَيْفٍ في كلِّ باب ، ولهذا كان لأصحاب الحديث أنصار الأثر ، مزية على أصحاب الكلام وأهل النظر ؛ والقلب الخالي من الشبهة أسلم من الصدر المحشو بالشك والريبة ، ولم يأت الجدَل بخير قط . وقد قيل : من طلب الدين بالكلام أَلْحَد ، ومن تتبّع غرائب الحديث كُذِب ، ومن طلب المال بالكيماء أفتقر . وما شاعت هذه الوصية جُزَافا ، بل بعد تجربة كرّرها الزمان ، وتطاوت عليها الأيام ؛ يتكلم أحدهم في مائة مسألة ويورد مائة حجة ثم لا ترى عنده خشوعا ولا رقة ، ولا تقوى ولا دَمعة ؛ وإن كثيرا من الذين لا يكتبون ولا يقرءون ولا يحتجّون ولا يناظرون ولا يُكرّمون^(٢) ولا يفضلون خيّر من هذه الطائفة وألينُ جانبا ، وأخشع قلبا ، وأتقى لله عزَّ وجلَّ ، وأذكرُ للمعاد ، وأيقن بالثواب والعقاب ، وأقلق من الهفوة ، وألوذُ^(٣) بالله من صغير الذنب ، وأرجع إلى الله بالتوبة ؛ ولم أر متكلما في مدّة عمره بكى خشية ، أو دمعت عينه خوفا ، أو أفلح عن كبيرة رغبة ؛ يتناظرون مستهزئين ويتحاسدون متعصّبين ، ويتلاقون متخادعين ، ويصنّفون متحاملين ؛ جذَّ الله عروقهم ، وأستأصل شأقتهم ، وأراح العباد والبلاد منهم ؛ فقد عظمت البلوى بهم ، وعظمت آفتهم على صغار الناس وكبارهم ؛ ودَبَّ داؤمهم ، وعسر دواؤهم ؛ وأرجو ألا أخرج من الدنيا حتى أرى بنيانهم متضعضا ، وساكنه متجمعجا^(٤) .

(١) « نعل » . والنفل : الفاسد السيئ .

(٢) « يلزمون ولا يفضلون » .

(٣) هذه الكلمة مطبوسة بالأصل .

(٤) متجمعجا ، أى ضاربا بنفسه الأرض من وجع .

قال : فما تقول في ابن الباقلاني ؟ ^(١) . قلت :

فأشهر ^(٢) الثلاثة أم عمرو بصاحبك الذي لا تصبحينا

يزعم أنه ينصر السنة ويُفجم المعتزلة وينشر الرواية ؛ وهو في أضعاف ذلك على مذهب الخُرَّمِيَّة ، وطرائق الملحدة . قال : والله إن هذا لمن المصائب الكبار والمحن الغلاظ ، والأمراض التي ليس لها علاج .

ثم قال : إن الليل قد ولى ، والنعاس قد طرق العين عابثا ؛ والرأى أن نستجم لنشط ، ونستريح لنتعب ؛ وإذا حضرت في الليلة القابلة أخذنا في حديث الخلق والخلق — إن شاء الله — وأنا أزوّدك هذا الإعلام ليكون باعثاً لك على أخذ العتاد بعد أختاره في صدرك ، وتحيل الحال به عند خوضك وفيضك ولا تجبن جبن الضعفاء ، ولكن قل وأتسع مجاهرا بما عندك ، منفقا مما معك . وانصرفت .

الليلة التاسعة

وعدت ليلة أخرى فقال : فاتحة الحديث معك ، فهات ما عندك . فكان ^(١) من الجواب : أن أخلاق أصناف الحيوان الكثيرة مؤتلفة في نوع الإنسان ، وذلك أن الإنسان صفو الجنس الذي هو الحيوان ، والحيوان كدر النوع الذي هو الإنسان والإنسان صفو الشخص الذي هو واحد من النوع ، وما كان صفوا ومُصاصا ^(٢) بهذا النظر أنظم فيه من كل ضرب من الحيوان خلق وخلقاً وأكثر ،

(١) ابن الباقلاني ، هو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني أحد أعلام المتكلمين ، ومن أكبر أنصار مذهب الأشعري ، ومؤلف كتاب « إيجاز القرآن » مات سنة ٤٠٣ .

(٢) البيت لمعرو بن كلثوم ؛ وهو هنا على طريق المثل .

(٣) المصاص : العصارة .

وظهر ذلك عليه وبطن^(١) أيضا بالأقل والأكثر والأغلب والأضعف ، كالكمون الذى فى طباع السبع والفأرة ، والثبات الذى فى طباع الذئب ، والتحرز الذى فى طباع الجاموس من بنات الليل ، والحذر الذى فى طباع الخنزير ، والتقدم الذى فى طباع الفيل أمام قطيعه تمثلاً بصاحب المقدمة .

وكذلك ضد ذلك فى الخنزير تمثلاً بصاحب الساقة ، والحراسة التى فى طباع الكلب ، وكأوب الطير إلى أوكارها التى تراها كالمعاقل وغيرها بالدغل^(٢) والأشب والفياض .

ولهذا قال بعض الحكماء : خذ من الخنزير بُكورَءَ فى الحوائج ، ومن الكلب نُصحَه لأهله ، ومن الهرّة لطفَ نفسها عند المسألة .

وقالت الترك : ينبغى للقائد العظيم أن يكون فيه عشر خصال من ضرور الحيوان : سخاء الديك ، وتحنّ الدجاجة ، ونجدة الأسد ، وحمة الخنزير وروغان الثعلب ، وصبر الكلب ، وحراسة الكركى ، وحذر الغراب ، وغارة الذئب ، وسمن بعروا^(٣) ، وهى دابة بخرسان تسمن على التعب والشقاء .

ولما وهب الإنسان الفطرة^(٤) ، وأعين بالفكرة ؛ ورُفِدَ بالعقل ، جمع هذه الخصال وما هو أكثر منها لنفسه وفى نفسه ، وبسبب هذه المزية الظاهرة فضّل جميع الحيوان حتى صار يبلغ منها مراده بالتسخير^(٥) والإعمال واستخراج المنافع منها وإدراك الحاجات بها ؛ وهذه المزية التى له مستفادة بالعقل ، لأن العقل ينبوع العلم ، والطبيعة ينبوع الصناعات ، والفكر بينهما مستعمل منهما ومؤدّ بعضهما

(١) « ويطن » .

(٢) الدغل والأشب : الشجر الكثير الملتف بعضه ببعض .

(٣) كذا ورد اسم هذه الدابة فى الأصل . ولم نجده فيما بين أيدينا من الكتب .

(٤) « الفكرة » .

(٥) « بالتنجير والاقال » .

إلى بعض بالفيض الإمكانى والتوزيع الإنسانى ؛ فصوابُ بديهيةِ الفكرة من سلامة العقل ، وصوابُ رويةِ الفكرة من صحة الطباع ، وصحة الطباع من موافقة المزاج ، وموافقة المزاج بالمَدَد^(١) الاتفاق والاتفاق الغيبى ؛ أعنى بهذا أن وجه الحادث المجهول عندنا اتفاق ، ووجه الحادث المعلوم عند الله عزّ وجلّ غيب ؛ فلو ظهر هذا الغيب لبطل الاتفاق ، ولو بطل الاتفاق لارتفع الغيب .

فانقسمت الأحداث [بين ما هو]^(٢) على جديلة^(٣) واحدة معروفة ، وبين نادر لا يدوم العهد به ، فدلّ ما ظهر وأستمرّ على ما جاد به ووَهَبَ ، ودلّ ما غاب وأستتر على ما تفرّد به وغَلَبَ .

ولما كان الحيوان كلّهُ يعمل صنائعه بالإلهام على وتيرة قائمة ، وكان الإنسان يتصرّف فيها بالأختيار ، صحّ^(٤) له من الإلهام نصيب حتى يكون رِفْدًا له فى أختياره ، وكذلك يكون النحل أيضا ، صحّ له من الأختيار قسط فى إلهامه حتى يكون ذلك مُعينًا له فى اضطراره ، إلّا أن نصيب الإنسان من الإلهام أقلّ كما أن قسط سائر الحيوان من الأختيار أنزَرَ^(٥) ؛ وثمرّة أختيار الإنسان إذا كان مُعانًا بالإلهام أشرف وأدوم وأجدى^(٦) وأنفع وأبقى وأرفع من ثمرّة غيره من الحيوان إذا كان مرفودًا بالأختيار ، لأن قوّة الأختيار فى الحيوان كالعلم كما أن قوّة الإلهام فى الإنسان كالظلم .

ومراتب الإنسان فى العلم ثلاث تظهر فى ثلاثة أنفس ، فأحدهم مُلهم

(١) « الندد » .

(٢) هذه التكملة التى بين مربعين ساقطة من الأصل ، والسياق يقتضيه .

(٣) الجديلة : الشاكلة . يقال : هم على جديلة واحدة ، أى على شاكلة واحدة .

(٤) « وصح » .

(٥) « أكثر » .

(٦) « وأحد » .

فیتعلم^(١) ويعمل ، وبصير مبدأً للمقتسبين منه ، المقتدين به ، الآخذين عنه ،
الحاذين على مثاله ، المارّين على غرارهِ ، القافين على آثارهِ ؛ وواحد يتعلم ولا
يُلمّ فهو يماثل الأول في الدرجة الثانية ، أعنى التعلم ؛ وواحد يتعلم ويُلمّ ،
فتجتمع له هاتان الخلتان ، فيصير بقليل ما يتعلم مُكثراً للعمل والعلم بقوة
ما يُلمّ ويعود بكثرة ما يلهم مصفياً لكل ما يتعلم ويعمل .

والكلام في هذه المواضع ربّما جَمَح فلم يمكن كفه ، فينبغي أن يضح العذر
إذا عرض تفاوتٌ في الترتيب ، ودخل الخللُ من ناحية التقريب .

وقال أبو سليمان لنا في هذه الأيام : [الإنسان^(٢)] بين طبيعته وهي عليه
وبين نفسه وهي له ، كالنّتهب المتوزّع ، فإن استمد من العقل نورَه وشعاعَه قوَى
ما هو له من النفس ، وضعّف ما هو عليه من الطبيعة [وإلا فقد قوَى ما هو عليه^(٣)
من الطبيعة] وضعّف ما هو له من النفس .

وحكى لنا فقال : كان للحكماء الأولين مَثَلٌ يضربونه ويكتبونه في
هَيّاكِلِهِم ومتعبّداتهم وهو : « المَلَكُ الموكَّل بالنديا يقول : إن ههنا خيراً
وههنا شراً ، وههنا ما ليس بخير ولا شر ، فمن عرف هذه الثلاثة حقَّ معرفتها
تخلّص مني ، ونجا سليماً ، وبقي كريماً ، وملك نعمياً عظيماً » .

ومن لم يعرفها قتلتُهُ شرّاً قتله ، وذلك أني لا أقتله قتلاً وحيّاً^(٤) يستريح
به مني ، ولكن أقتله أولاً فأولاً في زمان طويل ، بحسرات على قوتِ مأمول

(١) في الأصل : « فيلهم » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا بدليل قوله بعد في القسم
الثاني « فهو يماثل الأول في الدرجة الثانية أعنى التعلم » .

(٢) هذه الكلمة أو ما يفيد معناها ساقطة من الأصل ؛ والسياق يقتضيها .

(٣) « له » .

(٤) وحيّاً ، أي سريعاً .

بعد مأمول ، و بلايا يكون بها كالمغلول المكبول .

قال^(١) : هذا كلام شريف فى أعلى ذروة الحكمة ، لكنك خلّيت يدك من طُرْف الحديث فى الخُلُق . قلتُ : إذا طاب الحديث بأُسترسال السجّية ووقوع الطّائنية لها الإنسان عن مبادئه ، وسال مع الخاطر الذى يستهويه ، ولتحفظ الإنسان فى قوله وعمله من الخطَل والزَّلَل حدّاً إذا بلغه كلُّ الخاطر وأختلّ .

ثم نعود فنقول : أخلاق الإنسان مقسومة على أنفسه الثلاث : أغنى النفس الناطقة ، والنفس الغضبيّة ، والنفس الشهوانيّة ، وسماتُ هذه الأخلاق مختلفة بعرض واسع .

ويمكن أن يقال فى نعتها على مذهب التقريب : إنها بين المحمودة وبين المذمومة ، وبين المشوبة بالحمد والذمّ ، وبين الخارجة منهما . فمن أخلاق النفس الناطقة — إذا صفت —^(٢) البحث عن الإنسان ثم عن العالم ، لأنّه إذا عَرَف الإنسان فقد عَرَف العالم الصغير ، وإذا عَرَف العالم فقد عَرَف الإنسان الكبير ، وإذا عَرَف العالمين عرف الإله الذى بجوِّده وُجِد ما وُجِد ، وبقدرة ثبّت ما ثبّت ، وبحكمته ترتّب ما ترتّب ؛ وبمجموع هذا كله دام ما دام .

بهذا البحث يتبيّن له ما تشتمل عليه القوة الغضبية والقوّة الشهويّة فإنّ تواجعات القوتين أكثر ، لأنهما بالتركيب أظهر ، وفى^(٣) الكثرة أدخل وعن الوحدة أخرج ؛ فإذا ساستهما الناطقة حدّفت زوائدها ، ونفّت فواضلهما

(١) قال ، أى الوزير .

(٢) « صفت » .

(٣) « وعن » .

وَوَفَّتْ نَوَاقِصَهُمَا ، وَذَيْلَتْ قَوَالِصَهُمَا^(١) أَعْنَى إِذَا رَأَتْ غُلْمَةً فِي الشَّهْوِيَّةِ أَخَذَتْ نَارَهَا ، وَإِذَا وَجَدَتْ السَّرَفَ^(٢) فِي الْغَضْبِيَّةِ قَصَّرَتْ عِنَانَهَا^(٣) ؛ فَيُخَيِّدُ يَقُومَانِ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ، فَيَعُودُ السَّفَهَ حِلْمًا أَوْ تَحَالُمًا ، وَالْحَسَدَ غِبْطَةً أَوْ تَغَابُطًا وَالْغَضَبُ كَظْمًا أَوْ تَكَظْمًا ، وَالغَى زُشْدًا أَوْ تَرَاشُدًا ، وَالطَّيْشُ أَنَاةٌ أَوْ تَانِيَا^(٤) وَصَرَفَتْ هَذِهِ الْكُومَانِ فِي الْمَكَامَيْنِ — إِذَا سَارَتْ سَوَوَّرَتْهَا ، وَثَارَتْ ثَوَوَّرَتْهَا — عَلَى مَنَاهِجِ الصَّوَابِ ، تَارَةً بِالْعِظَةِ وَاللُّطْفِ ، وَتَارَةً بِالزَّجْرِ وَالضُّعْفِ وَتَارَةً بِالْأَنَفَةِ وَكِبَرِ النَّفْسِ ، وَتَارَةً بِإِشْعَارِ^(٥) الْحَذَرِ ، وَتَارَةً بَعُلُوِّ الْهَمَةِ ؛ وَهَنَاكَ يُعْبِرُ الْعَفْوُ عِنْدَ الْقَادِرِ الَّذِي مِنَ الْإِنْتِقَامِ ، وَالْعَفَافُ عِنْدَ الْمُسَائِجِ الَّذِي مِنَ قَضَاءِ الْوُطَرِ ، وَالْقَنَاعَةُ عِنْدَ الْمَحْتَاجِ أَشْرَفُ مِنَ الْإِسْفَافِ ، وَالصَّدَاقَةُ عِنْدَ الْمُتَوَتِّرِ أَتَمُّ مِنَ الْعَدَاوَةِ ، وَالْمُدَارَاةُ عِنْدَ الْمُحْفَظِ^(٦) أَطْيَبُ مِنَ الْمَارَاةِ .

وَفِي الْجُمْلَةِ ، الْخُلُقُ الْحَسَنُ^(٧) مُسْتَقٌّ مِنَ الْخَلْقِ ، فَكَمَا لَا سَبِيلَ إِلَى تَبْدِيلِ الْخَلْقِ كَذَلِكَ لَا قُدْرَةَ عَلَى تَحْوِيلِ الْخُلُقِ ، لَكِنَّ الْحِصْنَ^(٨) عَلَى إِصْلَاحِ الْخُلُقِ وَتَهْذِيبِ النَّفْسِ لَمْ يَقَعْ مِنَ الْحُكَمَاءِ بِالْعَبَثِ وَالتَّجْزِيفِ ، بَلْ لِمَنْفَعَةٍ عَظِيمَةٍ مُوجُودَةٍ ظَاهِرَةٍ ، وَمِثَالُهُ أَنَّ الْحَبْشِيَّ يَتَدَلَّكَ بِالمَاءِ وَالْعُسُولِ لَا لِيَسْتَفِيدَ^(٩) بِيَاضًا ، وَلَكِنْ

(١) ذيلت قوالصهما ، أى طولت ما قصر وتقبض منهما .

(٢) « السرف » .

(٣) « عنلتها » .

(٤) « تانيا » .

(٥) « باشعما والحذر » .

(٦) « التحفظ » .

(٧) الظاهر أن قوله « الحسن » زيادة من الناسخ . فسياق الجملة يقتضى أنه يريد

الحلق الحسن وغيره .

(٨)

(٩)

ليستفيد لقاء شبيها^(١) بالبياض ؛ ويقال للمُهدار : « أُكُفُّ » لا يكُفُّ^(٢) عن النطق ، ولكن ليؤثّر الصمت .

ويقال للموتور : « لا تحقد » لا يزول عنه ما حنق^(٣) عليه ، ولكن لينكف الصبر ويتناسى الجزاء على هذا أبدا .

وقد تقرّر بالحكمة الباحثة عن الإنسان وطرائق ما به وفيه أن أحواله مختلفة ، أعنى أن كل ما يدور عليه ويحور إليه^(٤) مقابل بالصد^(٥) أو شبيه بالصد كالحياة والموت ، والنوم واليقظة ، والحسن والقيبح ، والصواب والخطأ ، والخير والشر ، والرجاء والخوف ، والعدل والجور ، والشجاعة والجبن ، والسخاء والبخل ، والحلم والسفّه ، والطيش والوقار ، والعلم والجهل ، والمعرفة والنكرة والعقل والحمق ، والصحة والمرض ، والأعتدال والانحراف ، والعفة والفجور والتنبه والغفلة ، والذكر والنسيان ، والذكاء والبلاهة ، والغبطة والحسادة والدمائة والسكرآزة^(٦) ، والحق والباطل ، والغنى والرؤشد ، والبيان والحصر والثقة والأرتياب ، والطمانينة والتهمّة ، والحركة والسكون ، والشكّ واليقين والخلاعة والوقار ، والتوقّ والتهوّر ، والإيف والمَلَل ، والصدق والكذب والإخلاص والنفاق ، والإحسان والإساءة ، والنصح والغش ، والمدح والذم وعلى هذا الجزر والسّحب^(٧) ؛ ولعل هذه الصفات بلا آخر ولا انقطاع .

(١) « تشبيها » .

(٢) « لتكنفى عنه » .

(٣) « طبق » .

(٤) « ويمحور عليه » .

(٥) « بالصدأ » .

(٦) « السكرارة » بالمهملتين .

(٧) « الجراء والسحب » .

فما ينبغي أن يُعنى الإنسانُ الحبُّ للتبصرة ، المؤثرُ للتذكرة ، الجامع للنافع له ، النافى ^(١) للضارِّ به فى هذه الأحوال التى وصفناها بأسمائها معرفةً — ما استطاع — باجتلاب ^(٢) محودها واجتناب مذمومها ، وتمييزه مما يمكن ^(٣) فيه أو تقليله ، أو إطفاء جمرته ، أو أجتناء ثمرته ، والطريق إلى هذا التمييز واضح قريب ، كأن ^(٤) تنظر إلى الحياة والموت فتعلم أن هذين ليسا من الأخلاق ولا مما يعالج بالاجتهاد ، وإلى التَّوَم واليقظة فتعلم أنَّهما ضروريان للبدن من وجه ، وغيرُ ضروريَّين من وجه ، فتَنفِي ^(٥) منهما ما خرج عن حدِّ الضرورة وتُسَلِّم البدن ما دخل فى حدِّ الضرورة ؛ ولا يكثر ^(٦) الإنسانُ نومه ولا سهره ، ولكن يطلب العدل بينهما بقدر جهده .

فأما الحَسَن والقبيح فلا بدَّ له من البحث اللطيف عنهما حتى لا يجور ^(٧) فيرى القبيحَ حَسَنًا والحسنَ قبيحًا ، فيأتى القبيحَ على أنه حَسَن ، ويرفض الحسنَ على أنه قبيح ؛ ومناشئُ الحسن والقبيح كثيرة : منها طبعيٌّ ، ومنها بالعادة ، ومنها بالشرع ، ومنها بالعقل ، ومنها بالشهوة ، فإذا اعتبر هذه المناشئ صدقَ الصادق منها وكذبَ الكاذب ، وكان أَسْتَحْسَانُهُ على قَدَرِ ذلك ومثال ذلك الكِبَرُ فإنه مَعِيبٌ بالنظر الأول ، لكنه حَسَنٌ فى موضعه بالعلَّة ^(٨) الداعية إليه ، والحال الموجبة له .

(١) « الثانى » .

(٢) « باجتلاب » متعلق بـ « يعنى » .

(٣) « يمكن » .

(٤) « كأنك » .

(٥) « فيستعمل » .

(٦) « يكون » .

(٧) « يجوز » .

(٨) « بالغلبة » .

وأما الصواب والخطأ فأمران عارضان للأقوال والأفعال والآراء ، وليساً
بمُخْلِقَيْنِ مُحْضَيْنِ ، ولكنهما موكولان إلى نور العقل ، فما أَشْرَقَ ^(١) عليه العقل
بنوره فهو صواب ، وما أَفْلَ ^(٢) عنه العقل بنوره فهو خطأ .

وأما الخير والشرّ فهما في العموم والشُّمول ليسا بدون الصواب والخطأ
لهما مناط بكلّ شيء ، وَيَغْلِبَانِ عَلَى الأفعال ، وإن كان أحدهما عَدَمًا لِلآخَرِ .
وأما الرجاء والخوف فهما عَرَضَانِ للقلب بأسباب بادية وخافية ، ولا يدخلان
في باب الخُلُقِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ [ولا يخرجان أيضا بكل وجه] وهما كالعَادَيْنِ
للإنسان قد أُسْتُصِلِحَ لهما ، وَرُبِطَ قِوَامُهُمَا بَغَلْبَتِهِمَا وَضَعْفِهِمَا .

وأما العدل والجور فقد يكونان خُلُقَيْنِ بِالْفِطْرَةِ ، ويكونان فِعْلَيْنِ بِالْفِكْرَةِ
وجانباهما بِالْفِعْلِ ^(٣) ألصق ، وإلى الأُكْتِسَابِ أَقْرَبُ .

وأما الشجاعة والجن فهما خُلُقَانِ مُتَصِلَانِ بِالخُلُقِ ، ولهذا يعزّ على الشجاع
أن يتحوّل جباناً ، ويتعذّر على الجبان أن يصير شجاعاً ، وكذلك طرفاهما
داخلان في الخُلُقِ أَعْنَى التهور والتوقّي ^(٤) .

وأما السخاء والبخل فهما خُلُقَانِ مُحْضَانِ أَوْ قَرِيبَانِ مِنَ الْمُحْضِ ، ولهذا
تعلّق الحقد والذم بهما وبأصحابيهما ، والمدح والهجو سرياً ^(٥) إليهما وأتصلا بهما ؛

(١) « أَشْرَفَ » .

(٢) « أَفْلَ » .

(٣) « بِالْعَقْلِ » .

(٤) في الأصل : « والجن » ؛ وما أثبتناه هو المناسب لقوله : « وكذلك طرفاهما إذ
بن لا يكون طرفاً للجن ، ويدل على صحة ما أثبتنا ذكره التوقّي بجانب التهور فيما سبق
ص ١٤٩ س ١٤ .
(٥) « رِياً » .

وقد يندم السخى على بذله كثيرا خوفا من الإملاق ، فلا يستطيع ذلك إذ أخذته الأريحية ، وحركته اللوذعية ؛ وقد يلوم البخيل نفسه كثيرا إذا سَلَقَتِ الألسنة الحداد ، وجبه^(١) بالتوبيخ ، وشمخ^(٢) عند رؤيته الأنف ، وغضن^(٣) الجبين وأولم^(٤) بالعدل وقوبل ؛ ومع ذلك فلا يرشح إلا على بطاء وكلفا وتضجر ؛ والكلام فى هذين الخلقين طويل ، لأنهما أدخل فى تلاقى الناس وتعاطيهم فى عشرتهم ومعاملتهم .

وأما الحلم والسفة فهما أيضا خلقان ، والأخلاق تابعة للمزاج فى الأصل ، ولذلك قلنا : إن الخلق ابن الخلق ، والولد شبيه بوالده ؛ وفى الجملة ، كل ما يمكن أن يقال فيه للإنسان « لا تفعل هذا » ، « وأقلل من هذا وكف عنه » فإنه فى باب الأفعال أدخل ، وكل ما لم يجر أن يقال ذلك فيه فهو فى باب الأخلاق أدخل ، ثم لبعض هذا نسبة إلى الخلق أو الخلق ، إما ظاهرة غالبية وإما خفية ضعيفة .

وأما الطيش والوقار فهما يختلطان بالحلم والسفة ويجريان معهما ؛ فليس ينبغى أن ينشر الكلام ويطول الشرح .

وأما الجهل والعلم فليسا^(٥) من الأخلاق ولا من الخلق وإنما^(٦) يُبرزان من صاحب الأخلاق والخلق للمزاج أثرين قويتين^(٧) واحدهما عدم

(١) « وجه » .

(٢) « وسبح » .

(٣) « وعض » .

(٤) فى الأصل « واكيل بالعدل وقوتل » .

(٥) « فلياً » .

(٦) فى الأصل : « وإنما كانا يبرزان » .

(٧) « أثر قويتى » .

والآخر وجدان ، والعدم^(١) لا يكون أعدم من عدم ، والوجدان يكون أيعن من وجدان .

وأما المعرفة والنكرة فهما في جوار العلم وضده ، ولكنهما أعلق بالحس والصق بالنفسين ، أى الشهوية والغضبية .

وأما العقل والحُقق فليسا من الخلق ، والكلام في تفسير العقل مشهور^(٢) ، وعدمه الحق .

وأما الصحة والمرض فليسا أيضا من الأخلاق ، ولكنهما يوجدان في الإنسان بواسطة النفس ، إما في البدن ، وإما في العقل ، ولذلك يقال : أمراض البدن ، وأمراض النفس ، [وصحة البدن]^(٣) وصحة النفس .

وأما الاعتدال والانحراف فهما يدخلان في الخلق بوجه ، ويخلصان منه بوجه ، ويعمان أعراض البدن وأعراض النفس ، ويوصف بهما الإنسان ، على أن الانحراف المطلق لا يوجد ، والاعتدال المطلق لا يوجد ، ولكن كلاهما بالإضافة . وأما العفة والفجور فخلقان لها جرة^(٤) وهُود ، والحاجة تمس إلى العدل في استعمال العفة ونقي^(٥) الفجور ، وإذا قويت العفة حالت عصمة ، وإذا غلب الفجور صار عدوانا .

وأما التنبّه والغفلة فقربان من الخلق ويغلبان على الإنسان ، إلا أن فرط التنبّه موصول بالوَحي ، وفرط الغفلة موصول بالبهيمية .

(١) « والعدو » .

(٢) « يستمر به » .

(٣) لم ترد هذه العبارة التي بين مربعين في الأصل ؛ والسياق يقتضى إنباتها .

(٤) « حرة » بالمهملة .

(٥) « وتقي » .

وأما الذكر والنسيان فليسا بخلقَيْن محضَيْن ، ومنشؤها بالمزاج ، وأحدهما من علائق النفس العالمة ، والآخر من علائق النفس البهيمية .

[وأما الذكاء والبلادة^(١)] فهما خلْقَان ، ونعتهما كنعت الذكر والنسيان ، إلا أن هذين^(٢) يعرضان في الحين^(٣) بعد الحين ، والآخران^(٤) كالراسخين في الطينة .

وأما الغبطة والحسد فخلقَان رُسم الأول منهما بأن تتمنى لنفسك ما أُوتِيَ صاحِبُك [ورُسم الثاني بأن تتمنى زوال ما أُوتِيَ صاحِبُك]^(٥) وإن لم يصل إليك . ورسوم هذه الأخلاق أسهل من تحديدها ، لكنّا تركنا ذلك ، لأنّ الكلام الذي كان يجري هو على مذهب الخدمة .

على أن مراتب هذه الأخلاق مختلفة ، فيبعد أن يعمّها حد واحد ، وإنما اختلفت منازلها لأنها^(٦) تارة تصفو بقوة النفس الناطقة ، وتارة تكدر بالقوتين الأخرَيْن ؛ ولبعضها حدّة بالزيادة ، ولبعضها كَلّة بالنقص ، فلم يكن التحديد يُفصّل^(٧) كلّ ذاك ، فلم نخرج^(٨) على شيء عجّزنا عنه قبل أخذنا فيه . وتُتمّ بقيّة ما علّق بهذه الجملة ، فنقول :

وأما الدماثة والكَرَّازة فخلقَان محضان تابعان للمزاج ، ثم المِران يزيدها قوّة وضعفاً ؛ وهما للنعت أقرب ، كالسهولة والعسر ؛ ولذلك يقال : « ما أَدْمَتَ

(١) لم ترد هذه العبارة التي بين مربعين في الأصل .

(٢) هذين ، أي الذكر والنسيان .

(٣) « الجين بعد الجين » .

(٤) الآخران ، أي الذكاء والبلادة . وفي الأصل « والأوليان » .

(٥) هذه العبارة أو ما يفيد معناها ساقطة من الأصل ؛ والسياق يقتضي إثباتها .

(٦) « لأن » .

(٧) « بنقص » .

(٨) « يخرج » .

هذه الأرض » ، أى ما أُرْخاها وأَليَناها ؛ وفى المَثَل : « دَمْتُ لَجَنِّكَ قَبْلَ النُّومِ ^(١) مُضْطَجِعًا » .

وأما الحق والباطل فليسا من الخُلُق ولا الخَلْق فى شىء ، وهما من نتائج المعرفة والنسكرة ، لأنَّك تعرف الحق وتنكر الباطل ، وذلك لأغراض تتبعهما ، ولواحق تلتبس بهما .

وأما الفِئى والرُّشد فليسا من الخُلُق ، لكنهما من علائق الأفعال الحميدة والذميمة ؛ والرأى والعقل ^(٢) فيهما مدخل قوى وحظ تام .

وأما البيان والحَصْر فليس بينهما وبين الخُلُق عَلاقة ، وإنما يتبعان المِزاج ويزيد فيهما وينقصُ الجُهدُ والتوانى والطلب والقصور .

وأما الثقة والأرتياب فخلقان يغلبان ينفعان ويضرَّان ويُحمدان ويُذمَّان ألا ترى ^(٣) أنه يقال : لا تثق بكلِّ أحد ، « ولا تَرْتَبْ بكلِّ إنسان » وهكذا الطَّمانينة والثَّمة ، لأنهما فى طيِّهما .

وأما الحركة والسكون فليسا ^(٤) من حديث الخُلُق فى شىء ، لأنهما عامَّان ^(٥) لجميع الأحوال سواء كان العمل مباشرا أم كان معتقداً ؛ وفى الحركة والسكون كلامٌ واسع ، وذلك أن ههنا حركة إلهية ، وحركة عقلية ، وحركة نفسية ، وحركة طبيعية ، وحركة بدنية ، وحركة فلكية ، وحركة كوكبية ، وحركة

(١) فى الأصل « الترب » . وهذا صدر بيت ، وعجزه :

* لا تسكنن طريقاً غير مأمون *

(٢) « والعقد » .

(٣) « إلا أن ترى » .

(٤) « فلياً » .

(٥) « علما » .

كأنها سكون . فأما السكون فهو ضرب واحد ، لأنه في مقابلة كل حركة ذكرناها . فإذا اعتبرت هذه المقابلة في كل مقابل لحظ الانقسام في السكون ، كما وُجد الانقسام في الحركة .

والحركة أوضح برهان على كل موجود حسّي ، والسكون أقوى دليل على كل موجود عقلي ؛ وهذا القدر كافٍ في هذا الموضع .
وأما الشك واليقين ، فمن علائق النفس الناطقة ، ولهذا لا يقال في الحيوان الذي لا ينطق : له يقين وشك .

وأما الخلاعة والوقار ، فقد تقدّم البحث عنهما ^(١) .
وأما التوقّي والتهور ، فهما خلقتان في جميع الحيوان ، ويغلبان على نوع الإنسان ، لأن العقل يبطل ^(٢) أحدهما ^(٣) ، والحسن ^(٤) يغلب الآخر ^(٥) .
وأما الإلف والمألّ فخلقتان محصان ، يُدَمَّان ويُحَمَّدان على قدر المألوف والمملول ، وإن كان جرّيان العادة قد وفّر الحمد على الإلف ، والذم على المألّ .
وقد مُدِّح زيد فقيل : هو ألوّف . ودُمَّ عمرٌو فقيل : هو مَلُول .
وأما الصدق والكذب ، فمن علائق النفس الناقصة والكاملة ؛ وقد يكونان ^(٦) [راسخين ^(٧)] فيُلَحِّقَان بالخلُق ، إلا أن الصدق ممدوح ، والكذب

(١) يلاحظ أنه لم يرد فيما سبق ذكر للخلاعة والوقار ، ولا ما يفيد معابها .

(٢) « تظل » .

(٣) يريد بقوله « أحدهما » : التهور .

(٤) « والحسن » .

(٥) يريد بقوله : « الآخر » التوقّي .

(٦) « يكرّان » .

(٧) هذه الكلمة التي بين مربعين أو ما يفيد معابها ساقطة من الأصل ، والسياق يقتضى إثباتها كما يرشد إليه ما يأتي بعد في صفحة ١٥٧ في الكلام على الإحسان والإساءة :
« فإذا رسخ اعتيادهما استحالا خلقين » .

مذموم ، هذا فى النظر الأول ، وقد يعرض ما يوجب المصير إلى الكذب لينجى به ؛ فهما إذن بعد الحقيقة الأولى وقف على الإضافة ؛ وقد وجدنا من كذب لينتفع ، ولم نجد من صدق ليكتسب الضرر .

وأما الإخلاص والنفاق ، فهما يلحقان بالخلق ، ولكنهما يصدران عن عقيدة القلب وضمير النفس .

وأما الإحسان والإساءة ، فهما يعلمان الأفعال والأقوال ، فإذا رسخ اعتيادها أستحالا خلقين .

وأما النصيح والغش ، فهما خلقان ، وطرفاهما يتعلقان بالخلق . وكذلك الطمع واليأس ، والحب والبغض ، واللّهج والسؤلؤ ، وما شاكل هذا الباب .

ولم يجر هذا كله فى المذاكرة بالحضرة ، ولكن رأيت من تمام الرسالة أن أضّم هذا كله إلى حوّمته^(١) ، وأبلغ الممكن من مقتضاه فى تتمته .

وقال^(٢) لى : هاتِ الوداع ، فإن الليل قد همّ بالإقلاع .

قلت : قال أبو سعيد الذهبى الطبيب : لو علم الذى يحمل الباذنجان أن على ظهره باذنجاناً لصال على الثيران^(٣) .

فضحك — أضحك الله سنّه . وحقق فى كل خير ظنّه — وقال : إن كنت تحفظ فى غرائب أخلاق الحيوان شيئاً فأذكره إذا حضرت ، فقد مرّ فى أخلاق الإنسان ما يكفى مجلس الإمتاع والمؤانسة ، فإذا ضمّ هذا إلى ذاك كان للإنسان فيه تبصّر كافٍ ، وتذكرٌ شافٍ . وصدق — صدق الله قوله —

(١) « حرّمته » .

(٢) وقال ، أى الوزير .

(٣) « الثيران » .

لأن الإنسان أشرفُ الحيوان ، وإنما كان هكذا لأنه حاز جميعَ قوى الحيوان ثم زاد عليه بما ليس لشيء منه ، فصار ربًّا له سائسا ، ومصرِّفاً له حارسا ، ونظر إلى ما سُخِّرَ له منه فاعتبر ، وقاد ^(١) نفسه إلى حَسَن ما رأى ، وعَزَّفَهَا عن ^(٢) قبيح ما وَجَدَ ، ولم يَجْزُ في الحكمة أن يُحرِّم الإنسانُ هذا مع ما فيه من المواهب السنية ؛ والمنائح الهنية ، فإن قال قائل : فإللائكة إذن قد حُرِّمَتْ هذه الفضيلة ، فليعلم هذا القائلُ أن المَلَكَ لما خُلِقَ كاملا لم يَكَلَّف أن يَكْمُلَ وَيَتَكَمَّلَ وَيَسْتَكْمَلَ ، فصار كل شيء يطلبه ويتوقاه سببا إلى كماله المُعَدَّ له وغايته المقصودة . فإن زاد فقال : فهلا خُلِقَ ^(٣) كاملا ؟ فليعلم أن كلامه على طريق الجدَل ، لاعلى طريق البحث عن العِلَل ، لأنه قد جهل أنه بالحكمة وجَب أن يكون الأمر مقسوما بين ما يحوز الكمال بالجِبلة ^(٤) ، وبين ما يَكسِب الكمال بالقصد .

ولما وجَب هذا بالحكمة سَرَتْ إليه القدرة ، وساح به الجود ، وأُشتملت عليه المشيئة ، وأحاطت به الحكمة ، وشاعت فيه الرَبوبية .

وهنا زيادةٌ في شرح الخُلُق يتم بها الكلام ؛ فليس من الرأي أن يقع الإخلال بذكرها ، لأنها مكشوفة ظاهرة ، وهى أن الإنسان إذا غلبت الحرارة عليه في مزاج القلب يكون شجاعا بذًّا ^(٥) ملتَهبا ، سريع الحركة والغضب قليل الحقد ، زكى الخاطر ، حسن الإدراك .

وإذا غلبت عليه البُرودة يكون بليدا ، غليظ الطباع ، ثَقِيلَ الرُّوح .

(١) « وعاد » .

(٢) « من » .

(٣) خلق ، أى الإنسان .

(٤) « بالهيئة » .

(٥) « دالا » .

وإذا غلبت عليه الرطوبة يكون لين الجانب ، سمح النفس ، سهل التقبل . كثير النسيان .

وإذا غلبت عليه اليُبوسة يكون صابرا ، ثابت الرأي ، صعبَ القبول يضبط ويحتد^(١) ، ويُمسك ويبخل ؛ وهذا النعت على هذا التنزيل — وإن كان مفهوما — فأسرار الإنسان في أخلاقه كثيرة وخفية^(٢) ، وفيها بدائع لا تكاد تنتهى ، وعجائب لا تنقضى ؛ وقد قال الأول :

كلُّ أمرىء راجعٌ يوما لشيئته وإن تخلقَ أخلاقا إلى حينٍ
وقال آخر :

إرْجِعْ إِلَى خِيَمِكَ الْمَعْرُوفِ دَيْدَنُهُ إِنَّ التَّخْلُقَ يَأْتِي دُونَهُ الْخُلُقُ
ولولا أن النزوع عن الخلق شاق لما قالوا : تخلق فلان .

وقد قيل أيضا : « وخالق الناس بخلق حسن » ، وعلى هذا يجري أمرُ الضريبة والطبيعة والنَّحِيَّة والغريزة والنَّعِيْزَة والسَّجِيَّة والشيْمة ، وربما قيل : الطبيعة أيضا ، ثم العادة تاليةٌ لهذه كلها ، أوزائدة فيما نقص فيها ، وموقدة لما خمد منها .

الليلة العاشرة

ولما عُدْتُ في الليلة الأخرى ونَعِمْتُ بهذه الفضيلة ، تفضّل وقال : ما فى العلم شىء إلا إذا بُدِئَ بالكلام فيه اتَّصل وتسلسل حتّى لا يوجد له مَقْطَع ولا منفذ ثم قرأتُ عليه نوادرَ الحيوان ، وغرائب ما كنتُ سمعته ووجدته ، فزاد عجبًا

(١) « ويحتد » .

(٢) « وحقيقة » .

وأنا أرويه في هذا المكان حتى يكون تذكرة وفائدة — إن شاء الله تعالى .

يقال : إن أسنان الرجل أثنان وثلاثون سنا .

وأَسنان المرأة ثلاثون سنا .

وأَسنان الخَصى ثمانٌ وعشرون سِنًا .

وأَسنان البقر أربعٌ وعشرون سنا .

وأَسنان الشاة إحدى وعشرون سنا .

وأَسنان التَّيس ثلاث وعشرون .

وأَسنان العنز تسع عشرة سنا .

الذى ذكر من أصناف الحيوان أنه يكتسب معاشه ليلا : البومة والوطواط .

ومن الحيوان الوحش ما يستأنس سريعا : الفيل

ويحكى أن الحيوان الذى أسنانه قليلة عمره قصير ، والذى أسنانه كثيرة

عمره طويل .

الفيل إذا وُلد نبت أسنانه في الحال ، فأما أسنانه الكبار وأنيابه الكبار

فتظهر إذا شبَّ وكبر .

قلب جميع الحيوان موضوعٌ في الوسط من الصدر ما خلا الإنسان ، فإن

قلبه مائل إلى الجانب الأيسر .

الأفمى تبيض في رحهما ، ثم يصير هناك حيوانا .

الشعر المولود مع الإنسان شعرُ الرأس والأشعار والحاجبين .

وأول ما ينبت بعد ذلك شعر العانة وشعر الإبطين وشعرُ الحية :

(إن خصى الإنسان قبل أحتلامه لم ينبت في جسده الشعر الذى يتأخر نباته ،

وإن خصى بعد أحتلامه فإن ذلك الشعر يزول ، ما خلا شعر العانة فإنه يَبقى .

شعر الحاجبين ربما طال عند الكبر .

وشعر الأشفار لا يطول .

للأرناب في داخل أشداقها شعر ، وكذلك تحت أرجلها .

القنفذ في فيه خمس أسنان في عمقه .

والبرية منها تسفد قائمة وظهر الأنتى لاصق بظهر الذكور .

الرجال يشتاقون إلى الجماع في الشتاء ، والنساء في الصيف .

الخنزير إذا تمت له من ولادته ثمانية أشهر ينزوع على الأنتى .

الكلبة تحمل وتبقى ستين يوما ويوما ، وهذا أطول ما يكون ، ولا تضع قبل أن يتم حملها ستين يوما ، فإن وضعت قبل ذلك فإنها لا تربى ولا يبقى لها ولد .

الفيل الذكور ينزوي إذا تمت له خمس سنين ، وزمان هياجه ونزوه أيام الربيع والأنتى تحمل سنتين ، ولا تضع إلا واحدا .

إذا باض الطائر وما كان من أصنافه يخرج من البيضة الطرف العريض ثم يرق بعد ذلك .

كل ما كان من البيض مستطيلا محدّد الطرف فهو يفرخ الإناث وما كان مستديرا عريض الأطراف يفرخ الذكور .

وجرب من إناث الطير أنها إذا لم تجلس على البيض^(١) تمرض .

القَبْج^(٢) إذا هاج ووقفت الأنتى قبالة الذكر ، وهبت الريح من ناحية الذكر مقبلة إلى ناحيتها حملت من ساعتها .

(١) « الطير » .

(٢) القَبْج : الكروان .

الحمامة إذا نُتِفَت ريشة من ريشها احتبس بيضها أكثر مما لها بالطبع .
مبدأ خلق الفَرخ من بياض البيضة ، وغِذاؤه من الصُّفرة ، فإذا خرج
فَرخان كان أحدهما أكبر جِثَّةً من الآخر ، والذكر منهما من البيضة الأولى
ومن الثانية الأنثى .

الفاخِنة^(١) تعيش أربعين عاما .

والحَجَل^(٢) يعيش عشرين عاما .

الرَّحْمَة تُفرخ على صخور مشرفة عالية لا ينالها أحد ، ولا توجد رَحْمَة
وفراخها إلا في الفَرَط^(٣) .

العُقاب يجلس على البيض ثلاثين يوما ، وكذلك كلُّ طائر عظيم الجِثَّة
مثل الإوز وما أشبهه ، والمتوسط الجِثَّة يجلس على البيض عشرين يوما ، كالحدَّأة
والبُرْزاة وما أشبه ذلك .

إناث الغُرْبَان تجلس على البيض جلوسا دائما ، والذكر يأتيها بالطعم حينئذ .
الحَجَل تَعْمَل عُشَّين يجلس الذَّكر على واحد ، والأنثى على واحد .

الطاوس يعيش خمسا وعشرين سنة ، وفي هذه المدة تنتهي ألوان ريشه .
ويحسُن بيضه ثلاثين يوما . قيل : وربما أكثر قليلا ، ويبيض في كل سنة
مرة واحدة ، وعدد بيضه اثنتى عشرة بيضة ، ويُلقى ريشه في زمن الخريف
وبعدَه قليلا ، وذلك حين يُلقى الشجرُ ورقه ، فإذا بدا أولُ الشجر وظهرت
فروعه ، ونبت ورقه بدأ ريشه يَنْبُت .

(١) الفاخنة : ضرب من الحمام المطوق .

(٢) الحجل : طائر على قدر الحمام كالقطا أحمر النقار والرجلين ، ويسمى دجاج البر ؛ وهو
صنفان : نجدى وتهامى ؛ فالنجدى أخضر اللون أحمر الرجلين ؛ والتهامى فيه بياض وخضرة .

(٣) الفرط : الجبل الصغير أو رأس الأكمة .

الدَّالِّينَ^(١) له لبن ، ويُرضع ، ويَحْمِلُ عشرة أشهر ، وتلد في الصَّيفِ ولا تلد في زمانِ آخرِ البَتَّة ، وربما غاب تحت الموج في الماء ثلاثين يوما لا يظهر ؛ وهو محبٌ لِحَرْثِهِ يَأْكُلُهُ .

الْجَمَلُ الذَّكَرُ يَكْرَهُ قُرْبَ الْفَرَسِ وَيَقَاتِلُهُ إِذَا تَمَكَّنَ مِنْهُ .
الشَّاةُ إِنْ مُطِرَتْ بَعْدَ نَزْوِهَا أُنْتَقَضَ حَمْلُهَا .

الْغَنَمُ إِذَا أُتْرِيتُ وَالرَّيْحُ جَنُوبٌ تَصْعُ أَوْلَادُهَا إِبَانًا ؛ وَإِنْ كَانَتْ الْعُرُوقُ آتَتْ تَحْتَ أَسْنَنِ الْكِبَاشِ الْفُحُولِ بَيْضًا فَإِنَّ إِبَانَتِ الْغَنَمِ تَصْعُ حُمْلَانَا بَيْضًا ، وَإِنْ كَانَتْ الْعُرُوقُ سُودًا فَإِنَّهَا تَصْعُ حُمْلَانَا سُودًا . وَإِنْ كَانَتْ لَوْنَيْنِ تَكُونُ مُخْتَلِفَةً ؛ وَإِنْ كَانَتْ شُقْرًا خَرَجَتْ شُقْرًا .

الْغَنَمُ إِذَا هَاجَتْ الْمُسِنَّةُ مِنْهَا أَوَّلًا فَالْسِنَّةُ ذَاتُ خِصْبٍ ، وَإِنْ هَاجَتْ الْفَتِيَّةُ أَوَّلًا فَالْسِنَّةُ رَدِيئَةٌ عَلَى الْغَنَمِ .

الْكَلْبُ السَّلَوقِيُّ [يَزُو^(٢)] إِذَا تَمَّ لَهُ ثَمَانِيَةُ أَشْهُرٍ ، وَالْأُنْثَى مِنْهَا تَحْمِلُ سِتِينَ يَوْمًا ، وَرَبَّمَا زَادَتْ يَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ ، وَجَرَاؤُهَا غَمِيٌّ^(٣) اثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ يَوْمًا . وَمِنْهَا مَا تَحْمِلُ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ وَتَكُونُ جَرَاؤُهَا عَمِيًا سَبْعَةَ عَشْرِ يَوْمًا .

إِبْنَاتُ الْكِلَابِ تَطْمَثُ فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ وَتَبُولُ جَالِسَةً ، وَمِنْهَا مَا تَرْفَعُ رِجْلَهَا عِنْدَ الْبُولِ .

ذَكَوْرُ الْكِلَابِ تَرْفَعُ أَرْجُلَهَا لِلْبُولِ إِذَا تَمَّتْ لَهَا مِنْ وَلَادَتِهَا ثَمَانِيَةُ أَشْهُرٍ وَبَعْضُهَا فِي سِتَّةِ أَشْهُرٍ .

(١) الدَّالِّينَ مِنْ دَوَابِّ الْبَحْرِ ، اشتهر بأنه ينحى الفريق ؛ وصفته كالقرق المنفوخ وله رأس صغير جدا ، ولا يؤذى أحدا ، وهو كثير بأواخر نيل مصر .

(٢) هذه الكلمة أو ما يفيد معناها ساقطة من الأصل ، والسياق يقضيها .

(٣) « على » .

ذكور الكلاب السلوقيّة تعيش عشر سنين ، وإناثها اثنتى عشرة سنة ، ومن أجناسها ما تعيش عشرين سنة ، وإناثها كلّها أطول أعمارًا من الذكور .

قال أوميروس الشاعر : إن كلب إديوس هلك وهو ابن عشرين سنة .

وليس تلقى الكلابُ شيئًا من أسنانها سوى النابين ، فإذا تمّ للكلب أربعة أشهر أبقاها .

البقر تلقى أسنانها لستين ، وإذا كثر نزوُ الذكور منها وحملُ الإناث يكون ذلك علامةً شتاء وجودِ أمطار وخصب ، وإناثها تطعّث .

إناث الخيل تضع أولادها في أحد عشر شهرًا ، أو في الثانى عشر .

الحيات رغبةٌ نهمة ، قليلة شرب الماء ، لأنها لا تضبط أنفسها ، وإذا شمت الشراب فإنها تشتاق إليه جدًّا .

الأسد إذا بال رفع رجله كما يرفع الكلب .

البقر تشتهى شرب الماء الصافى النقى ، والخيل على الضد فإنها تشرب مثل الجمال الماء الكدّر الغليظ .

الغنم فى الخريف تشرب الماء الذى تصيبه ريح الشمال ، وذلك الوقت أوفق لها .

الذّراج إذا هبّت الريح شمالًا تتزاج (١) وتخصّب ، وإن كانت جنوبًا ساءت حالها ومرضت .

السّمك الذى يأوى إلى الشطوط من ناحية البرّ الذّ من الذى يأوى إلى الجبّ وما كان منها مستطيل الجثّة فهو يُخصّب فى الصّيف وهبوب الشمال ؛ والعريض

(١) « تتزاج » .

الجثة على ضد ذلك ، وأكثر ما يصاد السمك قبل طلوع الشمس لكلبه على الرعى ، وطلب الطَّعم .

والسمك الجاسى الجلد يخصب فى السنة المطيرة ، لأن ماء البحر يحلو فيها .
الكلب له ثلاثة أمراض : الكَلَب ، والدُّبْحَةُ^(١) — وهو القاتل لها —
والنَّقْرَس .

والداء الذى يقال له الكَلَب يعرض للجمال أيضا ، فإذا كلب الجمل بخر ولم يؤكل لحمه .

الخيل إذا ألت حوافرها وقت تنصّل^(٢) نبت لها حافر آخر عاجلا ، لأن نباته يطلع مع نصول الحافر .

وعلامه ذلك اختلاج الخصية اليمنى .

ويعرض للخيل داء شبيه بالكَلَب ، وعلامته استرخاء آذانها إلى ناحية أعرافها ، وامتناعها من العلف ، وليس لهذا الداء علاج إلا التسكين .

لا يكون فى بلد الهند خنزير . لا أنيس^(٣) ولا برى ، وفى أرض تُعرف بكذا يجزّ البقر كما يجز الغنم ، وفى أرض الثوبة تولّد الكباش نابثة^(٤) القرون .

وإنث الكلاب السلوقيّة أسرع إلى الأدب من الذكور .

جميع أجناس الحيوان إناثها أكل جراءة وأجزع ، ما خلا الذئبة ، فإنها أصعب خلقا وأجرا من الذكور .

العقاب والتّنين يتقاتلان ، والعقاب تأكل الحيات حيثما وجدتّها .

(١) « والدجة » .

(٢) نصول الحوافر : خروجها من مواضعها .

(٣) « لا أنس ولا يرى » .

(٤) « نابثة » .

الغُذاف^(١) يخطف بيض البُومة نصف النهار فيأكله ، لأن البومة لا تبصر بصراً حاداً في ذلك الوقت . فإذا كان الليل شددت البومة على بيض الغُذاف فأكلته . بين العنكبوت وبين الحِرْذَوْن^(٢) شرٌّ ، لأن الحِرْذَوْن يأكل العنكبوت . عصفور الشَّوك يقاتل الحمار ، لأن الحمار إذا مرَّ بالشوك أفسد عشه ، فإذا نهق بالقرب منه وقع يبيضه ، وإن كان فيه فراخ خرجت منه ، فلهذه العلة يطير هذا العصفور حول الحمار وينقره .

الغراب يعادى الثور والحمار وينقرهما .

والحية تعادى الخريز وأبن عرس ، لأنهما يأكلان الحية حيث وجداها . الغُذاف مصادق للشعلب ، والشعلب مصادق للحية ، « والسبب^(٣) في عداوة العصفور للحمار أن معاش العصفور من زرا الشوك وفيه يبيض ، وهو وكره ، والحمار يرى ذلك الشوك إذا كان رطباً » .

البقر يكون في الجبال إذا ضلَّت بقرة تبعثها الأخرى ، ولذلك الرعاة إذا لم يجدوا بقرة واحدة وعدموها طلبوا سائر البقر وفقدوها من ساعتهم .

الخيل إذا ضلت الأنثى منها أو هلكت ولها ولد فإن إناث الخيل ترضعه وتربيه ، وذلك أن جنس الخيل في طباعها حُبُّ أولادها .

الأيائل تلقي قرونها في أماكن عسيرة صعبة ، لا تترتقئ لثلاً تؤخذ ؛ ولذلك قيل في المثل : حيث تلقي الأيائل قرونها ، فإذا ألقتها توقت أن تظهر إلى أن تنبت ، كأنها قد ألقَت سلاحها . وقيل : إنه لم يعاين أحد القرن الأيسر من قرنها ، لأن فيه منفعة عظيمة .

(١) الغذاف : غراب كبير يكون ضمن الجاحين .

(٢) الحِرْذَوْن : دوية شبيهة بالضب ؛ وقيل : ذكر الضب .

(٣) يلاحظ أنه قد سبق ما يفيد معنى هذه العبارة التي بين هاتين العلامتين .

وإذا وضعت أولادها أكلت مشأئها من ساعتها ، ولا يمكن أخذها لأنها تأكلها من قبل أن تقع على الأرض .

والأيلة تصاد بالصَّيْر والغنَّاء ، ويفعل ذلك رجلان أحدهما يغني ويصفر ، والآخر يرشقها بالسهم ، فلا يصغأها ^(١) إلى الصغير والغنَّاء لا تحذر السهام .

ويقال إن الأيل إذا كانت أذناه قائمتين فهو يسمع كل شيء ولا يخفى عليه ما يراد به ، وإن كانتا مسترخيتين خفي ذلك [عليه] .

الفهد إذا أكل العشبة التي تسمى خائقة ^(٢) اليهود يطلب زبل الإنسان فيأكله ويتعالم به .

ابن عرس إذا قاتل الحية أكل السذاب مخالفة للحية .

اللقاق إذا خرجت من قتال بعضها بعضا تضع على الجرح صعترا برياً .

يقال إن ذكور العسافير تبقى سنة فقط ، والدليل على ذلك — أنها من قبل أطواقها التي في أعناقها — لا تظهر في الربيع ، بل بعد ذلك بأيام ، لأنها لا تبقى شيئاً من الذكور التي كانت من العام الماضي ، فأما إناثها فهي أطول أعماراً .

إذا دنا الصياد من عش القبج تخرج الأنثى من بين يديه وتطعمه في صيدها حتى تهرب فراخها ، ثم تطير وتدعو فراخها إليها .

وإناث القبج تبيض خمس عشرة بيضة ، والذكر منها يطلب موضع بيض أنثاه فيدحرجه — مخافة أن تقعد عليه وتستغل عنه — فيفسده ، وهي تحتال أبداً في الهرب منه وتخفي موضع عشها ، فتبيض في أماكن خفية ، ومتى ^(٣) قصدها

(١) « ملاصقا لها » .

(٢) « خائقة » .

(٣) « ومن » .

قامت عنه وأطعمت في نفسها حتى تبعد عن أما كن بيضها ، فإذا بعد طارت
ثم أحتالت في الرجوع إليه .

المدهد يعمل عشه من زبل الإنسان ، فلذلك رأخته كريهة .

العقاب تصيد منذ حين الغداة إلى وقت الرواح ، فأما من أوان الرواح^(١)
إلى أن يترحل النهار فهي قاعدة في مكانها لا تتحرك .

ومنقار العقاب الأعلى ينشأ ويعظم ويتعقف حتى يكون ذلك سبب هلاكها
لأنها لا تنال به الطعم ، فإذا فضلت للعقاب فضلة من طعمه وضعها في عشه
لحاجة فراخه إليها .

أصناف الطير المعقفة الخالب لا تجلس على الصخر إلا في القُرط ، لأن خشونة
الصخر مخالفة لتعقف مخالبا .

النحل تعمل عشها في زمانين : في الربيع والخريف . والعسل الذي عمله
في الربيع أشد بياضا وأجود من الذي عمله في الخريف .

وأضعف العسل يكون أبدا في أعلى الإناء ، والنقي الطيب في أسفله .

الأسد عظامه جاسية جدا ، وإن دُكت بعض عظامه ببعض خرجت منها
نار كما تخرج من الحجارة .

الحيوان الذي له شعر [في أشفار^(٢) عينيه] ليس في أشفار عينيه شعر إلا
الشعر الأعلى .

والنعامة لها أشفار في الجفنين الأعلى والأسفل .

(١) « المصبح » وهو تبديل وقع من الناسخ يناقض ما قبله .

(٢) هذه التكلة التي بين مربعين لم ترد في الأصل ؛ والسياق يقتضيها .

القنفذ تبيض خمس بيضات ، وليس هو بيضا بالحقيقة ، بل هو على صورة البَيْض ، يُشبه الشحم .

قلبُ كلِّ حيوان طَرَفَه حَادٌّ ، وهو أصْلَب من سائر جسده ، وهو موضوع في وسط الصدر سوى الإنسان ، فإنه مائل فيه إلى الناحية اليسرى ، لأنه يكون بإزاء ^(١) الجانب ^(٢) الأيسر فيعادل الناحية اليمنى ، فإن اليسرى من الإنسان أكثر بردا .

وليس في قلوب جميع الحيوان عظم إلا في الخيل ، وفي جنس من البقر ، فإن في قلب هذين عظاما دون غيرها من الحيوان .

وكل حيوان له قلبٌ كبيرٌ يكون جزوعا .

الكلاب الهندية تقوِّلد من كلب وسبع شبيهه بالكلب .

والحمار حيوان بارد ، ولذلك لا يكون الوحشي منها [إلا ^(٣)] في المكان البارد .

ذكور البغال لا تشمُّ أبوال إناثها كسائر ذوات الحافر .

بيض الطير فيه لونان : بياض وصُفرة .

وبيض السمك فيه لون واحد .

إذا كانت الريح جنوبا كان المولود أنثى ، لأن الجنوب إذا هبَّت رَطَّبَتْ وإذا أشمَلَتْ كان المولود ذكرا .

عيون جميع الصبيان ساعة ولادتهم شُهل ^(٤) ، ثم تنتقل إلى الطباع الغالبة عليها .

(١) « بإناء » .

(٢) « الجانب » .

(٣) هذه الكلمة التي بين مربعين ساقطة من الأصل ؛ والسياق يقتضيها .

(٤) شهل : من الشهلة بضم الشين ، وهو أن يشوب سواد العين زرقه ؛ وقيل أن تشوب الحدة حمرة وليست خطوطا .

وعيون جميع الحيوان لون واحد ، كالبقر فإن عيونها سود . وعيون البشر^(١) ألوان كثيرة .

صاحب العين الناتئة^(٢) لا يُبصر ما بعد عنه بصرا جيّدا ، والغائرة تُبصر ما بعد عنها ، لأنّ حركتها لا تتفرّق ولا تتبدّد .

الفهد ربما نكح الدّبّ فيتولّد بينهما سبعٌ مختلف المنظر ، لا يتناول الناس ويصيد الكلاب ويأكلها ويستخفي في البحر ، فإذا مرّ به أيلٌ مفاجأة وثب عليه وأنشب^(٣) مخالبه في أكتافه ومصّ دمه حتى يضعف الأيل^(٤) ويسقط فيجتمع عليه هذا الصنف من السباع فيأكله ، فإن أجتاز بها أسد نهضت عنه وتركت العريسة له تقرّبا إليه .

بأرض يونان معزى جعدة الصوف ، يقال لها : المعزى البريّة ، فإذا أصابت قرونها شيئا من قُضبان الكرم لم يَنْبت ورقه ولا ثمره ، بل يحفّ مكانه ويسقط ما عليه من الورق والثمر .

السُّلَحْفَاء تخرج من البحر إلى الرمل فتبيض فيه ، حتى إذا بلغ أوانه وخرج أولادها ، فما كان ناظرا إلى ناحية البحر كان بحريا ، وما كان وجهه إلى ناحية البرّ كان برّيا .

والسُّلَاحِف تتمتع من الدُّكْران ، فيأتيها بعود يحملها في فمه ، ويدنو منها ، فإذا رأت ذلك العود سكنت له .

وما كان من السُّلَاحِف بحريا فخرج إلى البر وأصابه حرّ الشمس لم يستطع

(١) « السر » .

(٢) « الثانية » .

(٣) « وأنبت » .

(٤) الإبل .

الرجوع إلى البحر وبقى حتى هلك . وما كان برتياً فوقع إلى ناحية البحر تَلَف ولم يستطع الرجوع إلى البرِّ وهلك .

الثعلب يهَيءُ عُشَّهُ ووَكَّرَهُ ذا سبعة أجرة ، فإذا^(١) طرقتة الكلاب وغيرُها مما يتخوف [في جحر^(٢)] خرج من غيره .

وإذا فارب الزرع أن يُسَنَّبِل^(٣) دخل الثعلب فيه وتمكك فرحابه ، فيفسد ذلك الزرع ، ولذلك سُمِّيَ أَحْتَرَأَقُ^(٤) الشعر : داء الثعلب ، لأنه^(٥) يُسَقِّطُهُ كما يذهب ورق السنبل والشوكة .

القنفذ يعمد إلى الكرمة فيحزركها فيقع منها العنب ، فيتمرغ فيه حتى يملأ شوكة ويعود إلى عُشِّه ، فإذا بصرت به جراؤه أطافت به تلتقط ذلك الحب من شوكة وتأكله .

الذئب إذا هَيَّئَ من معاهُ وَتَرَّ وهَيَّئَ من مَعَى الشاةِ وَتَرَّ ، ثم عُلِقَا بآلات الملاحى ، ثم ضرب بهما ، صَوَّتَ المِعْمُولُ من الذئب ، وَخَرَسَ الوترُ المِعْمُولُ من الشاة . وكلَّ شاةٍ يتناول الذئب من لحمها يكون لحمها حلواً لذيداً ، وكل جزء صوف تَهَيَّأَ من الشاة التي قد تناول الذئب منها قَمِلَ الثوب المِعْمُولُ منها من قِبَلِ سُمِّ^(٦) أسنانه .

· السكلب إذا مَرَضَ أكلَ حَلْفَاءَ رَطْبَةً .

(١) « كما إذا » .

(٢) هذه التسمية أو ما يفيد معناها ساقطة من الأصل ؛ والسياق يقتضيهما .

(٣) « يسيل » .

(٤) « اختراق » .

(٥) « لأنه » أى داء الثعلب ؛ « يسقطه » ، أى يسقط الشعر .

(٦) « سم » .

والأَيْلُ إذا مرض أكل حَيَّة .

والضَّبُع إذا مرض أكل كلبا .

الأسد إذا أكل كلبا فإنه يكون قد ضرس فيزول ذلك .

الرخمة إذا ضعف بصرها بقرت حرارة إنسان

الأعنز البرية [تألف ^(١)] حيثانا بحرية ، وتدع الجبال وتسلك طريقا بعيدا حتى تأتي البحر لمكان تلك الحيتان ، فلما عَرَف ذلك الملاحون سَاخُوا جلود تلك الأعنز ، ودنوا ^(٢) بها من شاطئ البحر على ظهورهم ، فإذا نظرت ^(٣) تلك الحيتان إليها خرجت مسرعة إليها فيصيدها الملاحون .

ليس من السباع شيء صُلْبُهُ عَظْمٌ واحد بلا خَرَز إلا الأسد والضبع .

من ربط على بدنه سِنًّا ^(٤) من أسنان الذئب وابسه لم يخف الذئاب .

والفرس الذي يُعَلَّق عليه شيء من أسنان الذئب يكون سريع الجرى .

المعزى البرية تكون صُلْبَةُ القرون ، تأوى أطراف الجبال وما كان مُشْرِفا من الصخور على أودية ، فإن بصرت بالصياد ألقت أنفسها من تلك الصخور لتقيها بقرونها ، فإن سقطت على غيرها هلكت ، وفي قرونها خرزات مستديرات على قدر ما يكون عددُ سِنِّيها ^(٥) .

والعجب أنها تحفظ إناثها عند الكِبَر وتتعهدُها بالمطعم والمشرب تحمله على أفواهاها .

(١) في الأصل : « الأعنز البرية حيثانا » بقطو كلمة « تألف » أو ما يفيد معناها .

(٢) « وذبوا » .

(٣) [ظهرت] .

(٤) « شيثا » .

(٥) « سنوها » .

المعزى البرية إذا صيد شيء من سخالها تبعته ورضيت بالعبودية مع ولدها
وفي أطراف قرونها جِجَرَةٌ تنفّس منها ، فإن سُدَّتْ هلكَتْ مكانها .

الورشان^(١) يتحرّز بأن يضع ورق الغار في عُشّه .

والحدأة تضع في عُشّها ورق العليق تتحرّز به .

الخطاف يضع في عشه قضيب كرفس .

التدرج^(٢) يضع في عُشه سرطاناً نهرياً .

جميع السباع والدواب عند المشى تقدّم اليد اليمنى والرجل اليسرى .

لا تكون الزرافة إلا في أرض قليلة الماء .

إذا هم أصحاب الخيل أن يُنزَوْ^(٣) حماراً على فرس جزّوا عُرفها فتقرّ^(٤) حينئذ
وتذلّ لكدم^(٥) الحمار لها .

يئونان ثيران لها أربعة قرون لا ترضى بمجامعة البقر ، بل تجامع إناث
الخيول ، ويتولد بينهما خيول عجيبة المنظر .

الجاموس لا ينام أصلاً وإن أرخى عينيه إرخاء يسيراً ، لكنّه ساهر
الليل والنهار .

الجل إذا وقع على الناقة وقع الضراب سُتِرَ عن الرجال ، فإن نظر إليه
رجل غضب .

قالت الروم : إن السنور يتولد من مجامعة الفهد لبعض السباع .

(١) الورشان : طائر شبه الحمام ، وهو نوبى وحجازى ، والنوبى أشجاءها صوتاً .

(٢) التدرج : طائر كالدرج حسن الصوت يفرّد في البساتين .

(٣) « يشترّوا » .

(٤) « فيفر » وهو محريف .

(٥) « لكدم » . والكدم : العض .

[لا ينام ^(١)] البوم إلا إغفاءة ^(٢) .

ومن العجب أن السنور يكون صافى العين كثير البريق عند امتلاء الهلال وينقص ذلك الصفاء ^(٣) والبريق عند نقصان الهلال .

الأفعى إذا جامعها الذكر وأسمه الأفعوان تحولت إليه ، فإن ظفرت به أكلت رأسه من شدة عشقها له .

ذكر العقرب اسمه غقربان ، أسود صغير ، سريع المشى ، جاد ^(٤) الذهاب الحرذون ^(٥) تفسيره بالعربية الذى يخرج من الزعفران .

التمساح لا يكون إلا فى النيل ونهر بأرض الهند يقال له : الرئيس ويبيض كبيض الإوز ، ورعا يؤلف منه حراذين صغار ، ثم يكبر حتى يبلغ طوله عشر أذرع ، ويزداد طولاً كلما ازدادت سنو حياته .
وسننه اليسرى نافعة لحمل النافض .

وذكر أنه يجامع ستين مرة فى حركة واحدة ومحل واحد .

الحمار الوحشى يتولد بين الفرس والغيل ، وله قرن يثبت من أنفه كأنه سيف ، وإن ضرب شجرة قطعها وبه يقاتل الغيل ويجمع ^(٦) بطنه بقرنه ، ولم يُعائِن من هذا الجنس أنثى قط .

فى البحر حوت يقال له : البوس ، يتولد من الصاعقة إذا كانت فى البحر

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ والسياق يقتضيه .

(٢) « أغطاء » .

(٣) « الصفا » .

(٤) « حاد » .

(٥) لم نجد فى كتب اللغة التى بين أيدينا ما يفيد أن لفظ الحرذون غير عربى ولا أن تفسيره بالعربية ما ذكره المؤلف ، كما أننا لم نجد ذلك فيما بين أيدينا من الكتب المؤلفة فى الحيوان .

(٦) « وينفخ » .

وإن وُضع ذلك الحوت بين اثنين فأكلا منه تمأبًا ولا يحمد أحد على صاحبه ، ويتآخيان أحسن الإخاء .

كلب الماء أبدا ذنبه على ظهره واقع مع انطباق والتواء ، يرعى نبات الأرض ، وهو شديد الجزع من النار ، فإذا كان الليل خرج الصيادون بأيديهم شعل النار ، فيأتون بحمّهما ، وتلك لا تتحرك لجزعها من النار حتى تؤخذ ، وإن كان منها ذكر لم يجامع أنثى قط ، وإذا أرادت الجامعة فإنها تجتمع وتجلد^(١) فتفترخ .

وإن أخذ منها صياد بشبكة واحدا وثبت كلّها حتى تدخل الشبكة آية فراق بعضها بعضا .

ومن لبس جوربا من جلودها وبه نقرس انتفع به جدا .
وإذا ابتلى إنسان برعاف ثم أخذ قطعة من جلدها ، ثم أنعقد في ابن وأشتمته أنقطع ذلك الرعاف .

اليرابيع إذا اجتمعت في موضع ارتفع رئيس لها حتى يكون في موضع مشرف أو على صخرة أو تل ينظر منه إلى الطريق من كل ناحية ، فإن رأى أحدا مقبلا أو سبعا صر^(٢) بأسنانه وصوت ، فإذا سمعته انصرفت عن الموضع إلى جحرتها فإذا أغفل ذلك وعانيت البقية سبعا أو راجلا قبل أن يراه ذلك الرئيس انصرفت إليه وقتلته لتضييعه أو غفلته .

وإذا كان حسن الرصد مضت اليرابيع فقطعت أطرا ما يكون من الخضرة وأطيب العشب فحملته بأفواهها حتى تأتية تحمية وتكرمة .

(١) في الأصل « وتخلد وتفرح » والمراد بالجلد هنا جلد عميرة .

(٢) « صر » .

وإذا كانت في جِحرَتها خرج الرئيس أولاً فيبصر الطريق ، فإن لم ير أحداً صرَّ بأسنانه وصوت لها لتخرج فترعى .

في البحر حوت يقال له : موفى ، ضعيف الجسد ، قليل القوة ، إذا جاع خرج إلى الشاطئ فاستلقى على الرمل فأقام شوكة في رأسه ، فإذا نظر إليه حوت آخر جاء مسرعاً لياً كله يظن ^(١) أنه ميت ، فيدخل بطنه تلك الشوكة فيقتله بها ويأكله .

وإذا ألقى الملاح صِنَارته ولقيت ذلك الحوت رَمَى مكانه بتلك الشوكة الحادة يد الملاح فتحدّر ويطرَح أداة صيده .
فإذا رأى الحوت أن الصَّنارة داخلت أضلاعه غلبت الظلمة على بصره . ومات من ساعته .

وفي جلد هذا الحوت عجب ، وهو أن الصاعقة لا تدنو من جلده ، والملاحون يغطون سُفُنهم به عندما يتبينون ^(٢) الصواعق ووقوع المطر ، ويدنو هذا الحوت إلى طرف مقدم السفينة فيمسك بطرفه ^(٣) اللطيف ، فلو اجتمعت الرياح كلها بأشد هبوبها لم تستطع تحريك تلك السفينة ، فمن أخذ من جلدها وسجّر به شراع السفينة لم يخف على سفينته ^(٤) غرقاً .

السريع الحُضْر أربعة : النمر والجَرِيش ^(٥) وعز الجبل وكباشها .
عدو الحيات أربعة : القنفذ والفيل والأيل والعَقَق .

(١) « فظن » .

(٢) وردت هذه الكلمة في الأصل هكذا : « سون » .

(٣) بطرفه ، أى طرف مقدم السفينة . واللطيف : الدقيق .

(٤) « لسفينتها » .

(٥) الحرّيش : دابة صغيرة في جرم الجدى ساكنة جداً ، غير أن لها من قوة الجسم ، وسرعة الحركة ما يعجز القناس ؛ ولها في وسط رأسها قرن واحد مصمت مستقيم تناطح به .

الجبان اثنان : الأرنب والأيل .

ذو الزهو ثلاثة : العرس والديك والطاوس .

ذو حدة السمع ثلاثة : الذئب والحمار والخلد ^(١) .

القادر في الأزواج ثلاثة : المصفور والحمام والعقّاق ^(٢) .

ذو الشهوة ثلاثة : العصفور والثور والباشق ^(٣) .

لمتحارس بالليل اثنان : الكركي والبط .

نافى فراخه ثلاثة : العام والضداف والعقاب .

محب الظلمة ثلاثة : البوم والخفاش والخلد .

ذو حدة البصر ثلاثة : العقاب والظبي والباشق .

من أخذ لسان ضبع ومر به بين الكلاب لم تكلب عليه .

من مر بمكان كثير الضباع فأخذ بيده أصلاً من أصول عنب الحية هربت منه . وعنّب الحية هو الحنظل .

وذكر الجباري يقال له : الخرب .

إذا أراد إنسان أن يتزوج امرأة فليتنظر إلى أبيها وأخيها فإنها يعيناه ^(٤)

وبين يديه أحدهما .

(١) الخلد : دوية تحت الأرض ؛ وهي صرب من الجرذان .

(٢) العقق : طائر على قدر الحمامة وعلى شكل العراب ، وجناحه أكبر من جناح الحمامة ، ذلونين : أبيض وأسود ، طويل الدنب .

(٣) الباشق : ضرب من بزاة الصيد ، وهو طائر خفيف الحمل شديد الملح ، يأنس حياً ويستوحش حياً .

(٤) الواو في قوله « وبين يديه » واو الحال ، أى كأنه يعاينها حال كون أحدهما مائلاً بين يديه يعاينه . وفي الأصل « يعينه وبين يديه أحدهما » .

من الحيوان ما لا يشبه الولدَ كالديبة والنحل والدَّبَر^(١) .
أما الديبة فتضع أولادها توأمَ لا صور لها حين تولد ، غير أن أمها تهبي^٢
صُورها^(٣) ، وتسويها بلحسها إياها بالسنتها ...^(٤)
وأما الدَّبَرُ فإنها تلد دودا يتصوّر بعد ذلك .
الضفادع والغيالم^(٥) والسرطانات لا ضرر عليهما في ماء ولا يلس ، لكنهما
عندها سيّان لا تهلك في برّ ولا تُخنق في بحر .
كلُّ ما أكل اللحم فهو ذو أسنان قواطع صلاب ، وأعناقٍ قصارٍ شداد ،
ومخالبٍ وأظفارٍ حداد ، ومناقيرٍ معقّفةٍ جذابة .
للأسد ثلاث طبائع : الأولى منها أنه إذا مشى فشمّ ريح الصيادين عَنَى
على آثاره بذَنَبه لكيلا يتبعه الصيادون ويقفوا عليه في عَرِينه فيمتصّيدوه .
والثانية أن اللبؤة تلد شبلها مَيِّتاً ، فلا تزال تحرسه حتى يأتى أبوه في اليوم
الثالث فينفخ في منخره فيبعثه .
والثالثة أنه يفتح عينيه إذا نام وهما يقظتان .
ومن تمسّح بشحم كلى الأسد ومشى بين السباع لم يخفها ولم تقربه ؛ وإن
افترس^(٥) الأسدُ الفريسةَ ولم يأكلها مَيَّرَ أن ريحها منتنة جدا .
وأصناف الحيوان التي تلغ الدم بالسنتها : الكلابُ والسنانير .

(١) « الدين » . والدبر : الرناير .

(٢) « سورها » .

(٣) الظاهر أن ها كلاما سقط من الناسخ ، إذ كان مقتضى السياق أن يتحدث عن

الحمل بعد الديبة .

(٤) الغيالم : ذكور السلاحف ، الواحد غيلم بفتح أوله .

(٥) « وإن لم يفترس » .

الأُسْد : تضع أولادها غيرَ منفَتحة العيون ، وإنما تنفتح بعد ذلك .
وأما الأُسْدُ^(١) خاصّة فليس له من جنسه قرين ، ولا يَرى شيئا من السَّبَاع
كفؤا له فيصحبه ، ولا يقرب شيئا من بقايا فريسته بالأَمْس ولو جهده الجوع
ويهر^(٢) زئيرُهُ كثيرا من الحيوان الذي هو أعظم منه جسما وقوة .

وإنما تلد اللَّبؤة واحدا ويخرق^(٣) بطن أمّه بأظفاره ويخرج منه .
التعلب إذا جاع فلم يقدر على صَيْدٍ عَمَدَ إلى أرض شديدة الحرّ وإلى
موضع الطير^(٤) إذا حَمَى ، فاستلقى على ظهره ونظر إلى فوق ، ثم اختلس نفسه
وأخذ به داخلا حتى ينتفخ انتفاخا شديدا فيحسبه الطير قد مات ، فيقع عليه
ليأكل منه كما يأكل الجيفة ، فإذا اجتمع الطير انتفض سريعا وقبض على
ما وَجَدَ فأكله ، لأنه ذو خَبٍّ^(٥) ومكر ، كذلك طبيعته إن أصابه ضرر فأثر
فيه آثارا وكَلَمَ فيه كلّوما أخذ من صنع شجرة تدعى قنطوريا^(٦) فأبرأها به .

القرد أهيا الحيوان لقبول التعليم ، وهو اهووب غضوب سريع الحسّ ،
لا يكون في بلد كثير السباع ، عدوّ لجميع الحيوان ، مليح الإهاب ، نهوش
خطوف ، إلا أنه إذا شيع نام في غاره ثلاثة أيّام ، فإذا خرج صاح بصوت

(١) يفيد قوله : « وأما الأُسْد خاصة » الخ أن ها كلاهما قبل ذلك في أصناف الحيوان
الذي له قرين من جنسه ، وسقط هذا الكلام من الناسج .
(٢) يهرّ ، أى يحملها تصوت من الفرع والخوف .

(٣) « ويخرق » .

(٤) « البير » .

(٥) الحب بكسر الحاء وتشديد الباء : الخداع والمكر .

(٦) كذا في الأصل . والذي في ابن البيطار : قنطوريون ؛ وهو صنفان : كبير وصغير ،
فالكبير له ورق شبيه بورق الجور أخضر مثل ورق الكرب ؛ وله ساق شبيهة بساق الحمّاض
طولها ذراعان أو ثلاث . وله شعب كثيرة من أصل واحد ، عليها رءوس شبيهة بالحشخاش الخ
وهذا هو المراد هنا .

عالٍ تخرج منه رائحة طيبة ، فيجتمع إليه الحيوان لحسن صوته .

ومن أراد خنثه^(١) فليتمسح بشحم الضبع ويدخل عليه في غارِهِ ، فإنه لا يمتنع ؛
خفيفُ الجرم ، حديدُ الشدِّ^(٢) يَقْظَانُ .

دابة يقال لها بالفارسية (درباست) إذا طلبه القانص^(٣) أستلقى لظهره
وأراه أنه لا خُصْيةَ له ، كأنه قد علم ما يُطلب منه .

خُلِقَ الجبانُ من الحيوان الخائفِ سريعَ الحُضُرِ سريعَ الحركة ، وجُعِلَ
الصَّنْفُ الجريءُ العادي بطيء الحُضُرِ^(٤) مبلداً .

الضبع مخالفة^(٥) لجميع أجناس الحيوان ، وذلك أنها تصير مرّة ضبعاً ذكراً
ومرّة أنثى ، تُلقح أحياناً كالذكر ، وتقبل اللقاح أحياناً كالأنثى .

وطبيعتها أنها إذا رأت الكلب في ليلة مقمرة مشت على الآثار ووطئت
ظله^(٦) فوقع .

« ومن قتل ضبعاً وأخذ لسانها ومرّ بين الكلاب لم تكلِّب^(٧) عليه ، ولم
تعرِّض له .

ومن مرّ بمكان كثير الضباع فأخذ بيده أصلاً من حنظل ، أسكتها عنه
وهربت منه » .

(١) « قتله » .

(٢) « السر » .

(٣) « القانص » .

(٤) « الحدر » .

(٥) مخالف .

(٦) عبارة حياة الحيوان : الضبع إذا وطئت ظل الكلب في القمر وهو على سطح وقع
الكلب فأكلته

(٧) يلاحظ أنه قد سبق ما يفيد معنى هذا الكلام الذي بين هاتين العلامتين في ص

التنفذ عدو الحيات ، إذا قبض على حية تركها تضطرب على شوكه حتى تموت ، فإذا ماتت قطعها قطعاً .

الدب يقتل^(١) الثور ، والغالب عليه الانبحار في مغارته^(٢) .

الفيل ليس له شهوة السَّعاد^(٣) ، فإذا أراد الولد أنى رياضاً وحناناً^(٤) فيها اللقاح^(٥) هو وإنائه فهيج له اللقاح برأحمته وقوة حرارته شهوته قفسافت ، فإذا ولدت ولدت قائمة ، لأن أوصالها ليست مواتية كأوصال التي تلد باركة وراضة غير أنها تلد في الماء حذراً على دغلها أن يموت إذا وقع على الأرض ، فلذلك تدخل ساحل البحر حتى يبلغ الماء بطنها فتضع ولدها على الماء كالفراش الوثير والدَّكر في ذلك يحرسها وولدها من الحية .

ما أشدَّ عداوة الفيل للحية ؛ حيثما أصاب الفيل الحية وطنها وقتلها .

وإن هو سقط على جنبه لم يستطع القيام ، إنما نومه إذا أتكا على شجرة . ومن هناك — أمّا عرف أهل تلك البلاد^(٦) كيف نومه — يأتون الشجرة فينشرونها بالمدشار ، فإذا أتاها الفيل واتكا عليها وقعا على الأرض معا ، وحينئذ يشتد صياحه بصوت رفيع ، ويجمع إليه لذلك فيلة كثيرة تحاول معاونته على النهوض والأنبعاث . فلا تقدر على ذلك ، فتصيح جماعتها بصوت واحد جزعاً من ضعف حيلتها وعجزها حتى يأتي الفيل الذي هو في الجسم أصغر ، وفي

(١) في الأصل : « يصل » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقضيه ما يأتي في س ١٨٥ سطر ١٢ و ١٣ .

(٢) « معاديه » .

(٣) « الفساد » .

(٤) « وحصاناً » .

(٥) « اللقاح » بالاقاف .

(٦) تلك البلاد ، أى التي تكون فيها الفيلة .

الحيلة أكبر منها ، فيُدخل مشفره^(١) تحت الفيل الساقط ، وتفعل كفعله جميعا في إدخال مشافيرها^(٢) تحته حتى تدّعه فينبعث ، وإنما كُوت رأس الفيل في عنق قصير ، وكُوت له بدل العنق الطويل المشفر الطويل ليكتفى به من الضيق ؛ وبه يتناول طعامه وشرابه .

وخُلقت قوائمُه غير منفصلة ، لكنّها كالأساطين المصمتة والسواري الوثيقة لتحمل الكثير الثقل ؛ ورُبّط بعراقيب صغار غير منحنية ولا منثنية على الأوصال ، لكنّ عظامه مفرغة إفراغا .

تطول أعمارها إلى ثلاثمائة سنة ؛ غير أنّ الجرّذان والبق تعاق بالفيلة فتؤذيها . السّمندل^(٣) : دابة لا تخاف النار ، لأنها لا تحرقها ، وإن دخلت أخذوداً متأججاً مضطرباً بالنار لم تحفل بذلك ، وصارت النار التي تُبِيد الأجسام مبعثاً لهذه الدابة المهيمنة الحقيرة ، تستلذّ التقلب فيها أستلذاذ القلب بالهواء البسيط وهبوب أرواحه^(٤) الطيبة ؛ ونضارة جلدها وتنقيته بالنار ، فيزداد بالنار حسن لون .

الأرنب من طباعها الجبن والخوف ، وهي كثيرة الولادة .

الكلب ذو فخص وأفتفاء للأثر ، وبشمّه يسترشد^(٥) ويهتدى ويستدل إذا شمّ العوّل عرفه إن كان له أو لغيره .
ومن طباعه الترضى والبصصة والحشاشة^(٦) لمن عرفه .

(١) « منقره » .

(٢) « مشافيرها » .

(٣) السمندل : دابة دون الثعلب خلعجية اللون ، حمراء العين ، ذات ذنب طويل .

وقيل : طائر .

(٤) « وأرواح هبوبة » .

(٥) « يسترشد » .

(٦) « والحشاشة » .

ليس في الحيوان أشدّ حبا لصاحبه منه ، فإن أشار له ^(١) على صيد وثب ناصبا رأسه رافعا ذنبه مستعدّا كالفرس البطل والشجاع النجد ، مع نشاطه في الطلب وهو يعلم أن الصيد ليس بمحاضر ، لكنّ ذلك منه حسن طاعة .
فأما حب بعض جراء الكلاب لبعض إذا كان أخاه لأُمّ ولأب فما قد عهد وشوهد ، وذلك أنه حيث كان يُطرح لها الطعام في الوسط ، فلا يخطف واحد منها ذلك ، لكنها تتعاطاه بينها بسكون وتمكين بعضها لبعض ، غير مستأثرة به ولا محاربة عليه .

الفرس من طباعه الزهو والحرارة وشهوة الإناث للسفاد . وإن وطئ^{*} الفرس أثرَ وطء الذئب ارتعد وخرج الدخان من جسده كله .
الذئب إذا رأى الإنسان مبطلًا خطوه وهو ساكنٌ سكّت عنه ، فإن رآه خاف وجبنُ أجترأ^(٢) وحمل عليه وكبسه .

وليس كلُّ ذئب يعدو ، ولكن هو الذي يكون ضاريا ؛ وفيه خلّتان : أحدهما أن يكون منفرداً يمشى وحده ، والأخرى حدةُ سمّيه ، إن خفى عليه مكانُ الغنم أتى مكانا وعوى صوتين ^(٣) أو ثلاثة ، ثم سكّت منصتا لأصوات الكلاب التي مع الغنم ونباحها حين سمعت عواءه ^(٤) ، فإذا سمع نباح الكلاب شدّ ^(٥) مسرعا نحوها ، قاصدا إليها ؛ فإذا قرب من الغنم مالَ إلى ناحية أخرى خالية من محرّس ^(٦) الكلاب فاخطف ما أمكنه خطفه من الغنم .

(١) عبارة الأصل ؛ « وضع أشلاءه » والكلمة الأولى زيادة من الناسخ ، وفي الثانية تحريف .

(٢) « واجترأ » .

(٣) « قوتين » .

(٤) « عداه » .

(٥) « مدّ » .

(٦) « محرّمن » .

حمار الوحش إذا ولدت الأنثى الأولاد الذكور جاء الفحل فانتزع خصى تلك الذكور وقطعها بأسنانه لكيلا^(١) تُصَادَ أو تُشَارِكه في طَرُوقَةٍ^(٢) ، إِلَّا أَنَّ الْأُنْثَى رَبَّمَا وَضَعَتْ وَلدها في مكان غامض حتى يشتد جسمه وتصاب حوافره ، وَيَقْوَى بالشَّد على التَّجَاة من الفحل ، ولهذا السبب يَقِلُّ منها الفحول .
الحَرِيش^(٣) دابة صغيرة في جرم الجدى ساكنة جدا ، غير أن لها من قوَّة الجسم وسرعة الحُضْر ما يُعْجِزُ الْقَنَاصَ^(٤) عنها ، ثم لها في وسط رأسها قرن واحد منتصب مستقيم ، به تُنَاطِح جميع الحيوان فلا يغفلها شيء .
اِحْتَلَّ لاصيدها بأن تعرِّض لها فتاة عذراء وضيفة ، فإذا رأتها وثبت إلى حِجْرها كأنها تريد الرضاع ، وهذه محبة طبيعية ثابتة ، فإذا هي صارت في حِجْر الفتاة أرضعتها من ثديها على غير حصور اللبن فيها حتى تصبح كاللشوان من الخمر والوسنان من النوم ، فيأتيها القَنَاص^(٥) على تلك الحال فيشد من وثاقها على سكون منها بهذه الحيلة .

الايِّلُ عدو الحيات إن قربت منه حية فأنجحرت في صدع صفا ملاً الايِّلُ فاه من الغدير أو من حيث وجد فدفعه في ذلك الصدع ، ثم أجتذب الحية إليه بالقوَّة حتى يقتلها ، وإن كانت فوق أنزلها ، وكذلك إن كانت أسفل ، فإن كان جائعا أكل ما أصاب منها ، وإن لم يكن به جوع قتلها وتركها فصارت الحيات ذوات السم الزعاف المُمِيت لكل من أصابه أو خالط بدنه

(١) يريد بقوله « لكيلا تصاد » أنها إذا خصيت قويت على الجري فلا يقوى الصيادون على اصطيادها .

(٢) يريد بالطروقة : الأتان التي يطرقها الفحل .

(٣) « الحرس » .

(٤) « القياس » .

(٥) « الناس » .

غذاء هذه الأيائل ، ويكون ملائماً لها لذيذا عندها .

وإن دخّن البيت الذي فيه الحيات بدخان حريق قرن الأيائل فرّت منه كلّها خوفاً .

على أن الأيائل نفسه جبانٌ شديد الرعب ، إذا أكل الحية بدأ بذنّها حتى ينتهي إلى رأسها ، ثم يقطعه بأسنانه ، وأكبر^(١) من ذلك [أنه] يتعلق برءوسها وتبقى في الهواء . وتكثر فيه المرأة^(٢) ويعطش عطشا شديدا فيعوج إلى غدير الماء .

الغزال ، يقال : ليس في الحيوان أبصر من الظباء ؛ ويقال لها باليو نانية النظارة والمُبصرة .

الثور دابة عمولٌ كدودٌ مقدّرٌ جسمه بقدر قوّته . من طبيعته كثرة النّوى وتوقّد شهوة السّفاد ، إن لم يُخص لم يذلل للعمل ولم يسكن ولم يصحّ جسمه لأنّ الغلّة تحل^(٣) جسمه وتنحله ، والخصاء يقطع ذلك كلّهُ . وبينه وبين الدّب^(٤) عداوةٌ شديدة .

أعز^(٥) الجبل وكباشه وهي الأبرواء والتّيائل هذا جنس متمرّد في الجبال سريع الحُضر في الشواحق والتوقّل^(٦) فيها^(٧) وطبيعتها أن تلد توائم .

١ . أي وأكبر مما مرّ من دلائل حينه أنه لا يقطع رءوسها بأسنانه كما سبق ، بل يتعلق بها فلا يأكلها خوفاً ولا يلقها من فيه فتبقى رءوسها معلقة في الهواء . هذا ما يلوح لنا من معنى هذه العبارة .

(٢) المرأة : خلط من أخلاط البدن ، وهي الصفراء .

(٣) « تدخل » .

(٤) « الدّب » .

(٥) « أنجح » . ولم نحد هذا الجمع في كتب اللغة .

(٦) التوقّل : الصعود .

(٧) « في الماء » .

قد يوجد من البهائم ما لا يحمل ، فأما أنتي الخيل إذا كانت حاملا فوطئت أثر الذئب بحافرها أجهضت حملها .

الحمار في طبيعته معرفة صوت الإنسان الذي اعتاد استماعه وإيناسه ، لا يضل عن طريق سلكه مرة ولا يخطئه ، إذا ضل راكبهُ الطريق هداه وحمله على المحجة . وأما حدة السمع ، فليس في البهائم فيما يُذكر أحد سمعا منه .

اليامورة^(١) دابة وحشية نافرة ، لها قرنان طويلان ، كأنهما منشاران تنشر بهما الشجر ؛ إذا عطشت وردت الفرات وعليه غياطل^(٢) وغياض ملتفة أشجارها تفرعت من أغصانها غصون طوال دقاق مشبكة ، فإذا شربت ريها وأرادت الصدر أشتت الاستتار^(٣) والعدو بين تلك الأشجار « ولجت^(٤) هناك » فعلق قرناتها بتلك الغصون اللدنة المتينة ، وكلما عاجلتها لتفلى أزدادت ارتباطا فإذا ضجرت مما وقعت فيه عجت جزعا ، وسمع القناص صوتها فأنوها فقتلوها . الجمل : حقود ، يرتصد من ضاربه الفرصة والخولة لينتقم منه ؛ فإذا أصاب ذلك لم يستبق صاحبه ، فأما ظهره فذو سنام مقبب يكون لكثرة الحمل واحتمال الثقل ، وأوصال ركبته وعراقيبه كبار صلاب ، وأوتارها وعروقها متينة شديدة ، وعصبه وثيق لم يشتد^(٥) بضغط التحام مفاصله واتصالها ولم يسترخ مطويا^(٦) ، لكنها هيئت على الاعتدال^(٧) ليهون عليه بذلك البروك .

(١) « التامورة » .

(٢) الغياطل : الكثير المنلف من الشجر والنبات .

(٣) « الانتار » .

(٤) وردت هذه العبارة في الأصل مؤخرة عن هذا الموضع ؛ والسياق يقتضى وضعها هنا .

(٥) « لم يشتد » .

(٦) « مطريا » .

(٧) في الأصل « الاعتدار » ؛ وهو تحريف ؛ والمراد بالاعتدال هنا أن أعصابه ليست

شديدة ولا مسترخية ، بل هي بين ذلك .

والنهوضُ بِجمله ، مع تسهيل الارتقاء عليه في ذلك .
البغال : نوعٌ هَجِينٌ قد أُنبِثْنَا أنه لا يَلِدُ ، إِلَّا أَنَّهُ أَهْدَى للطريق ^(١) للناس
وأثبت حفظا .

الثيران وكلُّ ذى قرن لا يأخذهُ الفُواق .
وأما سباع الطير وآكلات اللحم منها فِصْلَاب الأظفار ، حُجْنٌ ^(٢) المناقير
ذات حدة وقوة ، قوّة الأجنحة .
والنواهض ^(٣) التى فيها القوادم أكثر طيرا .

الديكُ صَلِفٌ فى طبيعته ، غير أن له مع ذلك إيقاظا للنائم بصياحه فى آناء
الليل ، والتبشيرُ بإقبال الصبح وطلوعِ الشمس ، يؤنس السيارات فى السَّفَر ^(٤)
بصياحه فى اللَّيل ، ويحرضهم على السير ، مع إيقاظه الفلاحين أعمالهم ، والصَّنَاعَ
اصناعتهم . وإذا سمع المرضى صوته داخلهم من ^(٥) ذلك رَوْحٌ وخَفّةٌ من مرضهم .
الطاوس بحبِّ الزينة ، غيرُ غفيف الطبيعة ، يدعوه زهوه وحرصه على
التزيّن إلى نشر ذنبه وعَقْدِهِ كالطاق لتراه الأُنثى بحسن زينته .

الكراكى تتحارس ^(٦) بالليل ؛ ويجعل الحارس منها يتردد فى الحلة
ويهتف بصوت يسمع محذرا ^(٧) ، فإذا قضى نوبته أستراح وأعقبه الذى كان
مستريحا نائبا عنه حتى تقضى كلُّها ما يلزمها من الحراسة ، فإذا طارت لم تَطَر

(١) أهدى للطريق للناس ، أى أكثر هداية — لراكبه من الناس — إلى طريقه .
(٢) حجن المناقير ، أى معوجتها ، الواحد أحجن ، والأُنثى حجناء .
(٣) النواهض : فراخ العقاب التى وفرت أجنحتها وقويت على الطيران ، الواحد ناهض .
وفى الأصل : « والنواهض » ولم نخذه فيما راجعناه من كتب اللغة .
(٤) « يؤنس فى السفر وانسيارات لصياحه » .

(٥) « مع » .

(٦) « تتحارن » .

(٧) « محذرا » .

متقطعةً ، لكنها تطير نَسَقًا غير مستتة ، يقدّمها واحد منها كالرأس والهادى لها حتى تتلوه كلها لازمةً صفها ، ثم يعقبه بعده آخر متقدّم حتى يصير المتقدم الأول متأخرا في آخرها ، وتقتسم كرامة المتقدم كلها بالسوية ؛ وفيها ما يبعد سفره وينتقل عن مصيفه إذا هجم الشتاء .

البط له يقظة حارسة تدل على حدة حسّه .

الجراد معروف الحال .

العقاب تطلب عين^(١) الماء ، فإذا أصابتها تحلق طائرةً إلى حر الشمس وهو موضع دوراسها فيحترق ريشها وما كان من جناح ، ثم تقوص في تلك العين فإذا هي قد عادت شابّة^(٢) « وتذهب ظلمة عينها »^(٣) .

وأما الطريق^(٤) فيقيّض الله له طائرا يقال له : قاس^(٥) فيضّمه إليه ولا يدعه يهلك ، واسكنه يقويا ويرثيه مع أفراده .

وأجنحة العقبان مفصّلة شبه ريشها .

و بصرها قوى بعيد تحت الشعاع المستنير .

ويقال : إنها أبصر الطير .

الحجّال يأتي أعشاش نظرائه فيسرق بيضها ثم يحضّها ، فإذا تحرّكت الفراخ وطارت لحقت بأمهاتها .

البوم مأواه ومحلّه الخراب ، يوافقه الليل ، لأنّه بالليل بصير وبالنهار كليل ، مع حبّه التوحّد والخلوة بنفسه ، وبينه وبين الغربان عداوة ما تنقضى .

(١) « من » .

(٢) « مثابة » .

(٣) وردت هذه العبارة في الأصل قبل هذا الموضع .

(٤) يريد بالطريح : الملقى الذي لا يقدر على الطيران اضمه من المرض ونحوه .

(٥) لم نجد اسم هذا الطائر فيما راجعناه من الكتب .

النَّسْرُ يَتَّخِذُ وَكْرَهُ فِي الْمَكَاتِ الْعَالِيِ الْمُرْتَفِعِ ، وَعَلَيْهِ يَقَعُ فِيهِ يَنَامُ كَالرَّاصِدِ ، إِمَّا فِي ذِرْوَةِ الْجَبَلِ أَوْ فِي وَسْطِهِ مِنْ شَطَائِيهِ^(١) وَثَنَائِيهِ وَمَوْضِعِ الْمَنَعَةِ . وَإِذَا حَمَلَتْ زَوْجَتُهُ مَضَى إِلَى الْهِنْدِ فَأَخَذَ مِنْ هُنَاكَ حَجْرًا كَهَيْئَةِ الْجَوْزَةِ إِذَا حُرِّكَ سُمِعَ بِهِ صَوْتُ حَجَرٍ آخَرَ — يَقْتَحِرُكَ فِي وَسْطِهِ^(٢) — كَصَوْتِ الْجَرَسِ ، فَإِنْ عَسِرَتْ عَلَى زَوْجَتِهِ الْوِلَادَةُ جَعَلَتْ ذَلِكَ الْحَجَرَ تَحْتَهَا وَعَلَتْ عَلَيْهِ فَيَذْهَبُ عَنْهَا الْعُسْرُ .

قَالَ : وَرَأَيْتُ مَرَّةً أُنْثَى مِنْ جِنْسِ الطَّيْرِ مَاتَ زَوْجُهَا فَامْتَنَعَتْ مِنَ الطَّعَامِ وَالنَّوْمِ إِيلَى^(٣) كَثِيرَةٍ صَارَتْ فِيهَا كَالنَّائِجَةِ الْبَاكِیَةِ عَلَى زَوْجِهَا تَنْفُسُ الصَّعْدَاءِ وَزَفَرَاتِ الْحُزَنِ لَا تَلْقُطُ أَيَّامًا مُتَتَابِعَةً شَيْئًا .

الْبُرْزَاةُ مِنْ طَبِيعَتِهَا أَنْ تَدَاوِيَ أَنْفُسَهَا وَفِرَاحَهَا فَلَا تَمُوتُ ، لِأَنَّهَا تَسْتَعْمَلُ فِي بَعْضِ الْمَرَضِ وَالْدَاءِ^(٤) نَبْتَةً تَعْرِفُهَا وَتَعْرِفُ طَبْعَهَا ... « وَمِنْهُ مَا يَنْقُصُ وَيَزِيدُ^(٥) » . النَّعَامُ : لَا يَعْوَلُ أَفْرَاحَهُ إِلَّا أَيَّامًا يَسِيرَةً ، ثُمَّ يُدْحِضُهَا^(٦) وَيَطْرُدُهَا مِنْ عِنْدِهِ إِنْكَارًا لَهَا .

الْعُدَافُ لَا يَبْيِضُ وَلَا يُفْرِخُ مِنْ سَفَادٍ ، فَإِذَا أَفْرَخَتْ أَثْنَاهُ فِرَاحًا لَمْ يَزُقْهَا^(٧) وَلَمْ يُطْعَمْهَا ، إِلَّا [أَنْ^(٨)] الْبَقَّ وَالْبَعُوضَ يَقَعُ عَلَيْهَا لَزْهَوِهَا وَتَنَنَ لَحْمِهَا ، فَتَفْتَحُ

(١) شَطَائِي الْجَبَلِ : قِطْعُ ضَخَامٍ تَنْقَلَعُ مِنْ عَرْضِهِ وَلَمْ تَنْفَصِلْ إِفْصَالًا تَامًا ، تَشْبِيْهَا لَهَا بِالشَّطَائِي الْمَعْرُوفَةِ . وَثَنَائِيهِ : الْعُقَبَاتُ فِيهِ .

(٢) « صَوْنُهُ » .

(٣) « لِيَالٍ » .

(٤) « وَالدَّائِنَةُ » .

(٥) لَمْ يَتَضَحَّ لَهَا وَجْهُ الْإِتِّصَالِ بَيْنَ هَذِهِ الْعِبَارَةِ وَمَا قَبْلُهَا ؛ فَلَعَلَّ هُنَا كَلَامًا سَقَطَ مِنَ النَّاسِحِ .

(٦) يَدْحِضُهَا : يَدْفَعُهَا .

(٧) « يَدْقُهَا » .

(٨) هَذِهِ السَّكَمَةُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ ؛ وَالسِّيَاقُ يَقْتَضِي إِثْبَاتَهَا .

أفواهما وتبَلَع ما دخل فيها من ذلك البَقّ ، فهو يمسكها ويقوّيها .
أنحاء طَيْرَان الطير مختلفةٌ كاختلاف الطير ، بعضها يطير قريبا من الأرض
كالبط وما أشبهه ، وبعضها يرتفع ، غير أنه لا يُبعد ، كالحمام والغِرْبَان ، وبعضها
يحلقّ تحليقا ، كالعُقاب والصُّقُور^(١) والأجَادِل والبَزَاة .

وما كان من الطير بدنه أعظم من جناحه فهو قريب الطيران من الأرض ،
لسرعة إحناء أجنحته واضطراره إلى الوقوع على الأرض .

البيضاني^(٢) والأبث^(٣) : هذا طائر يحبُّ ولده ، فإذا تحرّكت فراخه
ودرّجتْ ضربتْ وجهه بأجنحتها فيدعوه المَحْكُ والغضب المطبوعان فيه إلى
قتلها ، فإذا ماتت اكتأب عليها الأبوان وأقاما عليها شِبَهَ المَاتِمِ ثلاثة أَيّام ، ثم
إن الأُمّ في اليوم الثالث تشقّ جنبها حتى يَقْطُر دُمها على تلك الفراخ ، فيصير
ذلك نشورا لها بعد موتها .

مالك الحزين^(٤) يَنْشُل الحيتانَ من الماء فيأكلها وهي طعامه ؛ لا يُحْسِن
السباحة ، فإن أخطأه أَنتَشَلُ فجاء طرَحَ نفسه على شاطئِ النهر في بعض
ضخضاه ، فإذا اجتمعت إليه السمك الصغار لتأكله أسرع [الأكل^(٥)]
ما يؤكل منه .

من الطير ما يَلْقَح من هبوب الريح ، لا يحتاج إلى تزأج ولا إلى سِفاد .

(١) « والنور » .

(٢) كذا ورد هذا اللفظ في الأصل ؛ ولم نَحْده وما راحمه من كتب اللغة والكتب
المؤلفة في الحيوان .

(٣) وردت هذه الكلمة في الأصل مهمة الحروف من النقط ؛ والصواب إثباتها على هذا
الوجه . والأبث : طائر من طير الماء كلور الرماد ، طويل العنق ؛ وسمى أبث لبعثته ،
وهي بياض إلى الخضرة ، وهو من شرار الطير .

(٤) مالك الحزين : من طير الماء ، وهو البلشون ، طويل العنق والرجلين .

(٥) هذه الكلمة أو ما يفيد معناها لم ترد في الأصل .

والخفاش له خصيتان كَخُصَى الحيوان ، وله أربع قوائم وأسنان حداد
 كأَسنان ذوات الأربع ، يُرَضِع ولده من اللبن إرضاعا ، وجلده أملس .
 العَفَقَق لا يأوى تحت سقف ولا يستظل به ، ولكنه يهتئ وكره في المواضع
 المشرفة العالية والعراء الكاشف وجهه الهواء الفسيح ؛ وطبيعته الزنا وخيانة
 الزوج ، فإذا باضت الأنثى بيضها حصنته بورق الدُّلَب وغطته كيلا يقرب به
 الخفاش ، فإن مسه مَرِق^(١) البيض من ساعته وفسد .
 النحل يلد من غير لقاح الذكور .

الحية إذا هَرِمَتْ وكلَّ بصرها واسترخى جلدُها دخلت في صدع صماعة
 ضيق أو جُحْر ضاغط يعسر عليها النفوذ فيه حتى ينسلخ عنها جلدُها فتأتى
 عين الماء فتغمس فيها حتى يقوى لحمها وينعصب ، فإذا هى فعلت ذلك عادت
 شابة كما كانت . فإذا أرادت أن تنفئ^(٢) عنها أكلت الرازيانج الرطب
 فاشتفت عيناها واحتد بصرها ، وإن ضُرِبَتْ ضربة بقصبة استرخت فلم تستطع
 الفرار ، فإن ثنيتها وثبت وسعت هاربة .
 إن أنقِعَ الحَسَكُ^(٣) في الماء ثم نضح ذلك الماء بين يدي جُحْر الحية فرت
 من هناك .

وإن وُضِعَ في جُحْرها أصل حَمَصٍ رَطْبٍ فَرَّت أيضا .
 .. وإن رأت الحية إنسانا غريانا استحييت منه ولم تقربه .
 وإن رآته كاسيا^(٤) حملت عليه بجراة شديدة ؛ وما أشدَّ طأطاها ثأرها ؛
 وإن شُدخ رأسُها ماتت من ساعتها .

(١) مرق البيض : صار ماء وفسد . وفي الأصل : مرت .

(٢) « نفى » .

(٣) الحسك محركا : نوات له ثمرة شائكة مدحرجة تعاق بأصواف الغنم .

(٤) « كاسيا » .

السَّمْسِمَة ، وهى حَيَّةٌ حمراءُ بَرَّاقَةٌ ، إذا كَبُرَتْ وأصابها وَجَعُ العَيْنِ وَكَبِدَتْ^(١) التَّمْسَتْ حائِطًا مُقَابِلَ المَشْرِقِ ، فإذا تَبَدَّتِ الشَّمْسُ أَحَدَتْ إليها بَصَرَهَا قَدَرُ سَاعَةٍ فإذا دَخَلَ شُعَاعُ الشَّمْسِ عَيْنَهَا كَشَطَ عنها العَمَى والإِظْلَامَ ، ولا تَزَالُ تَفْعَلُ ذَلِكَ سَبْعَةَ أَيَّامٍ حَتَّى يَتَجَدَّدَ بَصَرُهَا تَامًا .

الأَفْعَى تُزَاجُ دَابَّةً بَحْرِيَّةً ، تَأْتِي الأَفْعَى شَفِيرَ البَحْرِ فَتَصَوِّتُ ، وَصَوْتُهَا مُهَيِّجٌ لِتِلْكَ الدَّابَّةِ البَحْرِيَّةِ .

مَنْ أَحْرَقَ عَقْرَبًا طَرَدَ بَرَانِحَةً حَرِيقَهَا عَقَارَبَ ذَلِكَ الْبَيْتِ .

فَأَمَّا مُحَمَّةُ الْعَقْرَبِ فَهِيَ جَوْفَاءُ كَهَيْئَةِ الْمِزْمَارِ مَعْقِفَةُ الرَّأْسِ مَكُونَةٌ لِلدَّغِ ، فإذا ضَرَبَتْ شَيْئًا تَحَرَّكَتْ نَخْرَجَ سَمُّهَا وَجَرَى فِي مُحْمَتِهَا وَسَرَى فِي الْعَلْدُوغِ .

الْإِنَاثُ مِنْ بَنَاتِ عَرَسٍ إِنَّمَا تَلْقَحُ مِنْ أَفْوَاهِهَا وَتَلِدُ مِنْ آذَانِهَا .

مِنْ عَادَةِ هَذَا الْجَنْسِ أَنْ يَسْرِقَ مَا وَجَدَ مِنْ حِلْيِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَيَحْبِئُوهُ فِي جِجَرَتِهِ ، فَإِنْ وَجَدَ أَيْضًا فِي الْبَيْتِ حُبُوبًا^(٢) خَلَطَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ ، كَأَنَّ عَمَلَهُ عَمَلُ الطَّبَاخِينَ فِي خَلْطِ التَّوَابِلِ .

الْفَارُ الْفَارَسِيُّ أَطْيَبُ رِيحًا مِنْ كُلِّ طَيْبٍ .

وإنْ أَخَذَ إِنْسَانٌ جُرْذَا فَرَبَطَهُ فِي بَيْتٍ فَرَّتْ مِنْهُ الْجُرْذَانُ كُلُّهَا .

وإنْ وُضِعَ فِي جُحْرِ الْجُرْذِ الْبَرِّ وَرَقُ الدَّفْلِيِّ^(٣) مَاتَتِ الْجُرْذَانُ .

(١) كَبِدَتْ عَيْنَهَا ، أَيْ ذَهَبَ صَفَاؤُهَا ، مِنْ الْكُمَةِ ، وَهِيَ تَغْيِيرُ اللَّوْنِ وَذَهَابُ صِفَاتِهِ .

(٢) « جَنْبُوبَا » .

(٣) الدَّفْلِيُّ ، نَبْتُ صِرَ الطَّمِ جَدَا ، وَهُوَ بَرِّي وَنَهْرِي ، فَوْقَ الْبَرِّ كَوَرَقِ الْحَقَاءِ بَلْ أَرْقَ ، وَقَضْبَانُهُ طَوَالُ مَنْبَسَطَةٍ عَلَى الْأَرْضِ ، وَعِنْدَ الْوَرَقِ شَوْكٌ ، وَالنَّهْرِيُّ يَنْبِتُ فِي شَطُوطِ الْأَنْهَارِ ، وَشَوْكُهُ خَفِيٌّ ، وَوَرَقُهُ كَوَرَقِ الْخَلَّافِ وَوَرَقُ الْلُوزِ ، عَرِيضٌ ، وَزَهْرُهُ كَلَّةُ كَالْوَرْدِ الْأَحْمَرِ ، وَحَمَلُهُ يَشْبَهُ الْخَرْنُوبِ .

الدودة الهندية هي دودة القز ، لها في رأسها قرنان ، ثم تتحول بيضة
ثم تتصور في هيئة أخرى ، ذات جناحين عريضين منتصبين ، وصناعتها
دَمَقْس الحرير .

النمل عمول مواظب ، فإذا جمع الحب قطعته كيلا ينبت إذا أصابه الندى
والبلية ، ويخرج منه ويبسطه عند فم الجحر ، فإذا يبس أدخله .
ومن جرب طبائع النمل أدرك علم أزمان المطر والصحو .
ومن أراد أن يقتل النمل فليدق الكبريت والحبق^(١) ويذرهما في جحرته
ولا يولد من تزأوج^(٢) ، ولكنه يخرج منه شيء قليل صغير فيقع في الأرض
فيصير بيضا ، ثم يتصور من البيض بالهيئة التي ترى ، وإذا شمت الورد مؤت
وأجنحتها مدحجة لاصقة بها .

البق والبعوض لا نتاج لهما ، وإنما تنجل^(٣) من غفن الماء ووسخه وتننه .
ومن وضع غصن العنب في موضع تحت سريره لم يقربه بق ولا بعوض .
ومن أراد ألا يتأذى بالبراغيث فليحفر في وسط البيت حفرة ويملاها
دم تيس فإن البراغيث تجتمع هناك .

وإن وضع في الحفرة ورق دفل مانت البراغيث .
الخلد غير ذي عينين ، دائم الحفر في غير نفع ؛ وطعامه من أصول النبات
وعروقها الذاهبة في الأرض ، فهو يصيب ذلك في خلال حفره .

يقال : إن في بلد كذا نهرا ماؤه في البحر منحذرا إليه على حال طبيعته

(١) الحبق محركة : نبات طيب الرائحة ، حديد الطعم ، ورقه كورق الخلاف ، منه سهلى
ومنه جبلى ، وهو الذى يقال له : الفوتنج . وقال أبو حنيفة : إنه يشبه الريحانة التى تسمى
النمّام ، ويكثر نباته على الماء ، وهو أنواع كثيرة .

(٢) « يراوح » .

(٣) تنجل ، أى تولد .

ستّ ساعات ، وفي الستّ الثانية يَحْتَبِسُ ماؤه في يَنْبوعه ويُرْمَى جوفُهُ ناصباً^(١) قد يَبْس .

ونهرها آخَرَ يَجْرِي في كُلِّ سَبْعِ سنين نهر كبريت ، ولا يكون فيه سمك ، لأنّ ماءه يَتَغَيَّرُ في كُلِّ يوم ثلاثَ مرّات ، وَيَنْبَعثُ^(٢) منه شِبْهُ نور ليس له رأس . وأهل الشّام إذا أرادوا أَخْذَهُ الْقَوَه في سفينة ، ولا يستطيعون قطعَه بفأس ولا كسرَه بحجر ، إنّما يُؤْتَى بالماء المُنْتِن ودم الحَيْض فيُخْلَطَان جميعاً ثم يُفَضَّحَان عليه ، فإذا وقعا عليه تحلّل وتكثّل كُتلاً^(٣) صِغاراً ، وتُسْتَعْمَلُ في أشياء يُنْتَفَعُ بها .

عين النار تنبع منها نارٌ تضيء بالليل للسيّارات فلا تطفأ^(٤) ولا تحتاج إلى شيء يمسكها ، لكنّها محفوظة بالحجارة ؛ إن حَمَلَ إنسانٌ منها شُعْلَةً قَبَسَ إلى موضع لم تُوقَد .

البحر الميّت يقال له ذلك لأنه يموت فيه كلٌّ حيّ .

السّرطان ينسلخ جلده في السنة سبعَ مرّات ، ويتّخذ بجُحره بايين : أحدهما شارعٌ إلى الماء ، والآخَرُ إلى اليُبْس ؛ وإذا سلخ جلده سدّ عليه الشّارع إلى الماء لكيلا يدخل السمكُ فيأكله ؛ إلا أنّه يدع الذّي إلى اليبس مفتوح فتصيبه الريح وما يُنْفَعُ لَحْمُهُ وَيَعَصِمُهُ ، فإذا اشتدّ لحه وعاد إلى حاله فتتّ ذلك المسدود وسلك في الماء وطلب طعمه وما يقيم حياته .

• الزامور حوت صغير الجسم ألفٌ لأصوات الناس ، مستأنسٌ بأستماء

(١) « ناصباً » .

(٢) « ينبعث » .

(٣) « وتكثّل كيلاً » .

(٤) « يطفئها » .

ولذلك يصحب السفن متلذذا بأصوات الناس ، فإذا رأى الحوت الأعظم يريد الاحتكاك بها وكسرها ، وثب الزامور ودخل أذنه ، فلا يزال زامرا فيها حتى يفرّ الحوت إلى الساحل يطلب خزفاً أو صخرة ، فإذا أصاب ذلك لا يزال يضرب به رأسه حتى يموت .

وركّاب السفينة يحبّونه ويُطعمونه ويتفقّدونه ، ليدوم إلفه لهم وصحبته لسفينتهم ، ويسلموا به من ضرر السمك العادى .
وإذا ألقوا شبكةً يصطادوا السمك فوقع فيها الزامور خلوه حياً وأخذوه^(١) وأعتقوا لكرامته أصناف السمك الواقع فى الشبكة أحياء .

وإني [قرأت^(٢)] هذا الفصل على الوزير — كبت الله كلَّ شأنيء له — فى ليلتين ، فتمعّج وقال : ما أوسع رحمة الله ؛ وما أكثر جُند الله ؛ وما أغرب صنع الله . قلتُ : نعم ؛ وما أغفل الإنسان عن حقِّ الله الذى له هذا المُلْك المبسوط^(٣) ، وهذا الفلّك المربوط ؛ وهذه العجائب التى تصعد^(٤) فوق العقول التامة بالاعتبار والأختبار بعد الأختبار ؛ وإنما بثَّ الله تعالى هذا الخلق فى عالمه على هذه الأخلاق المختلفة والخلق المتباينة ، ليكون للإنسان المشرف^(٥) بالعقل طريقٌ إلى تعرّف خالقها ، وبيانٌ لصحّة توحيدِهِ بما يشهد من أعاجيبها ،

(١) عبارة الأصل « وأخذوا أصناف السمك » ، وقوله : « وأخذوا » واقعة فى غير موقعها ، وقد أثبتناها فى الموضع اللائق بها لاستقامة الكلام بذلك .

(٢) عبارة الأصل « وأن هذا الفصل على الوزير كتب الله » ، وفيها نقص وتحريف كما

هو ظاهر .

(٣) المبسوط .

(٤) « تصد » .

(٥) للشرف .

ونَيْلَ لِرِضوانه بما يتزوّد من عِبَره الّتى يجد فيها ، وليكون له موقظٌ منها ، وداعٍ حادٍ^(١) إلى طاعةٍ مَنْ أبدأها وأبرزها ، وخطها وأفردها .

فقال : قد كنتَ قلتَ : إنّه يجرى كلامٌ فى النَّفس منذ ليالٍ ، فهل لك فى ذلك ؟ .

قلتُ : أشدّ الميل^(٢) وأوحاه ، لكن بشرط أن أحكى ما عندى ، وأروى ما حصلتُ من هذه العصابة بسماعى وسؤالى . فقال : نستأنف^(٣) الخوض فى ذلك — إن شاء الله — فإنَّ النَّعْسة^(٤) قد حدّثت، المين ، فأنا كما قال :

قد جعل النَّعاسُ يَغْرِنْدِينِي^(٥) أَدْفَعُهُ عَنِّي وَيَسْرِنْدِينِي

أنشدنى أبياتا ودّعنى بها ، ولتمكن من سرّاة^(٦) نجد ، لئشتم منها ريحُ الشَّيْحِ وَالْقَيْصُومِ .

فأنشدته لأعرابى قديم :

مُطِرْنَا فلما أن رَوِينا تهادرت شَقاشِقُ منها رائبٌ وحليبٌ^(٧)
ورامت^(٨) رجالٌ من رجالِ ظُلامةٍ وعادت ذُحولٌ بيننا وذُنُوبٌ^(٩)

(١) « صام » .

(٢) « المثل » .

(٣) « نستأنذ » .

(٤) « القس » .

(٥) يغرندينى ويسرندينى ، يريد أن النَّعاس يغلبه ويعلوه . وفى الأصل : « يغرندينى » بالعين المهملة . ولم يرد فى اللسان قائل هذا الشعر .

(٦) « سرارة » .

(٧) تهادرت ، أى تساقطت . والشقاشق : جمع شقشقة ، وهى جرة البعير معروفة ، وكفى بتهادر الشقاشق عن الخصومة بين القوم وتنمر بعضهم لبعض . يقول : لما أخصبت أرضنا تنمر بعضنا بعض وتهايا كل فريق منا لمحاربة فريق ، كما يدل على ذلك البيت الذى يليه .

(٨) « رانت » .

(٩) الذحول : جمع ذحل بفتح الدال ، وهو الثأر .

وَنَصَّتْ رِكَابٌ لِلصَّبَا فترَوَّحت
 لهنَّ بما هاج الحبيبَ حبيبٌ^(١)
 وَطِئْنَ^(٢) فِئَاءَ الْحَيِّ حَتَّى كَانَهُ
 رَجَا^(٣) مَنَهْلٍ مِنْ كَرَّهِنَ نَخِيبِ
 بَنَى عَمَّنَا لَا تَعْبَلُوا يَنْضَبُ الثَّرَى
 غَلِيلًا وَيَشْفِي الْمُسْرِفِينَ طَبِيبٌ^(٤)
 فَلَوْ قَدْ تَوَلَّى النَّبْتَ وَامْتَرَتْ الْقَرَى
 وَحُمَّتْ رِكَابُ الْحَيِّ حِينَ تَوُوبُ^(٥)
 وَصَارَ^(٦) عَيُوفَ الْخُودِ وَهِيَ كَرِيمَةٌ
 عَلَى أَهْلِهَا — ذُو جِدَّتَيْنِ قَشِيبٌ^(٧)
 وَصَارَ الَّذِي فِي أَنْفِهِ خُنْزُوانَةٌ^(٨)
 يُنَادِي إِلَى دَاعِي الرَّدَى فَيَجِيبُ
 أَوْلَاكَ أَيَّامٌ تَبَيَّنُ مَا الْفَتَى
 أْكَلِ سَكَيْتُ أُمَّ أَشَمُّ نَجِيبٌ^(٩)
 فَعَجَبَ وَقَالَ : هَذَا جَنَى غَرْسٍ قَدْ جُدَّ أَصْلُهُ ، وَنَزَجَ قَلْبِهِ قَدْ غَارَ مَدُّهُ
 وَجَزُرُهُ ، وَانصَرَفَتْ .

-
- (١) وَنَصَّتْ رِكَابٌ لِلصَّبَا ، أَى رَفَعَتْ أَعْنَاقَهَا لِرِيحِ الصَّبَا تَسْتَرْوِحُهَا . وَفِي الْأَصْلِ :
 « وَفَضَّتْ » ؛ وَهُوَ تَحْرِيفٌ .
- (٢) « وَطِئْنَ » .
- (٣) رَجَا الْبُتْرُ : نَاحِيَتُهُ . وَفِي الْأَصْلِ : « وَحَا » ، وَهُوَ تَحْرِيفٌ . وَالنَّخِيبُ :
 الْمَنْخُوبُ ، أَى الْمَنْزُوعُ الْجُوفُ . وَفِي الْأَصْلِ : « يَجِيبُ » . شَبَّهَ فَنَاءَ الْحَيِّ وَقَدْ وَطِئَتْهُ هَذِهِ
 الرِّكَائِبُ بِحَابِ مَنَهْلٍ مَنْخُوبٍ الْجُوفِ مَهْدَمٍ مِنْ كَثْرَةِ مَا تَطَوَّاهُ أَقْدَامُ الْوَرَادِ .
- (٤) نَضُوبُ الثَّرَى : كِنَايَةٌ عَنِ التَّفَاطُعِ بَيْنَ الْقَوْمِ ، قَالَ جَرِيرٌ :
 فَلَا تَوَسُّوا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ الثَّرَى فَإِنَّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مَثَرَى
- (٥) امْتَرَتْ الْقَرَى : اسْتَجَعَتْ وَطَلَبَتْ مِنْهَا الْمِيرَةَ .
- (٦) صَارَهُ يَصُورُهُ ، أَى ضَمَّهُ إِلَيْهِ وَأَمَلَهُ نَحْوَهُ . يُشِيرُ إِلَى حُلُولِ الْجَدْبِ وَإِرْخَاصِ الْفَقْرِ
 أَقْدَارَ الْعَالِيَةِ ، فَيَسْتَطِيعُ مِنْ لَهُ ثَوْبِينَ أَوْ يَضُمُّ إِلَيْهِ أَوْ كَرَّمَ الْعَقَائِلَ السَّكْرِيَّةَ عَلَى قَوْمِهَا بِمَا لَهُ
 مِنْ يَسْرِ غَنًى وَإِنْ اتَّضَعُ نَسَبُهُ .
- (٧) « مَشِيبٌ » .
- (٨) الْخُنْزَوَانَةُ : الْكَبَرُ .
- (٩) « أَاكَانَ » .
- (١٠) السَّكَيْتُ : الَّذِي يَحْمِيهِ آخِرُ خَيْلِ الْحَلْبَةِ .

الليلة الثالثة عشرة^(١)

(١)

فلما حضرت ليلةً أخرى قال : هاتِ . قلتُ : إن الكلام في النفس صعب ، والباحثون عن غيبها وشهادتها وأثرها وتأثيرها في أطراف متناوذة^(٢) وللنظر فيهم مجال ، وللوهم عليهم سلطان ، وكلُّ قد قال ما عنده بقدر قوته ولحظه ، وأنا آتٍ بما أحفظه وأرويه^(٣) ، والرأى بعد ذلك إلى العقل الناصح والبرهان الواضح .

قال بعض الفلاسفة : إذا تصفحنا أمرَ النفس لحفظناها^(٤) تفعل بذاتها من غير حاجة إلى البدن ، لأن الإنسان إذا تصوّر بالعقل شيئاً فإنه لا يتصوره بآلة كما يتصور الألوان بالعين والروائح بالأنف ، فإن الجزء الذي فيه النفس من البدن لا يسخن ولا يبرد ولا يستحيل من جهة [إلى^(٥)] أخرى عند تصوّره بالعقل ، فيظنّ الظانّ منّا أنّ النفس لا^(٦) تفعل بالبدن ، لأنّ هذه الأمور ليست بجسم ولا أعراض جسميّة .

وقد تعرف النفس أيضاً الآن من الزمان والوحدة واليقظة ، وليس لأحد أن يقول : إن النفس تعرف هذه الأشياء بحسّ من الإحساس ، ففعل النفس

(١) يلاحظ أننا ذكرنا في الليلة السابقة أنها الليلة الحادية عشرة ، والصواب أنهما ليلتان الحادية عشرة والثانية عشرة ، كما يتبين ذلك من قوله : « في ص ١٩٥ س ١٠ : « وإن قرأت هذا الفصل على الوزير كتب الله كل شأني له في ليلتين » ولهذا جعلنا هذه الليلة الثالثة عشرة .

(٢) متناوذة ، أى متقابلة .

(٣) « وأرومه » .

(٤) « لحفظناها » .

(٥) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ والسياق يقتضى إثباتها .

(٦) في الأصل : « إنما » والتعليل الآتى بعد يقتضى أداة النفي كما أثبتنا .

إذن يفارق البدن ، وتأليف البرهان أن يكون على أن يقال : للنفس أفعال تخصّها خلوّ من البدن ، مثل التصور بالعقل ، وكلّ ما له فعل يخصّه دون البدن فإنّه لا يفسد بفساد البدن عند المفارقة .

وقال أيضا : وجدنا الناس متفقين على أن النفس لا تموت ، وذلك أنّهم يتصدّقون عن موتهم ، فلولا أنّهم يتصورون أن النفس لا تموت ، ولكنّها تنتقل من حال إلى أخرى إما إلى خير وإما إلى شر ؛ ما كانوا يستغفرون لهم ، وما كانوا يتصدّقون على موتهم ويزورون قبورهم .

وقال أيضا : النفس لا تموت ، لأنها أشبه بالأمر الإلهي من البدن ، إذ كان يدبّر البدن ويرأسه .

والله جلّ وعزّ المدبّر لجميع الأشياء ، والرئيس لها . والبدن أشبه شيء بالشيء الميت من النفس إذ كان البدن إنمّا يحيا بالنفس .

وقال أيضا : النفس قابلة للأضداد ، فهي جوهر ، فالفائدة أن النفس جوهر .

وقال : النفس ليست بهيولى ، فلو كانت هيولى لكانت قابلة للعظم ، فليست النفس إذا بهيولى .

وقال : ليست النفس بجسم ، لأن النفس نافذة في جميع أجزاء الجسم الذي له نفس ، والجسم لا ينفذ في جميع أجزاء الجسم ^(١) ؛ ولا هيولى ، لأن النفس لو كانت هيولى لكانت قابلة للمقادير والعظم ^(٢) ، وفائدة هذا أن النفس جوهر على طريق الضرورة .

(١) « النفس » .

(٢) يلاحظ أن هذا الكلام مكرر مع ماسبق من قوله : النفس ليست بهولى الخ .

وقال آخر : حركةٌ كلٌّ متحركٌ تنقسم قسمين : أحدهما من داخل ، وهو قسمان : قسم كالطبيعة التي لا تسكن البتة ، كحركة النار مادامت نارا ، وقسم هو كحركة^(١) النفس تهيج أحيانا وتسكن أحيانا ، وكحركة جسد الإنسان التي تسكن إذا خرجت نفسه وصار جيفة .

والقسم الآخر من خارج ، وهو قسمان : أحدهما يدفع دفعا كما يدفع السهم ويُطلق عن القوس ، والآخر يُجرُّ جرًّا كما تُجرُّ المعجلة والجيفة .

وقال : فنقول : ليس يخفى أن جسدنا ليس مدفوعا دفعا ولا مجرورا جرًّا و [لما] ^(٢) كان كلٌّ مدفوع أو مجرور متحرك من خارج متحركًا لا محالة من داخل ، فالجسد إذن متحرك من داخل اضطرابا .

وقال : إن كان جسدنا متحركًا من داخل ، وكان كلٌّ متحرك من داخل إِمَّا متحركًا كحركة طبيعية لا تسكن ، وإِما نفسيّة تسكن .

فليس ^(٣) يخفى أن حركة جسد الإنسان ليست بدائمة لا تسكن ، بل ساكنة [لا] ^(٤) تدوم ، وكانت حركة كلٍّ ما سكنت حركته فلم تدم ليست حركة طبيعية لا تسكن ، بل نفسيّة من قبل نفسٍ متحركة وتحسّسه .

وقال : إن كانت النفس هي التي تحي الإنسان وتحركه ، وكان كلٌّ محرك يحرك غيره حيًّا قائما موجودا ، فالنفس إذا حيّة قائمة موجودة .

وقال أيضا : النفس جوهر لا عرض ، وحدّ الجوهر أنه قابل للأضداد من غير تغير ، وهذا لازم للنفس ، لأنها تقبل العلم والجهل ، والبرّ والفجور

(١) « حركة » .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل .

(٣) في الأصل : « وقال ليس » ؛ والظاهر أن قوله : « وقال » زيادة من الناسخ .

(٤) لم ترد هذه الكلمة في الأصل .

والشجاعة والجهن ، والعفة وضدّها ، وهذه أشياء أضداد ، من غير أن تتغير في ذاتها ، فإذا كانت النفس قابلةً لحدّ الجوهر ، وكان كلُّ قابلٍ لحدّ الجوهر جوهرًا فالنفس إذاً جوهر .

وقال : قد استبان أن النفس هي الحمية المحركة للجسد الذي هو الجوهر و [لما] كان كلُّ مُحيٍّ محرّكٍ للجوهر جوهرًا فالنفس إذاً جوهر .

وقال : لا سبيل أن يكون المُحيّا المحرّكُ جوهرًا ويكون المحيى المحرّكُ غيرَ جوهر ، فإذا كانت هي الحمية المحركة للجسد ، وكان لا يمكن أن يكون المحيى المحرّكُ للموجود غيرَ موجود ، فالنفس إذاً لا يمكن [أن تكون ^(١)] غير موجودة . وقال : إن كانت النفس بها قوَى وحياة الجسد ، فيمتنع أن يكون قوامها بالجسد ، بل بذاتها التي قامت بها حياة الجسد .

وقال : إن كانت النفس قائمة بذاتها التي قامت بها حياة الجسد ، فما كان قائماً بذاته فهو جوهر ، فالنفس إذاً جوهر .

وقد أملى علينا أبو سليمان كلاماً في حديث النفس هذا موضعه ، ولا عذر في الإمساك عن ذكره ليكون مضموماً إلى غيره ، وإن كان كلُّ هذا لم يجز على وجهه بحضرة الوزير — أبقاه الله ومد في عمره — لكن الخوض في الشيء بالقلم مخالفٌ للإفاضة باللسان ، لأنّ القلم أطولُ عِناناً من اللسان ، وإفضاء ^(٢) اللسان أحرَجُ من إفضاء القلم ، والغرض كلّهُ الإفادة ، فليس يكثر الطويل .

قال : ينبغي أن نعرف باليقظة التامة أن فينا شيئاً ليس بجسم له مدّات ثلاث : أعنى الطول والعرض والسّمك ، ولا يجزّأ من جسم ولا عَرَض من

(١) هذه العبارة أو ما يفيد معناها ساقطة من الأصل . والسياق يقتضى إثباتها .

(٢) « وقضا » .

الأعراض ، ولا حاجة به إلى قوة جسميّة ، لكنّه جوهر مبسوط غير مُدرك بحسّ^(١) من الإحساس . ولما وجدنا فينا شيئا غير الجسم وضدّ أجزائه بحدّته وخاصّته ، ورأينا له أحوالا تُبَيِّن أحوال الجسم حتّى لا تُشارك في شيء منها وكذلك وجدنا مباينته للأعراض ، ثم رأينا منه هذه المباينة للأجسام والأعراض إنّما هي من حيث كانت الأجسام أجساما والأعراض أعراضا ؛ قضينا أنّها هنا شيئا ليس بجسم ولا جزء من الجسم ، ولا هو عرض ، ولذلك لا يقبل التغيّر ولا الحيلولة ، ووجدنا هذا الشيء أيضا^(٢) يطّلع على جميع الأشياء بالسواء ولا يباله فتور ولا ملال ، ويتضح هذا بشيء أقوله : كلّ جسم له صورة فإنّه لا يقبل صورة أخرى من جنس صورته الأولى البتة إلّا بعد مفارقتها الصورة الأولى ، مثال ذلك أنّ الجسم إذا قبل صورة أو شكلا كالتثليث ، فليس يقبل شكلا آخر من التربيع والتدوير إلّا بعد مفارقة الشكل الأول . وكذلك إذا قبل نقشا أو مثالا فهذا حاله ، وإن بقي فيه من رسم الصورة الأولى شيء لا يقبل الصورة الأخرى^(٣) على النظم الصحيح ، بل تُنقش فيه صورتان ، ولا تتمّ واحدة منهما ، وهذا يطّرد في السمع^(٤) وفي الفضة وغيرها إذا قبل صورة تُنقش في الخاتم ؛ ونحن نجد النفس تقبل الصور كلّها على التمام والنظام من غير نقص ولا عجز ، وهذه الخاصّة ضدّ الخاصّة الجسم ، ولهذا^(٥) يزداد الإنسان بصيرة كلّما نظر وبحث وأرتأى وكشّف .

(١) « يحسّ » .

(٢) هذه الكلمة وردت في الأصل في غير موضعها اللائق بها من العبارة ؛ والسياق وضعها في هذا الموضع .

(٣) « الأولى » .

(٤) « السمع » .

(٥) « ولها » .

ويتضح أيضا عن كُتَب^(١) أن النفس ليست بعرَض ، لأنَّ العَرَض لا يوجد إلَّا في غيره ، فهو محمول لا حامل وليس هو قِوَامًا ، وهذا الجوهر الموصوف بهذه الصفات هو الحامل لما لها أن تحمِلَ ، وليس له شبه من الجسم ولا من العَرَض .

وكان يقول : إذا صدق النظر ، وكان الناظر عاريا من الهوى ، وصحَّ طلبه للحق بالعشق الغالب ، فإنه لا يخفى عليه الفرق بين النفس المحرَّكة للبدن ، وبين البدن المتحرِّك بالنفس .

قال : وأما عرضت الشهة لقوم قصر نظرهم ، ولم يكن لهم لحظ ولا أطلاع فظنُّوا أنَّ الرباط الذي بين النفس والبدن إذا انحَلَّ فقد بَطَلَ جميعا .

وهذا ظنٌّ فيه عَسَف ، لأنَّهما لم يكونا في حال الارتباط على شكل واحد وصورة واحدة ، أعنى أنَّهما تبايَنا^(٢) في تصاحبهما وتَصاحَبًا في تبايُنهما^(٣) . ألا ترى أنَّ البدن كان قِوَامُهُ ونظامُهُ وتماؤه بالنفس ؟ هذا ظاهر .

وليس هذا حُكْمُ النَّفْس في شأنها مع البدن ، لأنَّها واصلته في الأوَّل عند مسقط النطفة ، فما زالت تربِّيهِ وتغذيهِ وتُحييهِ وتُسويهِ حتَّى بلغ البدنُ إلى ما تَرَى ، ووُجِدَ الإنسانُ بها ، لأنَّ النفس وحدها ليست بإنسان ، والبدن وحده ليس بإنسان ، بل الإنسان بهما إنسان ، فإذا الإنسان نصيبُهُ من النفس أَكْثَرُ من نصيبه من البدن .

وهذه الكثرة توجَد في الأوَّل من ناحية شرفِ النفس في جوهرها ، وتوجَد في الثاني من جهة صاحب النفس الذي هو الإنسان بما يستفيد من المعارف

(١) « ونصح أيضا عن كُتَب » .

(٢) « تتابعا » .

(٣) « تثابها » .

الصحيحة، ويضمه إلى الأفعال الواجبة الصالحة، فأمر المعارف الصحيحة معرفة الله الواحد الحق باليقين الخالص، وأمر الأفعال الواجبة الصالحة العبادة له والرضوان عنه .

وغاية المعرفة الاتصال بالمعروف، وغاية الأفعال الواجبة الفوز بالنعيم والخلود في جوار الله، وهذا هو الصراط المستقيم الذي دعا إلى الجواز عليه كل من رجع إلى بصيرة وآوى إلى حُسن سيرة .

فأما من هو عن هذا كله عم^(١) وعما يجب عليه ساء، فهو في قطع النعم، وإن كان متقلبا في أصناف النعم .

(٢) وكان يقول كثيرا : الناس أصناف في عقولهم : فصنف عقولهم مغمورة بشهواتهم، فهم لا يبصرون بها إلا حظوظهم المعجلة، فلذلك يكذون^(٣) في طلبها ونيلها، ويستعينون بكل وسع وطاقة على الظفر .

وصنف عقولهم منتهية^(٣)، لكنها مخلوطة بسببات^(٤) الجهل، فهم يحرضون على الخير واكتسابه، ويخطئون كثيرا، وذلك أنهم لم يكملوا في جيلتهم الأولى وهذا نعت موجود في العباد الجهلة والعلماء الفجرة، كما أن النعت الأول موجود في طالبي الدنيا بكل حيلة ومحالة .

وصنف عقولهم ذكية ملتبئة، لكنها عمية عن الآجلة، فهي تدأب في نيل الحظوظ بالعلم والمعرفة والوصايا اللطيفة والسمة الربانية، وهذا نعت موجود في العلماء الذين لم تلج صدورهم بالعلم، ولا حق عندهم الحق اليقين؛ وقصروا

(١) « عم » .

(٢) « يكسبون » .

(٣) « متبه » .

(٤) « بسببات » .

عن حال أبناء الدنيا الذين يشهرّون في طلبها السيوف الحداد ، ويطيلون إلى نيلها السواعد الشداد^(١) فهم بالكيد والحيلة يسعون في طلب اللذة وفي طلب الراحة^(٢) .

وصنف عقولهم مضئئة بما فاء عليها من عند الله تعالى باللطف الخفي ، والأصطفاء السني ، والأجتماع الزكي ، فهم يحملون بالدنيا ويستيقظون بالآخرة ؛ فتراهم حضوراً وهم غيب ، وأشياءاً وهم متباينون .

وكل صنف من هؤلاء مراتبهم مختلفة ، وإن كان الوصف قد جمعهم باللفظ . وهذا كما تقول : « الملوك ساسة » ، ولكل واحد منهم خاصّة » ؛ وكما يقولون : « هؤلاء شعراء ولكل واحد منهم بحر » ؛ « وهؤلاء بلغاء ولكل واحد منهم أسلوب » وكما تقول : « علماء ، ولكل واحد منهم مذهب » .

وعلى هذا أبو سليمان — حفظه الله — إذا أخذ في هذا الطريق أطرب ، لسعة صدره بالحكمة ، وفيص صوبه من المعرفة ، وصحة طبيعته بالفطرة .

وقال : إنّنا بعد هذا المجلس تركنا صنفاً لم نرسمه بالذكر ، ولم نعرض له^(٣) بالاستيفاء ، وهم الهمج الرعاع الذين إن قلت : « لا عقول لهم » كنت صادقاً ، وإن قلت : « لهم أشياء شبيهة بالعقول » كنت صادقاً ؛ إلا أنهم في العدد ، من جهة النسبة العنصريّة والجلبة الطينيّة والفطرة الإنسيّة ، وفي كونهم في هذه الدار عمارة لها ومصالح لأهلها ؛ ولذلك قال بعض الحكماء : « لا تسبوا الغوغاء فإنهم يُخرجون الغريق ويُطفئون الحريق ويُؤنسون الطريق ويشهدون الشوق » .

فضحك — أضحك الله نغره ، وأطال عمره ، وأصلح شأنه وأمره — فقال :

(١) « السداء » .

(٢) « البرحة » .

(٣) « عليه » .

قد جرى في حديث النفس أكثر مما كان في النفس ، وفيه بلاغ إلى وقت ، وأظن الليل قد تغطى^(١) بصلبه ، وناء بكله ؛ وانصرفت .

الليلة الرابعة عشرة

(١) . ومَرَّ بعد ذلك في عرض السَّمر : ما تَقَلَّدَ أمرؤُ قِلَادَةً أَفْضَلَ من سَكِينَةٍ . فقال : ذَكَرْتَنِي شَيْئًا كُنْتُ مَهْتَمًّا بِهِ قَدِيمًا ، وَالْآنَ قَرَعْتَ إِلَى بَابِهِ ؛ مَا السَّكِينَةُ ؟ فَأَنِي أَرَى أَصْحَابَنَا يَرُدُّونَ هَذَا الْأَسْمَ وَلَا يَسْطُونُ الْقَوْلَ فِيهِ . فَكَانَ مِنَ الْجَوَابِ : سَأَلْتُ أَبَا سَلِيمَانَ عَنِ السَّكِينَةِ مَا هِيَ ؟ فَقَالَ : السَّكِينُ كَثِيرَةٌ : طَبِيعِيَّةٌ ، وَنَفْسِيَّةٌ وَعَقْلِيَّةٌ ، وَالْهِمِّيَّةُ . وَمَجْمُوعَةٌ مِنْ هَذِهِ بِأَنْصِبَاءٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَمَقَادِيرٍ مُتَفَاوِتَةٍ وَمَتَبَاعِدَةٍ . وَالسَّكِينَةُ الطَّبِيعِيَّةُ اعْتَدَالُ الْمَزَاجِ بِتَصَالِحِ الْأُسْطُقْسَاتِ ، تَحْدِثُ بِهِ لِصَاحِبِهِ شَارَةً تَسَمَّى الْوَقَارَ ، وَيَكُونُ لِلْعَقْلِ فِيهَا أَثَرٌ نَادٍ ، وَهُوَ زِينَةُ الرُّؤَاةِ الْمَقْبُولِ . وَالسَّكِينَةُ النَّفْسِيَّةُ مِمَّا ثَلَّةَ الرُّوِيَّةُ لِلْبَدِيَّةِ ، وَمَوَاطَاةُ الْبَدِيَّةِ لِلرُّوِيَّةِ ، وَقَصْدُ الْغَايَةِ بِالْهَيْئَةِ الْمُتَنَاسِبَةِ ، يَحْدِثُ بِهَا لِصَاحِبِهَا سَمْتٌ ظَاهِرٌ وَرُنُوتٌ دَائِمٌ وَإِطْرَاقٌ لَا وُجُومَ^(٢) مَعَهُ ، وَغَيْبَةٌ لَا غَفْلَةَ مَعَهَا ، وَشَهَامَةٌ^(٣) لَا طِيلِشَ فِيهَا .

وَالسَّكِينَةُ الْعَقْلِيَّةُ حُسْنُ قَبُولِ الْأَسْتَفَاضَةِ بِنِسْبَةِ تَامَةٍ إِلَى الْإِفَاضَةِ ؛ وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ الْقَابِلَ مُسْتَغْرِقٌ بِقُوَّةِ الْمَقْبُولِ مِنْهُ ، وَبِهَذِهِ الْحَالِ يَحْدِثُ لِصَاحِبِهَا هَدًى يَشْتَمِلُ عَلَى وَزْنِ الْفِكْرِ فِي طَلَبِ الْحَقِّ مَعَ سَكُونِ الْأَطْرَافِ فِي أَنْوَاعِ الْحَرَكَاتِ . وَالسَّكِينَةُ الْإِلَهِيَّةُ لَا عِبَارَةَ عَنْهَا عَلَى التَّحْدِيدِ ، لِأَنَّهَا كَالْحِلْمِ فِي الْإِتْبَاهِ

(١) يَشِيرُ إِلَى قَوْلِ امْرِئِ الْقَيْسِ يَخَاطِبُ اللَّيْلَ :

• فَقُلْتُ لَهُ لِمَا تَغْطِي بِصَلْبِهِ

• كُنِيَ بِذَلِكَ عَنْ طَوْلِ اللَّيْلِ .

(٢) « وَجُوه » .

(٣) « وَشَهَادَةٌ » .

وكالإشارة في الحُلْم ، وليست حلما ولا أُنْتباها في الحقيقة ، لأن هذين نعتان محمودان في عالم السيلان والتبدّل ، جاريان على التخيل والتجوّز بزوائد لا ثبات لها ونواقص لا مبالاة بها ، رُوحانية في رُوحانية ، كما يقال : « هذا صفو هذا » ؛ و « هذا صفو الصفو » ومن لحظ هذه الكيفية^(١) وبُشِّر صدره بهذه الحقيقة استغنى عن رسوم محدودة بألف ولام ، وحقائق مَكسونة في عرض السكلام ؛ وإذا جهلنا أشياء هي لأهل الأنس^(٢) بلغات قد فُطروا عليها ، وعبارات أنسوا بها ، كيف نجد السبيل إلى الإفصاح والإشارة إليها .

فهذا اب واضح ، والطمع في نيّله نازح ؛ وإذا كان التّمال صعبا^(٣) في الموضع الذي عمدنا إليه ، فكيف يكون حالنا في البحث عما في حيز الألوهيّة وبمحبوة الرُّبوبيّة ، ولا كَوْن هناك ولا ما نسبته للكون ؛ وأقوى ما في أيدينا أن نتعلّل بالوجود ، فالموجود والوجدان والوجود ، وهذه كلّها غليظة بالإضافة إلينا .
فوق الدقّة بالإضافة إلى أعيانها .

فعلّ هذا ، الصمت أوجَدُ المراد من النّطق ، والتّسليم أظفَرُ بالبغيّة من البحث .

قال البخاري^(٤) : فشيء كهذا^(٥) بدقيقه وإشكاله ، وغموضه وخفائه ، كيف يظهر على جِبِلّة بشريّة وبنية طينية وكميّة ماديّة وكيفية عنصرية ؟ .
فقال : يا هذا ، إنما يشعّ من هذه السكينة على قدر ما أستودع صاحبها من

(١) « الكفّة » .

(٢) يريد الأنس بمعرفة الله . وفي الأصل « أندلس »

(٣) « صدقا » .

(٤) البخاري ، هو أبو العباس البخاري تلميذ أبي سليمان المنطقي وصديقه ، كثير السؤال والمجادلة له ، كما يبين مما حكاه أبو حيان عنه في المقابسات .

(٥) « فشا هذا » .

نور العقل ، وقبس النفس ، وهبة الطبيعة ، وصحة المزاج ، وحسن الاختيار وأعتدال الأفعال ، وصلاح العادة ، وصحة الفكرة ، وصواب القول ، وطهارة السرّ ومساواته للعلائية ، وغلبته بالتوحد ، وانتظام كلّ صادر منه ووارد عليه .
 وهاهنا تمحى الجيلة البشريّة ، وتبدّد الجيلة الطيّنيّة ، وتبيد الكميّة الماديّة وتعفو الكيفيّة^(١) العنصريّة ، ويكون السلطان والولاية والتصريف والسياسة كلّها لتلك السكينة التي قدّمنا وصفنا لها ، واشتدّ وجدنا بها ، وطال شوقنا إليها ودأبّ تحديقنا نحوها ، وأتصل رُؤُونا إليها ، وتناهت نَجواننا بذِكْرها .

وهذا هو الخلع الذي سمعتَ بذِكْره ، واللّباس الذي سألتَ عنه ، أعنى خَلَع ما أنت منه إنسان ، ولبس ما أنت به مَلَك . [الله] المستغاثُ منكم ، ما أشدّ بلواي بكم ، لِمَ تتحرّكون إلا إلى ما لا سكون لكم فيه ؟ ولِمَ تسألون عمّ لا أطلع لكم عليه ؟ سلوا ربكم أعيناً بصيرة ، وآذاناً واعية ، وصدوراً طاهرة ، وقوّة متتابعة ، فإنكم إذا مُنِحتموها هُديتم لها ، وإذا حُرِمتموها قُطِعتم دونها ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله .

قال البخاريّ : وقد تركنا ياسيدنا حديث السكينة المجموعة من هذه الجملة بأنصبا مختلفة .

فقال : لا عجب أن يُنشأ العالمُ بكلِّ ما فيه في هذه الحومة^(٢) التي لَدُنّا بها وحاولنا الوصولَ إليها ؛ وأتى شيءٌ أعجَب^(٣) في هذا المقام ، رسم أو قوام ، أو ثبات أو دوام ، إلا^(٤) له نصيب من عناية الله تعالى الكريم .

(١) « الكمية » .

(٢) « الحومة » .

(٣) عبارة الأصل : « أعجب له » ، ويلوح أن قوله « له » زيادة من الناسخ .

(٤) عبارة الأصل : « إلا ما له » وقوله : « ما » زيادة من الناسخ .

نعم ، والسكينة المجموعة من كلِّ ما سلف القول فيه تقاسمها نوع الإنسان بالزيادة والنقصان ، والغموض والبيان ، والقلة والكثرة ، والضعف والقوة ، وهذا يتبين بأن تقسيم الطيش والحدة والعجلة والخفة على أصحابها ، فتجد التفاوت ظاهراً .

وكذلك إذا قسمت الهدوء والقرار والسكون والوقار على أهلها ، فإنك تجد التباين مكشوقاً والأختلاف ظاهراً .

ثم قال : أما السكينة التي هي في أعلى المراتب فهي لأشخاص هم فوق البشر ، وليس لهم نسبة من الخلق إلا أنخلقة الحسنة والعشرة البشرية ، وإلا فهم في ذروة عالية ، ومحلة إلهية .

قال : وأما السكينة التي تلي هذه فهي للأنبياء على اختلاف حظوظهم منها لأنها مراتب تنقسم بين المنام واليقظة انقساماً متفاوتاً بالعرض الحامل للصدق والتشبيه بالصدق ، وللحق والقرب من الحق ، وللصحيح والتالي للصحيح ، ثم يختلف بيانهم عن^(١) ذلك بالتمريض والإيضاح ، والكناية والإفصاح ، والتشبيه والاستعارة .

قال : فأما السكينة التي تتلو هذه فهي التي تظهر على طائفة تخلف الأنبياء ، وذلك أن بقايا قواهم يرثها الذين يحببهم ، واستضاءوا بنورهم ، وفهموا عنهم ، ولقنوا منهم ، ودخلوا في زميرتهم ، وحاكهم في الشئائل والأخلاق ، وسلوكوا منهاجهم في القياد والسياق ، وصلحوا سفراء بين الأبعدين ، كما كانوا سُجَّراء^(٢) للأقربين ، وهم الذين يفسرون الغامض ، ويوضحون المشكل ، ويبسطون المطوى ، ويشرحون المكفى ، ويبرزون المراد والمعنى ، ويوطدون الأساس ،

(١) « ما بهم على » .

(٢) « سحراً » . والسجاء : الأصدقاء الأصفاء .

ويرفعون الالتباس ، وينفون الوحشة ويحدثون الإيناس .

وأما السكينة الباقية فهي مفوضة على أتباع هؤلاء بالسَّهام العلوية ، والمقادير العدلية ، والمناسيب العقلية ، من غير جَوْر ولا حَيْف ، ولا انحراف ولا ميل .
فقال البخاري : أهي — أعنى السكينة — في معنى فاعلة أو مفعولة ؟ فقال :
الفضاء أعرض ^(١) مما تظن ، وإن كان في غاية العَرَض ؛ والدَّرْوَة أعلى من أن
ترام وإن كان الإنسان يطلُّها بالبسط والقبض .

هي بوجه في معنى فاعلة إذا شعرت بتأثيرها ، وبوجه آخر في معنى مفعولة إذا
شعرت بتأثرها .

وبوجه آخر ، ليست من هذين القبيلين في شيء إذا لحظتها في معانيها قبل
تأثيرها وتأثرها ، وأنت تعتبر حد الفاعل والمفعول من شكل اللفظ ووزن الترتيب ،
بشائع العادة وقائم العُرف ، والسكينة وراء هذا كله بالحق والواجب والصحة والتمام
فإنها صراط الله للمخصوصين بالاستقامة عليه ، فإذا شهدت الخصوص بها كانت
عبارتك عن الملحوظ منها مشاكلةً لعبارتك عن أخلاق رضىة وأحوال مرضية ،
وإذا شهدت ذلك المعنى من معاني الحق كانت عبارتك متجلجلة لا نظام لها
ولا تعادل ولا أنساق على العادة الجارية والحال الطارئة ؛ فأحق ما ينبغي لطالب
الحكمة واللائذ بهذه الحومة أن يبحث وينظر ، ويكشف وينقّر ، ويستقصي ويستبصر ^(٢)
ويسأل ويستبصر ؛ حتى إذا بلغ هذه الآفاق ، وشهد هذه الأعلام ، ووجد الصواب
الذي لا شوب فيه ، وصادف اليقين الذي لا ريب معه ، وعرف الاستبانة التي تغني
عن البيان ، وذاق المعنى الذي هو فوق العيان ، أمسك وانتهى ، ووقف واستغنى

(١) « الفضاء أعرض » .

لا لَعَرَضِ ظِلَامٍ غَشِيَهُ ، ولكن لسلطانِ شُعاعٍ مَلَكَه ؛ لأن ذلك النور محيط بكل شيء ، دونه ، ومستَوِلٌّ على كلِّ شيءٍ تحته .

وكان يقول في هذا الفن إذا جَدَّ به الكلام وبدأ منه المكنوم وشرده عنه الخاطر ما لا يُوعَى بحفظ ، ولا يُروى بلفظ .

وإنما كان أصحابنا ينتظرون منشورَه بهذه الحروف لفظا لينظموا منه شذرا وعقدا ، وكانوا إذا تلاقوا اشتراكوا في تقويم ذلك كله ، وتعاونوا على تحبيره ، وتصادقوا [على] مفهومهم منه ، وتجنبوا المنازعة والشفب عليه ، وأخذوا بالعفو والممكن منه ، لئلا يفوتهم المعنى ، ولا يتحيرون في المنتهى .

وسأله الأندلسي في هذا المجلس عن الأُمِّ وأحوالها ، ونقصها^(١) وكماها ؛ فقال : (٢)
اشتركت الأُمُّ في جميع الخيرات والشرور ، وفي جميع المعاني والأُمور ؛ اشتراكا أتى على أول التفاوت ووسطه وآخره ، ثم استبدَّت كلُّ أمة بقوالب ليست لأختها ، واشتراكهم فيها كالأصول واستبدادهم كالفرع ، وفيما اشتراكوا فيه الحمد والمذموم .

ولم يَجْزُ في الحكمة الإلهية غيرُ هذه القسمة ، لأن الاشتراك لو سبق بلا تفاوت لم يكن اشتراكا ، والتقاسم لو عَرِيَ من الاتفاق لم يكن تقاسما ، فصار ما من أَجَلِه يفترون ، به يجتمعون ، وما من أَجَلِه ينتظمون ، به ينتثرون . .

فعلى هذا اشتراكوا في الأخلاق واللغات ، والعقائد والصناعات ، وجَرَّ المنافع ودفع المضار ، مع اختلافهم فيها بنوع ونوع .

ألا ترى أنَّ لغة الهند غيرُ لغة الروم ، وكذلك الصناعة والعقيدة وما يجري مجراها ، إلا أنَّهم مع هذه الأصول والقواعد تقاسموا أشياء بين الفطرة والتنبيه ،

(١) « ونقصها » .

وبين الاختيار والتقدمة ، فصار الاستنباط والفوص والتنفير والبحث
والاستكشاف والاستقصاء والفكر [ليونان^(١)] والوهم والحَدْس والظن والحيلة
والتحليل والشعبذة [للهند^(٢)] والحصافة^(٣) واللفظ والاستعارة والإيجاز والاتساع
والتصريف والسحر باللسان للعرب ؛ والروية والأدب والسياسة والأمن والترتيب
والرسوم والعبودية والزُّبُوبِيَّة للفُرس .

فأما الترك فلها الشجاعة . والعرب تشاركها إما بالزيادة وإما بالمساواة ؛
وليس للترك بعد هذا حظٌّ ولا درايةٌ إلا بقسط من الظل من الشخص .
والعرب مع منطقتها البارعة لها المزية المعروفة على الترك بعدُ [في^(٤)] السياسة
وإن كانت قاصرة ؛ وأما الزنج والسودان فغلبت عليها الفسولة وشاكلت البهائم
الضعيفة ، كما شاكلت الترك السباع القوية .

قيل له : إن أبا زيد قد عمل كتاباً في أخلاق الأمم . قال : قد رأيته وقرأته
وقد أفاد ، وكل من تكلم على^(٥) طريقة الحكماء الذين يتوخون من الأمور
لُبابها ، ويصرفون عنها قشورها ، فه السابقة والتقدم على من يخبط كفلان وفلان .
ومن جحد بلاغة العرب في الخطابة وجولانها كل مجال وتميزها باللسان
فقد كابر ، ومن أنكر تقدم يونان في إثارة المعاني من أمانتها وإقامة الصناعات
بأسرها ، وبحنها عن العالم الأعلى والأوسط والأسفل فقد بهت .
ومن دفع مزية الفُرس في سياستها وتديراتها وترتيب الخاصة والعامة بحق
مالها وعليها فقد عاند .

(١) يلوح لنا أن هاتين الكلمتين اللتين بين مربعين ساقطتان من الأصل كما يدل على ذلك
ما يأتي بعد من قوله : « ومن أنكر تقدم يونان في إثارة المعاني » الخ كما يدل عليه أيضاً كلام
سبق في المفاضلة بين العرب وغيرهم من الأمم في أوائل هذا الجزء .

(٢) « والحصلة » .

(٣) كلمة « في » زيادة منا يدل عليها المعنى .

(٤) في الأصل « غير طريقة » .

وهكذا مَنْ دفع ما للهند، فليس من شخص وإن كان زريًا قميًا إلا وفيه سِرٌّ كامنٌ لا يشرّكه فيه أحد، وإذا كان هذا في شخص على ما قلنا، فكيف إذا نظرت إلى ما يحويه النوع . وهكذا إذا أرتقيت إلى الجنس ، وهذا لأن عَرَض الجنس أوسع من عَرَض النوع ، كما أن عَرَض النوع أوسع من عَرَض الشخص ، وليس دون الشخص تحت ، كما أنه ليس فوق الجنس فوق ^(١) . وأما (٣) انقسام هذه الثلاثة على هذا فليكون فضاء العالم غاصًا بالطرف والوسط والأفق وليكون سَجًّا بالغًا من المصدر إلى المورد .

وعلى هذا لولا الجنس لم يُوجد نوعٌ ، ولولا النوع لم يُوجد شخص . وكذلك العكس .

قال أبو سعيد الطيب : ألعالم العلويّ أجناس وأنواع وأشخاص ؟ قال : كيف يخلو العالم العلويّ من هذا التقسيم ، وإنما هذا الذي لحقنا في العالم السفليّ حكاية ذلك العالم العلويّ حَذْو النعل بالنعل والقُدّة بالقُدّة . فقال له مستزيدا : فهل في البسائط الإلهية أجناس وأنواع وأشخاص ؟ فقال : لا ، إلا أن يتخذ شيء من هنالك قراره في معارض العالم السفليّ بقوة العالم العلويّ ، وذلك كالبرق إذا حَظَف ، والنسيم إذا لطف .

قال : فهل ينال البسائط نقصٌ بالإخبار بالأجزاء المركبة عنها كما ينال المركبات كمالٌ بالأجزاء البسيطة عنها ؟

فقال ، لا ، لأن ماعلا يؤثر ولا يقبل التأثير ؛ وما سفليّ يتأثر . ألا ترى أن ماعلا من الكواكب لا يتصل بشيء دونه ، وما سفليّ منها يتصل بما علا عنه .

وقال له أيضا : إذا قلنا : الرُوحانيّات ، فماذا ينبغي أن يُلاحظ منها ؟ فقال : (٤)

الروحانيات على أقسام ؛ فقسم منها متبدّد في المركّبات من الحيوان والجماد ، وقسم منها مكتنّف للحيوان والجماد ، وبحسب هذا الأكتناف هو أبسط وألطف من القسم الأوّل المتبدّد ؛ وقسم منها فوق القسم المكتنّف ، وهو الذي منه مادّة المحيط ؛ وقسم آخر فوق هذا الممتدّ ، ثم فوق هذا ما لا يملكه وهم ، ولا يُدرّكه فهم ؛ وذلك أنه في جناب القدس وحيث لا مرّام لشيء من قوَى الجنّ والإنس .

وسألت أبا سليمان فقلت : إنّ عليّ بن عيسى الرّمانيّ ذكر أن التمكن من القبيح قبيح ، لأن التمكن من الحسّن حسن . فلو كان التمكن من القبيح قبيحا مع كونه من الحسّن حسّنا كان حسّنا قبيحا ؛ وهذا تناقض ؛ كيف صحّة هذا الذي أومأ إليه ؟

فقال : أخطأت ^(١) ، لأن التمكن وحده اسم مجرد لشيء محدّد ، والأسماء المحدّدة دلالتها على الأعيان لا على صفات الأعيان أو ما يكون من الأعيان أو ما يكون في الأعيان .

والتمكن معتبر بما يضاف إليه ويناط به ، فإن كان من القبيح فهو قبيح لأنه علّة القبيح ، وإن كان من الحسّن فهو حسنّ لأنه سبب الحسّن .

وهذا كما تقول : هذا الدرهم نافع أو ضار ؟ فيقال : إن صرفته فيما ينبغى فهو نافع ، وإن أنفقته فيما لا ينبغى فهو ضار ، وكذلك السيّف في الآلات ، وكذلك اللفظ في الكلمات ، والإضافة قوّة إلهيّة سرت في الأشياء سريانا غريزيا قاهرا متملكا قاسرا ، فلا جرم لا ترى حسيا أو عقليا أو هميا أو ظنيا أو علميا أو عرفيا أو عمليا أو حلميا أو يقظيا إلا والتصاريف سارية فيها ، والإضافة حاكمة عليها . وهذا لأن الأشياء بأسرها مصيرها إلى الله الحق ، لأن مصدرها من الله

الحق ، فالإضافة لازمة ، والنسبة فأئمة ، والمشابهة موجودة . ولولا إضافة بعضنا إلى بعض ما أجمعنا ولا أفرقنا ، ولولا الإضافة بيننا الغالبة علينا ما تفاهمنا ولا تعاوننا .

قال : إذا كنّا بالتضايّف نتوالى ، فبأيّ شيء بعده نتعادى ^(١) ؟ قال : هذا أيضا بالإضافة ، لأن الإضافة ظلّ ، والشخص بالظلّ يأنف ، وبالظلّ يختاف . وقال : ويزيدك بيانا أنّ القَدَم والوجود شاملان لنا ، سائران فينا فبالوجود نتصادق ، وبالقَدَم نتفارق .

وسأل ^(٢) مرة عن الطّرب على الغناء والضرب وما أشبههما . ^(٦)
فكان من الجواب : قيل لسقراط فيما ترجمه أبو عثمان الدمشقي . لم طرب الإنسان على الغناء والضرب ؟ فقال : لأنّ نفسه مشغولة بتدبير الزمان من داخل ومن خارج ، وبهذا الشغل هي محجوبة عن خاصّ مالها .

فإذا سمعت ألغناء أنكشف عنها بعضُ ذلك الحجاب ، فَحَنَّتْ إلى خاصّ مالها من المثالات الشريفة والسعادات الرّوحانيّة من بعد ذلك العالم ، لأن ذلك وطنها بالحقّ .

فأمّا هذا العالم فإنّها غريبة فيه ، والإنسان تابع لنفسه ، وليست النفس تابعة للإنسان ، لأنّ الإنسان بالنفس إنسان ، وليست النفس نفسا بالإنسان ، فإذا طربت النفس — أعنى حنّت ولحظّت الرّوح الذي لها — تحرّكت وخفّت فأرتاحت واهتزّت .

ولهذا يطرح الإنسان ثوبه عنه ، ورَبّما مرّقه كأنّه يريد أن ينسلّ من إهابه

(١) « تنقاد » .

(٢) سأل ، أى الوزير .

الذى لَصِقَ به ، أُوْقِلَتْ من حِصاره الذى حُبِسَ فيه ، ويهرول إلى حبيبه الذى قد تجلّى له وبرز إليه .

إلا أن هذا المعنى على هذا التنضيد إنما هو للفلاسفة الذين لهم عناية بالنفس والإنسان وأحوالها .

وأما غيرهم فطَرَبُهم شبيهٌ بما يعتري الطيرَ وغيرَها ، وأنصرفت .

الليلة الخامسة عشرة

وجرى مرّةً كلامٌ فى الممكن ، فحكيتُ عن ابن يعيش الرّقىّ فصلاً سمعته يقوله ، لا بأس برسمه فى هذا الموضع ، فإنّ التشاور فى هذا الحرف دائمٌ متّصل وينبغى لنا أن نبحث عنه بكلّ زحفٍ وحَبْوٍ^(١) ، وبكلّ كَدٍّ وعَقْوٍ .

قال : الممكن شبيهٌ بالرّوْيا لا بَدَنَ له يستقلّ به ، ولا طبيعة يتحيزُ فيها .

ألا ترى أن الرّوْيا تنقسم على الأكثر والأقلّ والتساوى ، وكما أن الرّوْيا ظِلٌّ من ظلال اليَقَظة ، والظِلُّ يَنْقُصُ ويزيد إذا قيسَ إلى الشّخص ؛ كذلك الممكن ظِلٌّ من ظلال الواجب ، فطَوْرًا يزيد تشابهاً للواجب ، وطورا ينقص تشاكها للممتنع ، وطورا يتساوى بالوسط .

قال : والواجب لا عَرَضَ له ، لأنّه حدّ واحد ، وله نصيب من الوَحْدَةِ بدليل أنّه لا تغيّر له ولا حيولة لا بالزمان ولا بالمكان ولا بالحدثان ولا بالطبيعة ولا بالوهم ولا بالعقل ، بل العقل ينقاد له ، والطبيعة تُسَلِّمُ إليه ، والوهم يفرّق منه وصورة الواجب لا يَحْدُسُها الظنّ ، ولا يتحكّم فيها تجويز ، ولا يتسلط عليها دافع ولا ناسخ ، وهذا الحُكْمُ يطرد على الممتنع ، لأنّه فى مقابلته على الضّدّ ، أعنى

(١) « حبو وزحف » .

أَنَّهُ لَا بَدَنَ لَهُ ، فَيَكُونُ لَهُ عَرَضٌ ، وَالْعَرَضُ كُلُّهُ لِلْمَمْكُنِ بِالنَّعْتِ الَّذِي سَلَفَ
مِنَ الْكَثْرَةِ وَالْقَلَّةِ وَالْمَسَاوَةِ .

ولهذا تعلّقت التكاليف به في ظاهر الحال وبادئ الأمر وعارض الشان ،
وأستولى الوجودُ عليه بباطن الحال وخفى الأمر وراتب^(١) الشان ، لكنَّ
هذا الفصل الذي اشتمل على الظاهر والباطن ليس ينكشف للحسن كما
ينكشف للعقل .

ولمّا كنّا بالحسن أكثر — وإن كنّا لا نخلو في هذه الكثرة من آثار
العقل — لزِمْنَا الاعترافُ بعوائد الممكين وعلائقه ، والعمل عليه ، والرجوع إليه
إِذَا أَمَرْنَا أَوْ نَهَيْنَا أَوْ ائْتَمَرْنَا [أَوْ اتَّهَمْنَا^(٢)] .

ولمّا ظهر لنا بإزاء هذا الذي كنّا به أكثر أن لنا شبيحا آخر نحن به أقلّ
وهو العقل يشهد لنا بأن صورة الوجوب أَسْتَوْلَتْ من مبدأ الأمر إلى منقطعه
الذي هو في عَرَضِ الواجب إلى آخر الممتنع .

وكما لزِمْنَا الاعتراف الأول لنكون به عاملين ومستعملين ، ورافعين
وواضعين ، ولأئمين ومَلُومين ، ونادمين ومُنْدِمِينَ ؛ كذلك لزِمْنَا الاعترافُ
بسلطان الواجب الذي لا سبيل إلى عزله ، ولا محيصَ عن الإقرار به ، ولا
فكلك من أطْرَادِهِ بغير دافع أو مانع .

واتّصل كلامُ أبن يعيش على تقطُّعٍ في عبارته التي ما كانت أداته تَوَاتِيهِه
فيها ، مع تدفُّقِ خواطره عليها ؛ فقال : الرُّؤْيَا ظِلُّ أَلْيَقْظَةِ ، وهي واسطةٌ بين

(١) « ورأيت » .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ والسياق يقتضيها .

الْيَقَظَةُ والنوم ، أعنى بين ظهور الحِسِّ^(١) بالحركة ، وبين خفائه بالسكون .

قال : والنوم واسطة بين الحياة والموت ، والموت واسطة بين البقاء الذى يتصل بالشهود^(٢) وبين البقاء الذى يتصل بالخلود .

قال : وهذا نعتٌ على تسهيل اللفظ وتقريب المراد والتصوّر ؛ والثقة شوك القتاد ، وأزردادُ العَلَقَمِّ والصاب ، للحواجز القائمة والموانع المعترضة من الإلف والمنشأ وغير ذلك مما يطول تعديده ويشقُّ استقصاؤه .

فقال^(٣) : هذا كلامٌ ظريف ، وما خلتُ أن ابنَ يعيش مع فدامته^(٤) ، ووَخَامَتِهِ يسحب ذيلَه فى هذا المكان ، ويُجرى جوادَه بهذا العنان .

قلتُ له : إنَّ له مع هذه الحالِ مرامىَ بعيدة ، ومَقاصدَ عالية ، وأطرافا من المعانى إذا اعتلقتها دَلَّ عليها ، إما بالبيان الشافى ، وإما بما يكون طريقا إلى الوهم الصافى .

وقلتُ : لقد مرَّ له اليومَ شىءٌ جرى بينه وبين أبى الخير اليهودى أَسْتَفِيدَ^(٥) منه .

قال : وما ذاك ؟ أنثُرُ علينا دُرَرَ هذه الطائفة التى نميل إليها بالأعتقاد وإن كنا نقع دونها بالأجتهاد ؛ ونسأل الله أن يرحم ضَعَفَنَا الذى منه بُدِّئْنَا^(٦) ويبدلنا قوةً بها نجد قُربَنَا فى آخرنا .

(١) « والحركة » .

(٢) « بالبنود » .

(٣) فقال ، أى الوزير .

(٤) « قدامته » باللقاف .

(٥) فى الأصل « ما استفيد » و « ما » زيادة من الناسخ .

(٦) « وورينا » . وبدئنا ، أى خلقنا .

قلت : ذكر أن العقل لا غناء ^(١) له في الأشياء التي تغلب عليها الحيلولة والسَّيْلان والتطوّل ، كما أن الحِسَّ لا ينفذُ في الأمور التي لا تطوّر لها بالحيلولة والتطوّل ، ولذلك عُرِفَت الحِكْمَةُ في الكائنات الفاشيات ^(٢) ، وخفيت العِلْلُ والأسباب في بُدُوها وخُفْيَتِها وتبدّدها وتألّفها ، لكنّ هذا الفرق والخفاء مسلّمان للقُدْرَةِ المستعلية والمشيئة النافذة .

قال : ولهذا الترتيب سرٌّ ^(٣) به حَسُنَ هذا النعت ، وإليه أُنْتَهَى هذا البَحْثُ وذلك أن خَفَاءَ ما خُفِيَ بِحَقِّ الْأَوَّلِ الْحَقِّ ، وبدوّ ما بدا من نصيبِ أَطْلُقِ لِلَّذِي ^(٤) لا يحتمل غير هذا الثقل ، ولو خُفِّفَ عنه هذا لَلَحِقَ الْإِنْسَانُ الْبَهَائِمَ ، ولو ثَقُلَ عليه هذا لَلَحِقَ الْمَلَائِكَةُ ، فكان حينئذ لا يكون إنسانا ، وقد وجب في الأصل أن يكون إنسانا كاملا بالنَّصَبِ والدَّأْبِ ، ويَمْتَعِضُ من أف تكون صورة الإنسان عنده مُعَارَةً ، لأنه في الحقيقة حيوان غيرُ ناطق ، بل يجتهد بسمعيه وكده أن يصير إنسانا فاضلاً ، ويكون في فضله وكَمَالِهِ مَلَكًا ، أعنى بالمشاكهة الإرادية لا بالمشاكهة النوعية .

قال : وغاية الحكمة منها للعباشرين لها أن المعرفة تَقِفُ على حَيَلُولِهَا ولسيْلانها فقط ، لا على تصفّح أجزائها ، لأن الترتيب فيها يستحيل مع الزمان .
.. ألا ترى أن الرقم على الماء لا صورة له ، لأن صفحة الماء لا تثبت لها ، وكذلك الخطّ في الهواء ، وكذلك الكائنات البائِذات ^(٥) لا صورة لها ، لأنها لا تثبت

(١) « عناه » .

(٢) « الفاسدات » .

(٣) « شربه » .

(٤) « الذي » .

(٥) « الناراب » .

لها ، وأنت إذا وجدت شيئا لا ثبات له لم تضمّ إليه شيئا آخر لا ثبات له طمعا في وقوع الثبات بينهما ، هذا ما لا يدين به وهم ، ولا ينقاد له ظنّ ؛ ولو ساغ هذا لساغ أن يُجمع بين ماله ثبات ، وبين ماله أيضا ثبات ، فيحدث هناك سَيْلَانٌ وأستحالة .

(٤) وقال : وَصَفُ الْعَقْلِ بِشَهَادَةِ الْحَسَنِ ، كما يكون وصف الْحَسَنِ بِشَهَادَةِ الْعَقْلِ إِلَّا أَنَّ شَهَادَةَ الْحَسَنِ لِلْعَقْلِ شَهَادَةُ الْعَبْدِ لِلْمَوْلَى ، وشهادة الْعَقْلِ لِلْحَسَنِ شَهَادَةُ الْمَوْلَى لِلْعَبْدِ ؛ عَلَى أَنَّ هَاتَيْنِ الشَّهَادَتَيْنِ لَا يَطْرُدَانِ وَلَا يَسْتَمِرَّانِ ، لِأَنَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْحَسَنِ وَالْعَقْلِ تَفَرُّدًا بِخَاصِّ مَالِهِ ، وَلِذَلِكَ مَا وُجِدَ حَيَوَانٌ لِعَقْلٍ لَهُ الْبَتَّةُ ، وَوُجِدَ فِي مَقَابِلَتِهِ حَيٌّ لَا حَسَنَ لَهُ .

ثم قال : بَلِ الْعَقْلُ يَحْكُمُ فِي الْأَشْيَاءِ الرُّوحَانِيَةِ الْبَسِيطَةِ الشَّرِيفَةِ مِنْ جِهَةِ الصُّوَرِ الرَّفِيعَةِ ، وَالْعِلَاقَةُ الَّتِي بَيْنَ الْمَعْقُولَاتِ وَالْحِسُوسَاتِ مَانَعَتِ الْعَقْلَ ، وَالْعَاقِلَ مِنْ خُلُصٍ ^(١) الْبَاقِيَّاتِ الْخَالِدَاتِ الدَّائِمَاتِ الْقَائِمَاتِ الثَّابِتَاتِ مِنْ حُومَةِ الْكَائِنَاتِ الْفَاسِدَاتِ الْبَائِنَاتِ ^(٢) الذَّاهِبَاتِ الْخَائِلَاتِ الزَّائِلَاتِ الْمَائِلَاتِ الْبَائِدَاتِ .

ودخل في هذا التلخيص ضربٌ من الشكِّ والتمازى والخصومة والتعاضد والتعنّت إلى اختلاف عظيم ، ووقفتُ عن الْحُكْمِ بَعْدَ الْيَقِينِ .

(٥) وقال — أدام الله سعادته — مَا السَّجِّيَّةُ ^(٣) ؟ قلت : سَمِعْتُ الْأَنْدَلُسِيَّ يَقُولُ : فُلَانٌ يَمْشِي عَلَى سَجِّيَّتِهِ ^(٣) ، أَى طَبْعِهِ ^(٣) .

(٦) قال : هل يقال : ظَفِرْتُ عَلَيْهِ ؟ قلتُ : قد قال شاعرهم .

وكانت قريش لو ظفّرنا عليهمُ شفاء لما في الصدر والنقصُ ظاهرُ

(١) « في تخليص » .

(٢) « البائدات » .

(٣) وردت هذه الكلمات الثلاث التي تحت هذا الرقم في الأصل هكذا « اله » .

« حسه » . « لحفظه » . والتعريف فيها ظاهر .

قال : هذا حسن . قلتُ : الحروف التي تتعدى إلى الأفعال ، والأفعال التي تتعدى بالحروف ؛ يراعى فيها السماعُ فقط لا القياس .

هذا كان مذهب إمامنا أبي سعيد ؛ وقد جاء أيضا « ظَفِرَ به » ؛ وجاء « سَخِرَتْ به ومنه » .

ومن لا اتَّساع له في مذهب العرب يظنُّ أن « سَخِرَتْ به » لا يجوز وهو صحيح . حكاه أبو زيد .

قال : كيف يقال في جَمَل به غُدَّة ؟ فكان من الجواب : جَمَلٌ مُغْدٌ . قال : فكيف يُجمع ؟ فكان الجواب بأنه في القياس ظاهر ، ولكن السماع قد كفى . قال الشاعر — وهو خِرَاش بن زُهَيْر :

فَقَدْ تَكْمُو^(١) وَلَحْظُكُمْو إِلَيْنَا بَيْطُنٌ عُكَاظٌ كَالْإِبِلِ الْغِدَادِ^(٢)
ضَرَبْنَاَهُمْ بَيْطُنٍ عُكَاظٌ حَتَّى تَوَلَّوْا طَالِعِينَ مِنَ النَّجَادِ
وقال — حرس الله نفسه — من لقبه^(٣) الْخُرَاسِيَّ إِلَى أَيْ شَيْءٍ يُنْسَبُ ؟
فكان من الجواب : يقال : رجل خُرَاسَانِيٌّ وَخُرَاسِيٌّ وَخُرَاسِيٌّ ، فنُسبت^(٤)
إلى رجل نزلها^(٥) فاشتهرت به .

فقال : القَذال كيف يجمع ؟ فكان من الجواب أن فَعَالاً وَفِعَالاً وَفُعَالاً وَفَعِيلًا وَفُعُولًا أخوات تُجْمَعُ فِي الْأَقْلِ عَلَى أَفْعِلَةٍ ، يقال : حِمَارٌ وَأَحْمَرَةٌ ، وَفُرَابٌ وَأَغْرَبَةٌ ، وَقَذَالٌ وَأَقْذِلَةٌ ، وَعَمُودٌ وَأَعْمَدَةٌ .

(١) في اللسان مادة (غدد) : « عدتمكم ونظرتكم »

(٢) في كتب اللغة مادة (غدد) أن غدادا جمع (غاد) لا جمع سامعي (المُغْد) كما نفيد به عبارة المؤلف .

(٣) « له » .

(٤) أي نسبت كورة خراسان إلى رجل اسمه خراسان ، كما في كتب اللغة .

(٥) ورد في الأصل بعد قوله « نزلها » هذه الكلمة : « سه » بهمة الحروف من النقط ؛ ولم تتبين الصواب فيها .

قال : نسيت ^(١) أسألك عن المسألة الأولى — أعنى الخُرسى — من أين لك تلك الفتيا ؟

فكان من الجواب : قرأته على أبي سعيد الإمام في شرحه كتاب سيبويه .
قال : برّدت غليلي ، فإنّ الحجّة في مثل هذا متى لم تكن بأهلها كانت متلجلجة .

قال : أنشدني شيئاً نختم به المجلس ، فقد مرّت طرائف .
فأنشدته لهُمارة بن عَقِيل في بنت ^(٢) له :

حُبُّكَ تَسَاقَاهُ مُشَاسُ ^(٣) أَغْطِي
وَدَبَّ بَيْنَ كَبِدِي وَخَزَمِي وَسَاطَهُ ^(٤) اللَّهُ بَلَحْمِي وَدَمِي
فَلَيْسَ بِالْمَذْقِ وَلَا الْمَكْتَمِ وَلَا الَّذِي إِنْ يَتَقَادَمُ يُسَامِ
لَقَدْ نَزَلَتْ مِنْ فَوَادِي — فَأَعْلَى — مَنْزِلَةَ الشَّيْءِ الْحَبِّ الْمُكَرَمِ
وَانصرفتُ .

الليلة السادسة عشرة

(١) ثم عُذْتُ وقتاً آخر فقال : كنتَ حكيت لي أَنَّ العاصريَّ صَنَّفَ كتاباً
عنوانه (بانتقاد البشر من الجبر والقدر) ، فكيف هذا الكتاب ؟

فقلتُ : هذا الكتاب رأيته بخطه عند صديقنا وتلميذه أبي القاسم الكاتب
ولم أقرأه على العاصريِّ ، ولكن سمعتُ أبا حاتم الرازي يقرؤه عليه ، وهو كتاب

(١) « لست » .

(٢) هذه الكلمة في الأصل مهمة الحروف من النقط .

(٣) الأكهم : المقطوع ، يريد وصفها بصغر الأنف حتى كأنه قد قطع منه جزء .

(٤) المشاس : كل عظم لا مخ فيه .

(٥) ساطه : خلطه .

نقيس ، وطريقة الرجل قوية ، ولكنه ما أنقذ البشر من الجبر والقدر ، لأن الجبر والقدر اقتسما جميع الباحثين عنهما والناظرين فيهما .

قال : لم قيل الجبر والقدر ولم يُقَلَّ الإجبار .

فكان الجواب : أن الإجبار ^(١) لغة قوم ، والجبر لغة تميم ، يقال : جبر الله الخلق وأجبر الخلق ، وجبر بمعنى جبل ؛ واللام تعاقب الراء كثيراً .

قال : فتكلم في هذا الباب بشيء يكون غير ما قاله العامري ، وانقل له إن كان الحق فيما ذهب إليه ودل عليه .

فكان من الجواب : أن من لحظ الحوادث والكوائن والصوادر والأوقى من معدن الإلهيات أقرَّ بالجبر وعزَّى نفسه من العقل والأختيار والتصرف والتصريف ، لأن هذه وإن كانت ناشئة من ناحية البشر ، فإن منشأها الأول إنما هو من الدواعي والبواعث والصوارف والموانع التي تنسب إلى الله الحق ؛ فهذا هذا .

فأما من نظر إلى هذه الأحداث والكائنات والأختيارات والإرادات من ناحية المباشرين الكاسيين الفاعلين المحدثين اللائمين اللوئين المكافئين ، فإنه يعلّقها بهم ويلصّقها برقابهم ، ويرى أن أحداً ما أتى إلّا من قبل نفسه وبسوء اختياره وبشدة تقصيره وإيثار شقائه ؛ والملاحظون صحيحان واللاحضان مصيبان ، لكن الاختلاف لا يرتفع بهذا القول والوصف ، لأنه ليس لكل أحد الوصول إلى هذه الغاية ، ولا لكل إنسان اطلاع إلى هذه النهاية .

فلما وقعت البيئونة ^(٢) بين الناظرين بالطبع والنسبة لم يرتفع القول والقييل

(١) « من الإجبار » ، « ومن » زيادة من الناسخ .

(٢) « السوية » .

من ناحية القول والصفة ، فهذا هذا .

قال — أطل الله بقاءه — فما الفرق بين القضاء والقدر ؟

فكان من الجواب : أن أبا سليمان قال : إِنَّ القضاء مصدرُهُ من العلم السابق ، والقَدَرُ مَوْزِدُهُ بالأجزاء الحادثة .

فقال : لم وَرَدَ في الأثر ؟ : « لا تخوضوا في القَدَرِ فَإِنَّه سرُّ الله الأكبر » .
فكان من الجواب : أن أبا سليمان قال لنا في هذه الأيام . إن الناموس ينطق بما هو أستاذ صلاح عام ، ليكون النفع به شائعاً في سكون النفس وطيب القلب وَرَوْح الصدور .

فإن كان هذا هكذا فقد وَضَحَ أَنَّ حكمة هذا السرِّ طَيِّبه ، لأنَّ عجز الناظرين يُفْضِي بِهِم إلى الحَيْرَةِ ، والحَيْرَةِ مَضَلَّةٌ ، والمَضَلَّةُ هَلَكَةٌ . وإذا كانت الراحة في الجهل بالشئ ، كان التعب في العلم بالشئ ، وكَمِ علمٌ لو بدا لنا لكان فيه شقاء عيشنا ، وكَمِ جهلٌ لو ارتفع مِنَّا لكان فيه هلاكنا ؛ [والعلم] ^(١) والجهل مقسومان بيننا ومفوضان علينا على قدر احتمال كل واحد مِنَّا للذي سبق إليه وعلِقَ به ، أَلَا تَرَى أَنَّ علمنا لو أحاط بموتنا متى يكون ؟ وعلى أَى حال تحدثُ العلة ^(٢) أو المحنة أو البلاء ؟ لكان ذلك مفسدةً لنا ، ومحنةً شديدةً علينا .

فأنظر كيف زَوَى الله الحكيمُ هَذَا العلمَ عنا ، وجعل الخيرة فيه لنا .
أَلَا تَرَى أَيْضاً أَنَّ جهلنا لو غلب علينا في جميع أمورنا لكان فسادُ ذلك في عظم الفساد الأوَّل ، والبلاء منه في معرض البلاء المُتَقَدِّم ، فَمَنْ هَذَا الَّذِي أَشْرَفَ على هذا الغَيْبِ المَكْنُونِ والسرِّ الحُزُونِ فيَغْفُلَ عن الشكر الخاھر والأستسلام الحَسَن ، والبراءة من كلِّ حَوْلٍ وقوَّة .

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ والسياق يقتضيها .

فالأستعداد ممن له الخلق والأمر ، أعنى الإبداء والتكليف ، والإظهار والتشريف ، والتقدير والتصرف .

قال : هذا فنٌ حسنٌ ، وأظنك لو تصديتَ للقصص والكلام على الجميع ^(١) (٢) لكان لك حظٌ وافر من السامعين العاملين ، والخاضعين والمحافظين .

فكان من الجواب : أن التصدي للعامّة خلوة ^(٢) ، وطلب الرّفعة بينهم ضعة ، والتشبه بهم نقيصة ؛ وما تعرّض لهم أحد إلا أعطاهم من نفسه وعِلمه وعقله ولُوثته ونفاقه وريانه أكثر مما يأخذ منهم من إجلالهم وقبولهم وعطائهم وبذلهم .

وليس يقف على ألقاصٍ إلا أحد ثلاثة .

إمّا رجل أبله ، فهو لا يدري ما يخرج من أمّ دماغه .

وإمّا رجل عاقلٌ فهو يزدرية ^(٣) لتعرضه لجهل الجهال ، وإمّا له نسبة ^(٤)

إلى الخاصة من وجه ، وإلى العامّة من وجه ، فهو يتذبذب عليه من الإنكار الجالب للهجر ، والأعتراف الجالب للوصل ، فالقاص ^(٥) حينئذ ينظر إلى تفرّغ الزمان لمداواة هذه الطوائف ، وحينئذ ينسلخ من مهماته النفسية ، ولذاته العقلية ، وينقطع عن الأزدیاد من الحكمة بمجالسة أهل الحكمة ، إمّا مقتبساً منهم ، وإمّا قابساً لهم ؛ وعلى ذلك فما رأيت من انتصب للناس قد ملك إلا درهماً وإلا ديناراً أو ثوباً ؛ ومناصبه شديدة لمائله وعداته .

قال : إن الليل قد دنا من فجره ، هاتِ مُلحّة الوداع .

(١) يريد بالجميع ، العامّة .

(٢) يريد بالخلوة هنا معنى التبذل والامتهان . يقال : خلق الثوب بثلاث اللام خلوة

وخلقة : إذا بلى .

(٣) يزدان به .

(٤) ورد في الأصل بعد هذه الكلمة قوله : « له » وهي زيادة من الناسخ .

(٥) « فالعاص » .

قلتُ : قال يعقوب صاحب (إصلاح المنطق) :

دخل أعرابي الحمام فزلق فأنشج ، فأنشأ يقول :

وقالوا تَطَهَّرْ إِنَّهُ يَوْمٌ مُجْمَعَةٌ فَرُحْتُ مِنَ الْحَمَامِ غَيْرَ مُطَهَّرْ

تَرَدَّيْتُ مِنْهُ [شَارِبًا] ^(١) شَجَّ مَفْرَقِي بَفَلَسَيْنِ إِنِّي بئْسَ مَا كَانَ مَشْجَرِي

وما يُحْسِنُ الْأَعْرَابُ فِي السُّوقِ مَشِيَّةً فكيف بَبَيْتٍ مِنْ رَحَامٍ وَمَرْمَرِ

يقول لى الأنباطُ إذْ أنا نازل ^(٢) « به لا بظي بالصريمة أعفر » ^(٣)

وقال — حرس الله نفسه — كنتُ أُرَوِّى قافية هذا البيت « أعفرا » ،

وهذه فائدة كنتُ عنها فى ناحية ؛ وأنصرفت .

(٣)

قد رأيتُ أيُّها الشيخ — حاطك الله — عند بلوغى هذا الفصل أن أختَمَ

الجزء الأول بما أُنْتَهَى إليه ، وأشفَعَه بالجزء الثانى على سِيَّاحٍ ما سلف نظَّمَه

ونثرَه ، غيرَ عائِجٍ على ترتيبٍ يحفظ صُورَةَ التصنيف على العادة الجارية لأَهْلِه ،

وعذرى فى هذا واضح لمن طلبه ، لأنَّ الحديث كان يَجْرَى على عَوَائِنِه بحسب

السامع والذاعى .

وهذا الفن لا ينتظم أبداً ، لأنَّ الإنسان لا يَمْلِك ما هو به وفيه ، وإنما يَمْلِك

ما هو له وإليه .

وهذا فصل يحتاج إلى نَفْسٍ مَدِيدٍ ، ورأى يَصْدُرُ عن تأييد وتسديد ^(٤) ؛

والسلام ، والحمد لله وحده ، وصلواته على سيدنا محمد النبى وآله الطاهرين ،

وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين .

(١) هذه الكلمة أو ما يفيد معناها ساقطة من الأصل ؛ وبقيت البيت تمتضى ما أثبتنا .

(٢) « تارك » .

(٣) هذا مثل بضرب فى الصماتة بالرجل . يريدون أن المسكروه ينزل به ولا ينزل بظي

أعفر ؛ كأنه من الحسة والهوان بحث بفضّل عليه الظي الأعفر .

(٤) فى نسخة ميلانو بعد قوله : « وتسديد » ما نصه : أنشئت هذه الرسالة فى رجب

سنة أربع وسبعين وثلاثمائة .

فهرست الأعلام

الواردة في الجزء الأول من كتاب الإمتاع والمؤانسة

لأبي حيان التوحيدي

(١)

ابن الجمل — ٣ : ٦٦
 ابن الحجاج = أبو عبد الله الحسين بن أحمد
 ابن الحجاج
 ابن حسولة = أبو القاسم بن حسولة
 ابن حنابلة — ٨ : ١٣٠
 ابن حيويه = محمد بن حيويه بن المؤمل
 ابن خلكان — ٢١ : ٦٧
 ابن الخمار = أبو الخير الحسن بن سوار
 ابن خيران = أبو علي الحسين بن صالح بن
 خيران
 ابن دارة — ١٤ : ٤٦
 ابن درستويه — ٩ : ١٣١
 ابن رباح — ٦ : ١٠٨
 ابن ربن = علي بن ربن
 ابن رشيد — ٨ : ١٠٨
 ابن الرومي = أبو الحسن علي بن العباس
 ابن جريج
 ابن زرعة = أبو علي عيسى بن إسحاق
 ابن زرعة
 ابن السراج = أبو بكر محمد بن السري
 ابن سهل
 ابن سعدان — ١٣ : ٤٣ ، ١٩ : ٤٢ ، ١٧ : ٦٦
 ابن سكرة — ٧ : ١٣٧
 ابن السباك = أبو العباس محمد بن صبح
 الكوفي

إبراهيم بن العباس الصولي — ٧ : ٥٨
 إبراهيم بن هلال أبو إسحاق الصابي —
 ٦١ : ١٣ ، ٦٧ : ٧ و ١٧ *
 ابن أبي بشر — ٦ : ١٠٨
 ابن أبي خالد — ١٣ : ٥٨
 ابن أبي طالب = علي بن أبي طالب
 ابن أبي طالب الجرجاني الكاتب صوابه
 أبو طالب = أبو طالب
 ابن الأثير — ٢١ : ١٣٧ ، ٢٤ : ٥٠
 ابن الأخشاد — ٦ : ١٠٨
 ابن الباقلاني = أبو بكر محمد بن الطيب القاضي
 ابن برثن — ٦ : ٧١
 ابن برمويه = الحسن بن برمويه
 ابن بقرية الوزير — ١ : ٤٢
 ابن بكش — ٤ : ٣٨
 ابن أليطار — ٢١ : ١٧٩
 ابن ثابت — ١٥ : ٥٦
 ابن ثوبة أبو الهيثم — ٦٦ : ٦ ، ٥٨ : ٦٦
 ٩ : ٩٧ ، ٨ : ١٨ و ١٠٣ *
 ابن جبلة الكاتب — ١٣ : ٤٧ ، ٨ : ٤٢
 ٨ : ٤٨
 ابن جرير — ١١ : ٥٨
 ابن جليات = أبو القاسم علي بن جليات

ابن مسكويه — ١٨ : ٣٥
 ابن الملم = أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان
 ابن المقفع — ٦٥ : ٩ ، ١٧ : ٧٠ ،
 ٣ : ٧٣ ، ٤ : ٧١
 ابن مكيفا = أبو علي بن مكيفا
 ابن الملاح — ١٥ : ١٤٠
 ابن موسى — ١٠ : ٥٢
 ابن الناظر أبو منصور — ٨ : ٤٢ و ٩
 ابن نباة السعدي = عبدالعزيز بن محمد الشاعر
 ابن النديم — ٢٣ : ٢٠ ، ٦٧ : ٢١ ،
 ١١ : ٧٩
 ابن نويخت — ١٠ : ٥٨
 ابن هارون — ٧ : ٤٨
 ابن هندو — ٥ : ٦٣
 ابن الوراق — ١١ : ١٢٩
 ابن وهب — ٩ : ١٠٣
 ابن يحيى العلوي — ٨ : ١٠٨
 ابن يعقوب — ٤ : ٣٨
 ابن يعيش الرقي — ١٠٤ : ١٠٢ ، ١٠٥ : ٣ ،
 ١٠٦ : ٧ ، ١٠٧ : ٢ ، ٢١٦ : ٧ ،
 ٢١٧ : ١٧ ، ٢١٨ : ٧
 ابن يونس القنائي = أبو بشر متى بن يونس
 أبو إسحاق الصابي = إبراهيم بن هلال الكاتب
 أبو إسحاق مزبّد المدني — ٥٨ : ١٧
 و ٢٣ *
 أبو إسحاق الصبيي — ١٤١ : ٤
 أبو بشر متى بن يونس القنائي — ١٠٧ :
 ١٣ و ١٧ و ٢٤ * ١٠٨ : ١٠
 ١٠٩ : ٨ ، ١١١ : ١ ، ١١٢ :
 ٧ ، ١١٤ : ١ ، ١١٥ : ١٠ ،
 ١١٨ : ١٤ ، ١١٩ : ٦ و ١٥ ،
 ١٢١ : ١١ ، ١٢٢ : ٩
 أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث —
 ٥ : ١٥

ابن السمح = أبو علي بن السمح
 ابن سيرين — ٥٨ : ١٣
 ابن سيف الكاتب الراوية — ٢٨ : ٨
 ابن شاذان — ١٢٩ : ١١ ، ١٣٤ : ٣
 ابن شاهويه عامل صمصام الدولة — ٤٣ :
 ٥ و ١١ ، ٤٨ : ٤ ، ٥٣ : ٣
 ابن شاهويه الفقيه = أبو بكر محمد بن أحمد
 ابن علي
 ابن طنج — ٧٩ : ١٩ ، ١٠٨ : ٨
 ابن عباد = أبو القاسم إسماعيل صاحب
 ابن عباد
 ابن عبدان — ٣٨ : ٤ ، ٤٣ : ٧
 ابن عبد العزيز الهاشمي — ١٠٨ : ٨
 ابن عبدكان = محمد بن عبدكان
 ابن عبيد الكاتب — ٤٨ : ١٣ ، ٦١ :
 ١٥ ، ٩٦ : ٥
 ابن العميد = أبو الفضل بن العميد
 ابن الفرات الوزير أبو الفتح الفضل بن
 جعفر — ١٠٧ : ١٦ ، ١٠٨ : ٥ ،
 ١٠٩ : ٤ ، ١١٧ : ١٨ ، ١١٨ :
 ١٤ ، ١١٩ : ١٤ ، ١٢٠ : ٣ ،
 ١٢١ : ١٧ ، ١٢٨ : ١٧
 ابن فراس — ١٠٨ : ٧
 ابن القاسم = علي بن القاسم
 ابن القرمسيي — ١٣٤ : ٣
 ابن قوسين — ٣٨ : ٤ و ١٩ *
 ابن كهب — ١٠٨ : ٧
 ابن لالا — ٣٨ : ٤
 ابن متى = بشر بن متى
 ابن مجاهد — ٥٨ : ١١
 ابن الهيا = خالد بن سنان العبسي
 ابن المديي — ٢٦ : ٢٥
 ابن المراغي = أبو الفتح محمد بن جعفر
 ابن المرزبان كاتب بغر الدولة — ٦٢ : ١ ،
 ١٤١ : ٦

٢٠ ، ١١٠ : ٢٢ ، ٢٠٧ : ٢٢
 أبو الخير الحسن بن سوار المعروف بابن
 الخمار — ٣٢ : ١ و ١١ * ٣٣ :
 ١٤ ، ٣٥ : ٦
 أبو الخير اليهودي — ٢١٨ : ١٢
 أبو دعلج — ٧٠ : ٦
 أبو زكرياء — ٣٥ : ١١
 أبو زكرياء = يحيى بن عدى
 أبو زيد اللغوي — ١٣١ : ٥ ، ٢٢١ : ٦
 أبو زيد أحمد بن سهل البلخي — ٢٦ : ٢
 و ١٥ * ٢١٢ : ١١
 أبو سعيد بهرام بن أزدشير — ٤٣ : ٦
 و ١٥ * ٤٤ : ٨ ، ٤٨ : ٥
 أبو سعيد الذهبي الطبيب — ١٥٧ : ١٤ ،
 ٢١٣ : ١٠
 أبو سعيد السيرافي الحسن بن عبد الله بن
 المرزبان — ٢٥ : ٢ و ١٧ * ٢٧ :
 ٢ ، ٢٨ : ٥ ، ٧٩ : ١٨ ، ١٠٧ :
 ١٧ ، ١٠٨ : ٣ ، ١٠٩ : ٤ ،
 ١١١ : ٤ ، ١١٢ : ١ ، ١١٤ :
 ٢ ، ١١٥ : ١٢ ، ١١٨ : ٣ ،
 ١١٩ : ٣ ، ١٢٠ : ٥ ، ١٢١ : ١
 ١٢٢ : ٣ ، ١٢٨ : ١٢ ، ١٢٩ :
 ٦ ، ١٣١ : ٦ ، ١٣٢ : ٣ ،
 ١٣٣ : ٤ ، ٢٢١ : ٣ ، ٢٢٢ : ٣
 أبو سليمان النطنقي محمد بن طاهر — ٢٩ :
 ٢ و ١٣ * ٣١ : ١٠ ، ٣٣ :
 ٤ ، ٣٥ : ٦ ، ٣٩ : ٧ ، ٤٠ :
 ١٦ ، ٤٢ : ٦ ، ٨٨ : ١٦ ،
 ١٣٠ : ١٣ ، ١٤٦ : ٨ ، ٢٠١ :
 ١٣ ، ٢٠٥ : ١٠ ، ٢٠٦ : ٧ ،
 ٢٠٧ : ٢١ ، ٢١٤ : ٧ ، ٢٢٤ : ٣
 أبو ضريح أوس بن حجر التميمي الشاعر —
 ٥٩ : ٣

أبو بكر القومسي — ٣٢ : ١ و ١٤ *
 ٣٤ : ١١
 أبو بكر محمد بن أحمد بن علي بن شاهره
 الفقيه — ٩ : ٢١ و ٩ *
 أبو بكر محمد بن السري بن سهل المعروف
 بابن السراج النحوي — ٢٧ : ٢ و ١٤ *
 أبو بكر محمد بن الطبيب الباقلاني القاضي —
 ١٤٣ : ١ و ١٨ *
 أبو جعفر الصيمري — ١٣٢ : ٧ ،
 ١٣٣ : ٢
 أبو جعفر ملك سجستان — ١٣٠ : ١٣
 أبو حاتم الرازي — ١٤٠ : ١٩ ، ٢٢٢ : ١٧
 أبو حامد أحمد بن بشر الروروذي — ٩٠ :
 ٦ و ١٩ * ٩٥ : ٧
 أبو الحسن أحمد بن جعفر جعظة الشاعر —
 ٢٨ : ٨ و ١٩ *
 أبو الحسن الأنصاري صوابه الأنطاكي وهو
 أبو القاسم علي بن أحمد — ٩٣ : ١٠ و ١٩
 أبو الحسن العروضي — ٥٩ : ١
 أبو الحسن علي بن العباس بن جريج (ابن
 الرومي) — ٢٧ : ٣ و ١٧ *
 أبو الحسن علي بن عيسى الرماني — ١٠٨ :
 ٣ ، ١٣٨ : ١١ ، ١٢٩ : ٥ ،
 ١٣٣ : ١٣ و ٢٠ * ٢١٤ : ٧
 أبو الحسن الفلكي — ٦٨ : ١٧
 أبو الحسن محمد بن يوسف العامري — ٣٥ :
 ٥ ، ٣٦ : ١ و ١٥ * ٢٢٢ : ١٤ ،
 ٢٢٣ : ٦
 أبو حنيفة (الإمام) — ٥٥ : ٣ ، ١٣٢ : ٤
 أبو حنيفة اللغوي — ١٩٣ : ٢٠
 أبو حيان التوحيدى — ١ : ٢ ، ٢ : ١٩
 ٣ : ١١ ، ٧ : ٦ ، ٢٦ : ١٧ ،
 ٢٩ : ١٤ ، ٣٢ : ١٤ ، ٣٦ : ١٧ ،
 ٥٠ : ٢٥ ، ٩٠ : ٢٠ ، ١٠٤ : ١٠

أبو عثمان الجاحظ — ٥ : ٣ ، ٥٨ : ١٤ ،
٤ : ٦٦

أبو عثمان السمثي — ٢١٥ : ٩

أبو علي أحمد بن محمد مسكويه — ٣٢ : ١
و ١٦ * ٣٥ ، ٣ : ٣٦ ، ٢ : ٤٨ .

١٤ : ١٣٦ .

أبو علي الحسن بن علي الخالغ — ١٣٦ :
١ و ١٢ *

أبو علي الحسين بن صالح بن خيران —
١٤١ : ٨ و ٢٠ *

أبو علي بن السمح — ٣٢ : ١ و ١٣ *

أبو علي عيسى بن إسحاق بن زرعة —
٣٢ : ٩ و ٨٠ ، ٣٣ : ٤٨ ، ١٣ :

أبو علي الفسوي النحوي الحسن بن أحمد —
١٢٩ : ٥ و ١٩ * ١٣١ : ٤ ،

١ : ١٣٢

أبو علي بن مكيخا — ٤٣ : ٦ و ٢١ * ،
٤٤ : ٤٨ ، ١١ :

أبو عمرو بن العلاء — ٥٨ : ٩

أبو عمرو قدامة بن جعفر — ١٠٨ : ٧

أبو عيسى بن المنجم : ٥٦ : ٤

أبو العيناء — ٥٨ : ١٣ ، ٧٠ : ٦

أبو الفتح بن العميد = ذو الكفائتين
أبو الفتح علي بن أبي الفضل محمد بن

العميد

أبو الفتح الفضل بن جعفر = ابن الفرات
الوزير

أبو الفتح محمد بن جعفر الهمداني بن المرازقي —
١٢٩ : ١٠ ، ١٣٣ : ١٧ و ٢٢ *

أبو الفضل بن العميد الكاتب — ١٦ :

١٤ ، ١٧ : ١٥ ، ٣٢ : ١٧ ، ٣٥ :

٨ ، ٣٦ : ١٨ ، ٦١ : ١٢ ، ٦٦ :

٣ ، ٦٧ : ٩ ، ٦٨ : ١٥ ، ١٣٢ :

١٢ : ١٣٦ ، ٢٦

أبو شعيب دوست بن رباط الفقيمي —
٧٠ : ٩

أبو طالب الجراحي — ٦٨ : ١٤ و ١٦
أبو العباس — ١٢٤ : ٥

أبو العباس البخاري تلميذ أبي سليمان النطقي
— ٢٠٧ : ١٥ و ٢١ * ٢٠٨ :

١٤ ، ٢١٠ : ٤

أبو العباس المبرد — ٢٧ : ١٥ ، ١٣١ : ٨
أبو العباس محمد بن صبح الكوفي المعروف

بأبي السماك — ١٤ : ٥ و ١٥ *
١٥ : ٤٤ ، ٢٢ : ٣

أبو عبد الله تلميذ أبي سعيد السيرافي —
١٣٣ : ٤ و ٥

أبو عبد الله الجيهاني أحمد بن محمد بن نصر —
٧٨ : ١١ و ٢٥ * ، ٨٥ : ١٥ ،

٨٦ : ١٤ ، ٨٨ : ٥ ، ٨٩ : ٩

أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحجاج
الشاعر — ٤٨ : ٧ ، ١٣٧ : ٤

و ١٤ و ١٥ * ١٣٨ : ١ ، ١٣٩ : ٨

أبو عبد الله الحسين بن علي الجعل — ١٤٠ :
١ و ١٦ *

أبو عبد الله الحسين بن محمد التجار — ٥٨ :
١٦ و ٢١ *

أبو عبد الله بن طاهر — ٤٣ : ٦ و ٢٢ *
٤٥ : ٣ ، ٤٨ : ٦

أبو عبد الله العارض الحسين بن أحمد بن
سعدان الوزير — ٢ : ١٩ ، ٤ :

١١ و ٢٣ : ١٢٩ ، ٢٢ : ١٣٩ ،
٩ و ١٨

أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان بن المعلم —
١٤١ : ٢ و ١٦ *

أبو عبد الله النصري — ١٣٢ : ١٠
أبو عبيد الله المرزباني محمد بن عمران —

٤١ : ٥ ، ١٢٩ : ١٠ ، ١٣٤ :

٣ و ١٥ *

٥ : ٥٠ ، ١٣ : ٤٨ ، ٤ : ٤٢
 و ٢٢ * ٥١ : ٧ ، ٢ : ٥٢ ،
 ٢٣ : ٢٢٦

أبو يوسف الفقيه — ١٠ : ٥٨
 أحمد بن بصر المروزي = أبو حامد
 أحمد بن بصر

أحمد بن جعفر جعظة = أبو الحسن أحمد
 ابن جعفر
 أحمد بن سهل البلخي = أبو زيد أحمد
 ابن سهل

أحمد بن محمد — ٢ : ٦٤
 أحمد بن محمد مسكويه = أبو علي أحمد بن محمد
 أحمد بن محمد بن نصر الجيهاني = أبو عبد الله
 الجيهاني أحمد بن محمد

أخشا — ١٠ : ٧٩
 إديوس — ٣ : ١٦٤

أرسطوطاليس — ٣٦ : ١٨ ، ٥٨ :
 ١٢ ، ١١٤ : ٤ ، ١١٦ : ٩

استانينجاس — ٢٠ : ٦١
 إسحاق بن إبراهيم الموصلي — ٦ : ٧٦
 إسحاق بن عمران — ١٩ : ٩٧
 الأسدي — ١٥ : ٩٤
 الإسكافي — ١٠ : ٥٨
 الإسكندر — ٥ : ٧٥

إسماعيل بن عباد = أبو القاسم إسماعيل
 صاحب بن عباد

أشجع السلمي — ٨ : ٥٨
 الأصمى — ٧ : ٩٤
 أفتكين — ١٠ : ١٣٧
 الأقرع بن حابس — ٥ : ٨٥
 أقليدس — ٩ : ٨٩

امرؤ القيس — ١٨ : ٢٠٦ ، ٢٠ : ١١٨
 الأندلسي — ١٦ : ٢٢٠ ، ٩ : ٢١١
 أنوشروان — ٣ : ٨٠ ، ٧ : ٧٥

أبو القاسم إسماعيل صاحب بن عباد —
 ٣ : ١٣ و ٢٣ * ، ٢٤ : ١٤ و ٢٣ ،
 ٥٣ : ٢ ، ٦١ : ١٥ ، ٦٣ : ١٣ ،
 ٦٤ : ٦ ، ٦٦ : ٢ ، ٦٧ : ٨ ، ٦٩ :
 ١٩ ، ١٠٣ : ١١ ، ١٣٤ : ٢٢ ،
 ١٣٧ : ١٦ ، ١٤١ : ١٢

أبو القاسم بن حسولة — ١٥ : ٢٤
 و ٢١ *

أبو القاسم الداركي — ١٤١ : ٩ و ٢٢ *
 أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف —
 ٤٢ : ١٩ ، ٤٨ : ٤ ، ٦١ : ١٢ ،
 ٦٦ : ١ و ١٥ *

أبو القاسم عبيد الله بن الحسن غلام زحل —
 ٣٨ : ٣ و ١٧ *

أبو القاسم علي بن جلبات — ٧ : ١٣٥
 و ١٧ *

أبو القاسم عيسى بن علي بن عيسى الجراح —
 ٣٢ : ٢ و ٢٣ * ، ٣٦ : ١١

أبو القاسم الكاتب غلام أبي الحسن
 العامري — ٣٥ : ٥ ، ٥٦ : ١٥ ،
 ٥٧ : ١٢ ، ٢٢٢ : ١٦

أبو محمد الحجاج بن يوسف — ٢ : ٤٧
 أبو مسلم الخراساني صاحب الدولة —
 ٩ : ٧٥

أبو منصور = ابن الناظر
 أبو نصر خواشاذ — ٥١ : ١٦ *

أبو نصر سابور — ٤٣ : ٢٢
 أبو نصر الفارابي — ٣٢ : ٢١ *
 أبو نواس — ١١٠ : ٢٠ *

٩ : ١٠٣ ، ٨ : ٩٧ و ١٨ *
 أبو الوفاء علي بن يحيى السامري —
 ٣٨ : ٢

أبو الوفاء المهندس محمود بن محمد بن يحيى —
 ٢ : ١٩ ، ٧ : ١٩ ، ٤١ : ١٢ .

الأهوازي — ١٤ : ٤٨
أوميروس الشاعر — ٣ : ١٦٤

(ب)

باقل — ١٧ : ٦١
البخارى المحدث — ٢٤ : ٢٦
البخارى = أبو العباس البخارى تلميذ
أبي سليمان
البيهقي — ٩ : ٣١
بهر بن متى — ٢٢ : ٣٢
بهر بن هارون — ٦ : ١٣٩
البلعي الوزير — ٣ : ١٣٠
بلهور — ٩ : ٧٩
بندار المغني — ٩ : ٤٢
بهاء الدولة البويهقي — ١٨ : ٣٢ *
بهرام بن أزدشير = أبو سعيد بهرام
ابن أزدشير

(ث)

ثابت — ١٢ : ٥٧

(ج)

جابر بن حيان — ١١ : ٣٥
الجاحظ = أبو عثمان الجاحظ
جحظة = أبو الحسن أحمد بن جعفر
الجراح = أبو القاسم عيسى بن علي
الجراحي = أبو طالب الجراحي
جرير — ١٦ : ١٩٧، ٢٤ : ٧٩
جعفر بن يحيى — ٦ : ١٠٠
جميل بن معمر صاحب بيتنة — ١٤ : ١٣٨
الجيهازي = أبو عبد الله أحمد بن محمد بن نصر
الجيهازي = محمد بن أحمد

(ح)

الحجاج بن يوسف = أبو محمد الحجاج
ابن يوسف
الحراني — ٣٨ : ٥
الحسن بن أحمد بن عبد الغفار = أبو علي
الفسوي
الحسن بن برمويه — ٤٢ : ٨ و ١٨ *
٣ : ٤٣
الحسن بن سوار = أبو الخير الحسن بن سوار
الحسن بن عبد الله المرزبان = أبو سعيد
السيراقي
الحسن بن علي الخالع = أبو علي الحسن بن
علي الخالع
الحسن بن وهب — ٧ : ٩٧
الحسين — ٩ : ١٣٩
الحسين بن أحمد بن الحجاج الشاعر = أبو
عبد الله الحسين بن أحمد
الحسين بن أحمد بن سعدان الوزير =
أبو عبد الله العارض
الحسين بن صالح بن خيران = أبو طي الحسين
ابن صالح
الحسين بن علي الجعل = أبو عبد الله الحسين
ابن علي
الحسين بن محمد التجار = أبو عبد الله الحسين
ابن محمد

(خ)

خاقان — ٩ : ٧٩
خالد بن سنان العبسي — ١٥٣ : ٥٩ *
خالد بن صفوان — ٢ : ٢٣
الخالد — ٦ : ١٠٨
خراسان — ٢٢ : ٢٢١ *

زكرياء (عليه السلام) — ١٢ : ٩١

الزهري — ٧ : ١٠٨

زهير بن أبي سلمى الشاعر — ٢٥ : ٤٥ *

٢١ : ٧٧

الزهري — ٨ : ٦٣

(س)

سابور بن أزدشير — ١٦ : ١٣٧

سابور = أبو نصر سابور

سجبان — ٢ : ١٣٩

السرى السقطي — ١٧ : ٥٨

سطيح — ٢ : ٥٩

سقراط — ٩ : ٢١٥

سكان شاه — ٤ : ٧٩

السلامي — ١٠ : ١٣٤

سليمان (عليه السلام) — ١٢ : ٩١

سليمان بن عبد الملك — ٦ : ٢٧

سهل بن هارون — ١٤ : ٥٨

سيبويه — ٧٩ : ١٨ ، ١٣١ : ٧ ،

٣ : ٢٢٢

السيرافي = أبو سعيد السيرافي

سيف الدولة بن حمدان — ١٣٦ : ٢٥ ،

١ : ١٣٧

(ش)

شبيب بن شبة — ٢ : ٧١

شرف الدولة البويهى — ١٦ : ٥١

شهرزاد — ٢٣ : ٢٢ *

(ص)

الصابي = أبو إسحاق إبراهيم بن هلال

خراش بن زهير — ٩ : ٢٢١

الخليل بن أحمد — ٩ : ٥٨

خواشاذه = أبو نصر خواشاذه

(د)

الدارقطنى — ١١ : ١٣٠

داود (عليه السلام) — ١١ : ٩١

دوست بن رباط الفقيمي = أبو شعيب

دوست بن رباط

(ذ)

ذو الرمة الشاعر — ١٨ و ١٠ : ٢٢

ذو الرياستين (ابن سينا) — ٢ : ٥٩

ذو الكفائتين أبو الفتح على بن أبي الفضل

محمد بن العميد — ٣ : ١٢ و ٢٠ *

٦٦ : ١٠ ، ١٣٦ : ٣ ، ١٣٧ :

١٠ و ٩ ، ١٣٩ : ٣

(ر)

الرازي = أبو حاتم الرازي

الراوندى — ١٩ : ١٤٠

ردينة — ٢٢ : ٧٦

الرشيد = هارون الرشيد

الرضي بالله العباسي — ١٩ : ٧٩

الرماني = أبو الحسن على بن عيسى

ركن الدولة البويهى — ٣ : ٢١

رؤبة بن العجاج — ١١٨ : ١٩

(ز)

الزجاج — ٨ : ١٣١

زراذشت — ٩١ : ٩٢ ، ٣ : ٩٣ ، ٥ :

علم الجارية — ٩ : ٤٢
 على بن أبي طالب — ٩ : ٧٠ ، ٢١ : ١٠
 على بن أبي الفضل محمد أبو الفتح بن العميد =
 ذو الكفائين أبو الفتح على
 على بن أحمد الأنطاكي = أبو الحسن
 الأنصاري

على بن جعفر — ٦ : ٦٢
 على بن جلبات = أبو القاسم على بن
 جلبات

على بن ربن — ٥٨ : ١٥ ، ١٩ و *
 على بن العباس بن جريج = أبو الحسن على
 ابن العباس

على بن عيسى الجراح الوزير — ٣٢ :
 ١٤ : ٦٨ . ٢٣

على بن القاسم — ١٦ : ٦١
 على بن يحيى السامري = أبو الوفاء على
 ابن يحيى

عمارة بن عقيل — ٧ : ٢٢٢
 عمر بن الخطاب — ٨ : ٢١ ، ١٠٣ : ٨

عمر بن عبد العزيز — ٩ : ٢٦
 عمرو بن كلثوم — ١٤٣ : ٢٠ *

عمير بن شليم التغلبي الملقب بالقطامي — ٢٢ :
 ١٤ و ٢٢ *

عترة العنبي — ١١ : ٢٠ *
 عيسى بن إسحاق = أبو على عيسى
 ابن إسحاق

عيسى بن دأب الأخباري — ٥٨ : ١٥
 عيسى بن على بن عيسى الجراح = أبو
 القاسم عيسى

عيسى (عليه السلام) — ١٥ : ٥٩

(غ)

غزال الراقص — ٩ : ٤٢

الصاحب بن عباد = أبو القاسم إسماعيل
 الصاحب بن عباد

الصاغاني — ٣٨ : ٣

صبيد — ٧٩ : ١٠

صريع الفواني — ٥٨ : ٧

صمصام الدولة بن عضد الدولة بن بويه —
 ٤ : ٢٤ ، ٤٢ : ١٨ ، ٤٣ : ١٢ ،

١٧ : ٦٦ ، ١٧ : ٥١

(ط)

طرفة — ٨١ : ٢٠ *

(ع)

عباد أبو الصاحب — ٦٣ : ٨

العباس بن مرداس — ٧٦ : ٦

عبد العزيز بن محمد بن نباتة السعدي —
 ١٣٦ : ١١ و ٢٥ *

عبد العزيز بن يوسف = أبو القاسم
 عبد العزيز بن يوسف

عبد الله بن دارم — ٨٤ : ٦

عبد الله بن مصعب — ٤١ : ٥

عبد الله بن مروان — ٢٦ : ٧

عبيد الله بن الحسن = أبو القاسم غلام زحل
 عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود —

٢٦ : ١٠

مروة بن الورد — ٦١ : ١

من الدولة البويهية — ٦٧ : ١٨

المسجدي — ٤٨ : ١٤

عضد الدولة بن بويه — ٣٠ : ١٩ ، ٣٢ : ٢٢ ، ٤٣ : ٢١ ،

٤٢ : ١٨ ، ٤٢ : ٢٢ ، ٦٦ : ١٦ ، ٦٧ : ١٨ ، ١٣٤ : ٢٢ ،

١٣٧ : ١٦

مقي = أبو بشر مقي بن يونس القناني
محمد (صلى الله عليه وسلم) — ١٥ : ٥٩ .
٢ : ٩١

محمد بن إبراهيم — ٥ : ٦٩
محمد بن أحمد الجيهاني — ٢٥ : ٧٨
محمد بن أحمد بن علي بن شاهويه الفقيه =
أبو بكر محمد بن أحمد بن علي
محمد بن جعفر الهمداني = أبو الفتح محمد
ابن جعفر
محمد بن الحسين الحاملي — ١ : ١٣٥ ،
* ١٠ و

محمد بن حيويه بن المؤمل — ١١ : ١٢٩
* ١٣٤ : ٣ و ١٨ *

محمد بن السري بن سهل = أبو بكر محمد
ابن السري
محمد بن صبيح الكوفي = أبو العباس محمد
ابن صبيح
محمد بن طاهر = أبو سليمان المنطقي محمد
ابن طاهر

محمد بن طفج = ابن طفج
محمد بن الطيب البافلاني القاضي = أبو بكر
محمد بن الطيب
محمد بن عبدكان — ١٢ : ٦٧ ، ٦ : ٥٨
* ٢٥ و

محمد بن عمران = أبو عبيد الله المرزباني
الأديب

محمد بن محمد بن النعمان = أبو عبد الله محمد
ابن محمد بن النعمان
محمد بن يوسف العامري = أبو الحسن
محمد بن يوسف

محمود بن محمد بن يحيى = أبو الوفاء المهندس
المرزباني بن محمد ملك الديلم — ١٤ : ٦٨ ،
٥ : ١٣٠

المرزباني صاحب آل سامان — ٩ : ١٠٨

غلام زحل = أبو القاسم عبيد الله بن الحسن
غيلان بن عقبة بن نهيس = ذو الرمة

(ف)

نغر الدولة أبو الحسن علي بن بويه — ٤ :
١٢ ، ٦٠ : ١٧

فضالة بن كلدة — ٤ : ٥٩
الفضل بن جعفر = ابن الفرات

(ق)

قابوس — ٩ : ٥١
القادر بالله الخليفة — ١٠ : ١٣٥
قارون — ١٤ : ١٤١
قدامة بن جعفر = أبو عمرو قدامة بن جعفر
قس بن ساعدة — ١٧ : ٦١
القس نظيف النفس الرومي — ٢ : ٣٢
* ١٩ و ٣ : ٣٧

القنطامي = عمير بن شليم التغلبي
القنطبي — ١٨ : ٣٨ ، ١٠ : ٣٢
القناني = أبو بشر مقي
القوي — ٣ : ٣٨
قيصر — ٨ : ٧٩

(ك)

الكنتي — ٦ : ١٠٨
كريز أبو سيار المسمعي — ٧ : ٧٠
كسرى — ٨ و ٣ : ٧٩
كسرى أنوشروان = أنوشروان
الكندى — ٥ : ١٢٧ ، ١٢ : ٥٨

(م)

المغني — ١١ : ١٣٥

(هـ)

هارون الرشيد — ١٤ : ١٦ ، ٢٢ : ٣
المهروى — ٦٩ : ١٢

(و)

الوائق بالله الخليفة — ٩٧ : ١٦
الواسطى — ١٤٠ : ١١
الواقدى — ٥٨ : ١٦
وهب بن يعيش الرقى = ابن يعيش

(ى)

ياقوت — ٥٥ : ٢٠ ، ٧٩ : ١١ ، ٨٤ :
١٤ ، ١٠٧ : ٢١ ، ١١٠ : ١٨ ،
١١٦ : ٢٠ ، ١١٨ : ١٧ ،
١٣٢ : ٢٠
يحيى (عليه السلام) — ٩١ : ١٢
يحيى بن عدى أبو زكريا — ٣٢ : ٢
و ٢١ * ، ٣٧ : ٦
يعقوب بن السكيت — ٢٢٦ : ١
يقفور صوابه فُفْغُور — ٧٩ : ٩
يوخنا — ٥٨ : ١٥

مزدك — ٩٢ : ٩

مسكويه = أبو على أحمد بن محمد

المسيح (عليه السلام) — ١٥ : ١٢

معاوية بن أبى سفيان — ١٠ : ٢١ *

١٥ : ٥٠ ، ٧٠ : ٩

المنعصم الخليفة — ٥٨ : ٢٠ *

المرى صوابه المصممرى — ٣٨ : ٣

المقتدر الخليفة العباسى — ١٠٧ : ٢٢ *

المنذر بن ساوى — ٨٤ : ٥

المهدى الخليفة — ٧٠ : ٦

المهلبى الوزير — ١٣٢ : ١٠ ، ١٣٧ : ١٦

موسى (عليه السلام) — ٩١ : ١١

مؤيد الدولة أبو منصور بويه — ٣ : ٢٤ *

٤ : ١٣ ، ٦٠ : ١٧

(ن)

النبي = محمد صلى الله عليه وسلم
النجار = أبو عبد الله الحسين بن محمد
نصر الدولة — ٣٢ : ١٤
نصر غلام خواشاذه — ٥١ : ٢
النصرى = أبو عبد الله النصرى
النصيبى = أبو إسحاق النصيبى
نظيف = النفس نظيف النفس الرومى

فهرست أسماء الأماكن

الواردة في الجزء الأول من كتاب الإمتاع والمؤانسة

لأبي حيان التوحيدي

١٣، ١٣٦ : ٢٦، ١٤٠ : ١٩،

١٤١ : ١٠ و ٢٣

بلاد الجبال — ٣ : ١٧، ٤ : ١٠

بوزجان — ٥٠ : ٢٣

البيت العتيق — ٢٤ : ٩

البيارستان — ٥١ : ٧

(ت)

تركستان — ٧٩ : ٢١

تفليس — ٥٥ : ١٣

(ج)

جبل طى — ٨٣ : ٢٢

جرجان — ٥١ : ٩

جزيرة العرب — ٨٤ : ٢٤

جيهان — ٧٨ : ٢٤

(ح)

حضر موت — ٨٤ : ١٠

(خ)

خراسان — ٢٦ : ١٦، ٤١ : ١٥،

(ا)

أرجان — ٤ : ١٩ و ٩

أرم — ٨٤ : ٧ و ٢٤

أردوال = أردوان

أردوان — ٧٩ : ٢٨

أسكنان — ٧٩ : ١٠

أصبهان — ٦٣ : ٨، ٧٩ : ٢٧،

١٤١ : ٢٢

أندلس — ٧٧ : ٩

أنطاكية — ٩٣ : ١٩

الأهواز — ٤ : ١٩، ١٣١ : ١٢

(ب)

باب الجسر — ٥١ : ٦

باهان = أرجان

باريس — ١٣٧ : ١٧

بحر الهند — ٨٤ : ٢٥

البحرين — ٨٤ : ١٤ و ١٦

بخارى — ٧٨ : ٢٥

الصرة — ١٤٠ : ١٧

بغداد — ٣ : ١١، ١٤ : ١٦، ٢٥ :

١٨، ٢٨ : ٢١، ٢٩ : ١٣ و ١٣٥،

٣٢ : ١٣ و ٢٠، ٤١ : ١٨،

٩٣ : ١٩ و ٢٠، ١٠٨ : ١٣١ و ١٨

(ش)

الثمام — ١٠ : ٢١ ، ٧٩ : ٢٠ ،
٨٣ : ٢٢ ، ٨٤ : ١ ، ١٩٤ : ٥ ،
الشحر — ٨٠ : ١٣ ، ٨٤ : ٢٥ و ٧

(ص)

صحار — ٨٤ : ٧ و ٢٣
الصفاء — ٨٤ : ١٦
صفين — ٧٠ : ٧
صنعاء — ٨٠ : ١٤ ، ٨٥ : ١
الصين — ٧١ : ١٦

(ط)

طهران — ٣ : ١٨
طيبة — ٨٠ : ٤ و ١٥

(ع)

عدن — ٨٤ : ٨ و ٢٤ و ٢٥
العراق — ١٠ : ٢١ ، ٢٢ : ١٣ ، ٥٠ :
٢٣ ، ٨٤ : ١ ، ١٣٤ : ٢١ ،
عرفة — ٨٥ : ٦
عكاظ — ٨٥ : ٣ ، ٢٢١ : ١٠ و ١١
عمان — ٤٣ : ١٢ ، ٨٤ : ٦ و ١٩ و ٢١
٢٢ و ٢٣ و ٢٥

(ف)

فارس — ٤ : ١٩
فرغانة — ٥٥ : ١٣ و ٢٢ ، ٧٩ :
١٠ و ١٩ و ٢٠

٧٨ : ٢٤ ، ٧٩ : ٩ ، ١٣٤ : ١٥ ،
١٤٤ : ١٣ ، ٢٢١ : ٢٢

خوارزم — ٧٧ : ٩
خوزستان — ٤ : ١٩ ، ٧٩ : ٢٨

(د)

دار الكتب المصرية — ٩٨ : ١٩
دارك — ١٤١ : ٢٢
دبا — ٨٤ : ٧ و ٢٠
دمشق — ٨٣ : ٢٣
دومة الجندل — ٨٣ : ١٤ و ٢٢ ، ٨٤ :
٣ و ١٢

(ذ)

ذو المجاز — ٨٥ : ٣

(ر)

راغة = الرى
الراية — ٨٤ : ١٠
الرى — ٣ : ١١ و ١٧ و ٢٤ ، ٣٥ : ٥ ،
٣٦ : ١ ، ٥١ : ٨ ، ١٣٦ : ٣ ،
١٤١ : ١٢

(ز)

زرود — ٨٠ : ١٥

(س)

سجستان — ٤٢ : ٦ ، ١٣٠ : ١٣
سَرَّ مَنْ رَأَى — ٦٩ : ٦
سَنَجَان — ٤١ : ١٥ و ٢١

نيسابور — ٢٢ : ٤ ، ٢٣ : ٥٠ ،
١٤١ : ١٠ و ٢٢

(هـ)

هجر — ٨٤ : ٤ و ١٤ و ١٧
همدان — ١٢ : ٥٣ ، ١٣٤ : ١٨ ،
١٤١ : ٥ و ١٣
الخير — ٨٠ : ١٦
الهند — ٩ : ٧٩ ، ١٣ : ١٦٥ ،
٨ : ١٧٤

(و)

واسط — ٢٨ : ٢٨ ، ٢١ : ٧٩ ،
وبار — ٨٠ : ٣

(ي)

يبرين — ٨٠ : ٤
اليمن — ١٣ : ٨٠ ، ٢٥ : ٨٤
يونان — ١٠ : ١٧٠ ، ١١ : ١٧٣

(ك)

كرخ بغداد — ٢١ : ١٣٤
الكوفة — ١٤ : ١٧ ، ٩٧ : ١٩

(م)

ماوراء النهر — ٢٣ : ٩٩
التحف البريطاني — ١٧ : ١٣٧
المدينة — ٢٢ : ٨٣
مدينة السلام = بغداد
مرو — ٢١ : ٤١
المشقر — ١٦ و ٥ : ٨٤
مصر — ٢٠ : ٧٩ ، ١٣ : ٥٥ ،
٩ : ١٠٨
مكة — ١٦ : ٨٠
مكتبة باريس — ١٧ : ١٣٧

(ن)

نجد — ٩ : ١٩٦
النوبة — ١٤ : ١٦٥

: ٢١١ ، ٨ : ١٧٤ ، ١٤ : ١١٧

٣ : ٢١٢ ، ١٩

(ى)

اليهود — ٨ : ٩١ و ١٠

يونان — ٧٥ : ٥ ، ٨٩ : ١٦ و ١٨ ،

١٧٠ : ١٠ ، ١٧٣ : ١١ ،

٢ : ٢١٢

(ن)

النحويون — ١٠٧ : ١ ، ١١٧ : ٩ ،

١٠ : ١٢١

النصارى — ٩١ : ٨ و ١٠

(هـ)

الهنود — ٧٤ : ١٨ ، ٧٧ : ٩ ،

٧٩ : ٩ ، ٩٣ : ١٠ ، ١١٠ : ١٣ ،

فهرست أسماء الكتب

الواردة في الجزء الأول من كتاب الإمتاع والمؤانسة

لأبي حيان التوحيدي

تهذيب الأخلاق — ١٧ : ٣٢

(ح)

حياة الحيوان — ٣١ : ١٨٠

الحيوان للجاحظ — ١٤ : ٥٨ ، ٢ : ٥

(ذ)

ذيل تجارب الأمم — ١٧ : ٤٢ ، ٤٣ : ٢٠

(ر)

الرسالة الخاتمة — ١٠ : ١٣٥

(ع)

عيون الأخبار — ٢٤ : ٢٧

عيون الأنباء — ١٨ : ٤١

(ف)

فردوس الحكمة — ١٩ : ٥٨

فضيلة علم الأخبار — ١٦ : ٢٦

الفلاحة — ١٠ : ٨٩

الفهرست — ١٦ : ١٣٤

(ا)

آيين نامه — ٢٥ : ٧٨

الأجوبة — ١٦ : ٣٦

أخبار بني بويه — ٢٠ : ٦٧

أخبار الحكماء — ١٨ : ٣٨ ، ٢٤ : ٥٠

إصلاح النطق — ١ : ٢٢٦

إنجاز القرآن — ١٩ : ١٤٣

الألفاظ الفارسية المعربة — ٢٤ : ٧٩

ألف ليلة وليلة — ٢١ : ٢٣

إنقاذ البصر من الجبر والقدر — ١٥ : ٢٢٢

إيساغوجي — ٤ : ٣٥

(ب)

البذل — ٢١ و ١٦ : ٥٨

بلوغ الأرب — ١٨ : ٨٤

البهجة — ٢ : ١٣٤ ، ٢٣ : ١٣٣

(ت)

التأجي في أخبار بني بويه — ١٩ : ٦٧

تاريخ ابن الأثير = الكامل لابن الأثير

تاريخ الحكماء — أخبار الحكماء

تجارب الأمم — ١٧ : ٣٢

معجم البلدان — ٧٩ : ٢٧ ، ٨٤ : ١٤
 المعجم الفارسي الإنجليزي — ٦١ : ١٩
 مفاتيح العلوم — ٩٩ : ٢٢
 مفردات ابن البيطار — ١٧٩ : ٢١
 المقاييسات — ١١٤ : ١٨ و ٢٠ ، ١١٥
 ١٩ و ٢١ ، ١١٦ : ٢٠
 المقدمات — ١٤١ : ٢١
 الموسيقى — ٨٩ : ٩

(ن)

نقض كلام الراوندي — ١٤٠ : ١٩
 نقض كلام الرازي — ١٤٠ : ١٩
 نهاية الأرب — ٩٨ : ١٩
 النوادر — ٢٦ : ١٧

(هـ)

هزار أفسان — ٢٣ : ٨ و ١٩

(ي)

يمنية الدهر — ١٣٤ : ٢٣ ، ١٣٥
 ١٨ ، ١٣٦ : ١٣ ، ١٣٧ : ٧

(ق)

قاطيفورياس — ٣٥ : ٤

(ك)

الكامل لابن الأثير — ٥٠ : ٢٤ ، ١٣٣ :
 ٢٤ ، ١٣٧ : ٢١
 كتاب إقليدس ٨٩ : ٩
 كتاب للحيهاني في الطمن على العرب —
 ٧٨ : ١١
 كتاب سيويه — ٧٩ : ١٨ ، ١٣١ :
 ٧ و ١٩ و ٢٠ ، ٢٢٢ : ٣

(ل)

لسان العرب — ١٢٢ : ٢٠ ، ٢٢١ : ١٨
 اللطيف — ١٤١ : ٢١

(م)

المجسطى — ٨٩ : ٩ و ١٥
 مستدرك التاج — ١٢٢ : ٢٠
 معجم الأدباء — ٢٤ : ٢١ ، ٣٥ : ١٧ ،
 ٥٤ : ٢١ ، ٥٥ : ١٨ و ٢٠

استدراك

اطلع صديقنا السيد محمد كرد على طَى تجارب الجزء الأول من كتاب الإمتاع والمؤانسة بعد أن مثلت للطبع ، فكتب عليها الملاحظات الآتية ، ونحن نسجلها لحضرته مع شكرنا الجزيل له على هذه المعاونة العلمية القيّمة .

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣	٨	أبعدُ	أبعدَ
٣	١٣	عابسا	عابيا
١٠	٦	يُفْتَقَرُ	يُفْتَقِرُ
١٠	٨	بفكاهتك	بفهاهتك
١٢	٢	زهراتها	زهرتها
١٢	٩	وعيوب	وغيوب
١٣	٩	طلب	طيب
١٦	٩	بحرصون	ويحرصون
٢١	١	محاوبة	محاابة
٢٦	١٠ و ٩	والله إنى لأشتري المحادثة من عبيد الله	والله إنى لأشتري ليلة من ليالى عبيد الله
٣٥	٣	شاذٌ	شاذٍ
٣٨	٣	السامريّ والمعرى	السامريّ والصنيمريّ ، (وقد ذكرنا هذا التصويب فى فهرست الأعلام أيضاً) .
٣٩	٤	مخارق النجوم	مخارف النجوم

صفحة	سطر	خطاً	صواب
٣٩	١٥	عنده الصناعة	هذه الصناعة
٤٠	١٣	يمبر	يقتبر
٤٠	١٩	النفس الفلكية	النفس الكلية
٤١	١	» »	» »
٤١	١٣	قال	قلت
٤٤	٦	تأجيل	تهجين
٥١	٩ و ٨	إلى قابوس وجرجان	إلى قابوس بجرجان
٥٧	١٤	أنه من فعلاته	أنها من فعلاته
٥٨	٤	يقال	يقال [له]
٦٨	١٦	ابن أبي طالب	أبو طالب
٧٠	١	في دار	في دار [لِتَانِ] . (والتانى :
			الدهقان ؛ أوزعيم الإقليم)
٧٢	١٣	ويتجنّون به على الدناءة	ويتجنبون به الدناءة
٧٩	٩	يقفور	فُفُور
٨٣	١٠	ويكنى	ويدقنى
٨٦	١١	المؤذية	المؤدبة
٨٦	١٣	نقاب	نقاب
٨٨	٢	والاختبار	والإختبار
٨٨	١٦	مع الجماعة وأبو سليمان يقول	وأبو سليمان يقول مع الجماعة
١٠٠	١١	وينصف	وينصف

صفحة	سطر	خطاً	صواب
١٠١	٩	خَرَفْتُ	خَرَفْتُ
١٠٢	٢١ و ٢٠	تَتَفَذَى	تَتَفَذَى
١١٣	١٥	بعادة	بعبارة
١٣٦	١١	يَذْفَعُ	[لا] يَذْفَعُ
١٥٨	١٥	بِذَالاً	نَزَالاً
١٩٦	٧	حدّثت المين	جذبت المين
١٩٧	٢٠ ح	نوبين	نوبان
٢٠٨	١٠	لم تمحركون	لم [لا] تمحركون
٢١٨	٤	والثقة شوك القتاد	[دون] الثقة شوك القتاد
٢٢٠	٧	لا يطردان ولا يستمران	لا تطردان ولا تستمران
٢٢٣	١	قوية	قوية

وقد تفضل فحتم هذه الملاحظات بالجملة الآتية :

« هذا ما أردت تقييده ، ومن هذه الملاحظات ما يردّ عليه بأيسر سبيل ، ومنه

ما هو من هنات مطبعية لا يخلو منها كتاب ، ومن رأى النسخة الوحيدة التي جرى عليها الطبع من كتاب الإمتاع والمؤانسة يهني الأستاذين ناشريه على ما وُفّق له من تقويم غلطاته وسقطاته ونحرياته ، والعصمة لله وحده » .

